ساحرة پورتوبيللو

رواية

پاولو كويليو

مؤلّف الرائعة العالميّة «الخيميائي»

Garnet
PUBLISHING

ساحرة پورتوبيللو

«ساحرة پورتوبيللو»

پاولو كويليو

الى الاصدقاء في منتدى ليلاس مع التحية
بدر

ترجمة: رنا الياس الصيفي
تدقيق لغوي: روحي طعمة

مقدمة الكاتب لسلسلة رواياته الصادرة بالعربية

كان أحد كبار متصوفي الإسلام يُحتضَر، وسوف ندعوه هنا حسن، عندما سأله تلميذ من تلاميذه:

ـ «من كان معلّمك أيها المعلّم؟».

أجاب: «بل قل المئات من المعلّمين. وإذا كان لي أن أسمّيهم جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عديدة، وربما سنوات. وسوف ينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم».

ـ «ولكن، ألم يكن لبعضهم تأثيرٌ عليك أكبر من تأثير الآخرين؟».

استغرق حسن في التفكير دقيقة كاملة، ثم قال:

«كان هناك ثلاثة في الواقع، تعلّمت منهم أموراً على جانب كبير من الأهمية:

«أوّلهم كان لصاً. فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم أتمكّن من الوصول إلى البيت إلّا في ساعة متأخّرة جدًّا من الليل. وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه في تلك الساعة. وفي النهاية، صادفت رجلاً طلبت مساعدته، ففتح لي قِفل الباب في لمح البصر.

«أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلّمني كيف فعل ذلك. فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس. لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى المبيت في منزلي.

«مكث عندي شهراً واحداً. كان يخرج كل ليلة، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فداوم على التأمّل، وأكثِرْ من الصلاة. وكنت دائماً أسأله عندما يعود، عمّا إذا كان قد غنم شيئاً. وكان جوابه يتّخذ، على الدوام، مِنوالاً واحداً لا يتغيّر: 'لم أوفّق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنّني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'.

«كان رجلاً سعيداً. لم أره يوماً يستسلم لليأس جرّاء عودته صفر اليدين. من بعدها، وخلال القِسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التأمّل يوماً بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقّق اتّصالي بالله، كنت أُستعيد كلمات ذلك اللص: 'لم أوفّق بشيء هذا المساء، لكنّني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'. كان ذلك يمنحني القوةَ على المتابعة».

ـ «ومن كان المعلّم الثاني؟».

ـ «كان كلباً. فقد حدث أن كنتُ متوجّهاً إلى النهر لأشرب قليلاً من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عَطِشاً أيضاً. لكنه، عندما اقترب من حافّة النهر، شاهد كلباً آخر فيه. ولم يكن هذا غيرَ انعكاسٍ لصورته في الماء.

«دبّ الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبح. بذل ما بوسعه ليُبعد الكلبَ الآخر، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع. وفي النهاية، قرّر الكلب، وقد غلبه الظمأ الشديد، أن يواجه الوضع، فألقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة».

توقّفَ حسن قليلاً، ثم تابع:

ـ «أخيراً، كان معلّمي الثالث ولداً. فقد حدث أن رأيته يسير باتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: هل أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ عليّ الصبي بالإيجاب. ولما كان يقلقني أن يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح: اسمعْ يا صبيّ: في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مُطفأة. أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تُشعلها؟

ضحك الصبي، وأطفأ الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي، أتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا؟

«أدركت حينها كم كنت غبيًّا. من ذا الذي يُشعل نار الحكمة؟ وإلى أين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدّسة للحظاتٍ مُعيّنة، ولكنّه لا يعرف إطلاقاً أين أُشعلت. وبدأت، منذ ذلك الحين، أُسِرّ بمشاعري وأفكاري لكلّ ما يحيط بي: للسُحب والأشجار والأنهار والغابات، للرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين. وبتّ أثق بأن النار سوف تتوهّج عندما أحتاج إليها. كنتُ تلميذَ الحياة، وما زلتُ تلميذها. لقد استقيتُ المعرفةَ وتعلّمت من أشياء أكثر بساطة، من أشياء غير متوقّعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم».

تُبيّن لنا هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوّف في الإسلام، أن أحد أقدم الطرق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلّق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تُبيّن لي أموراً لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على المكرمة بمثلها، وأنا أرقب كتبي تنشرها «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ لبنان»، في المنطقة نفسها التي

كثيراً ما أثارت مُخيّلتي. وإنّني مُمتنّ للناشر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماس لجعل أعمالي في متناول قرّاء العربية، من خلال ترجمتها، ترجمة اتّسمت بالجديّة، بعد حصوله منّي، وفقاً للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

وأودّ أخيراً، أن أتوجّه بالشكر إلى الوكيلة ـ المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماسها، هذا الحلم ممكناً، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

باولو كويليو

يا سلطانة الحَبَل بلا دَنَس، صلّي لأجلنا نحن الذين نتضرّعُ إليكِ، آمين.

إلى س. ف. ز، كشمسٍ نَثَرَ أشعّته ودفئه أينما حلّ، وكان قدوة احتذى بها كلّ من يُجاوز أُفُقه بالفكر.

«ولَكِنْ، لا أَحَدَ يُشْعِلُ مِصْباحاً وَيَضَعُهُ في مَكَانٍ مَخْفيٍّ
أَوْ تَحتَ المِكيالِ، بَلْ يَرْفَعُهُ على المَنارَةِ لِيَرى الداخِلونَ
النُورَ».

إنجيل لوقا ١١:٣٣

قبل أن تهجر كلّ هذه الإفادات طاولة مكتبي وتسير في خطى القدَر الذي اخترته لها، خَطَرَ لي أن أستخدمها مادّة أساسية لوضع سيرةٍ تقليدية مدروسة بشمولية، تروي قصة حقيقية.

شرعتُ أقرأ سلسلة من السِيَر المختلفة، لعلّها تساعدني في الكتابة، فأدركت أنّ وجهة نظر كاتب السيرة في بطل روايته تؤثّر لا محالة في حصيلة بحثه. وبما أنني لم أكن أنوي فرض وجهات نظري على القارئ، بل طرح قصة «ساحرة بورتوبيللو» من منظار شخصياتها الرئيسية فحسب، فسرعان ما عَدَلتُ عن فكرة كتابة سيرة مباشرة. واستقرّ بي الرأي على المقاربة الفضلى؛ وهي، ببساطة، نقل ما أخبرني به الناس.

هيرون راين، ٤٤ سنة، صحافي

لا أحد يُشعل نوراً ليستره؛ الهدف من النور هو خلق مزيد من النور، لفتح عيون الناس، لكشف الجمالات من حولنا.

لا أحد يُضحّي بالحبّ... أغلى ما يملك.

لا أحد يضع أحلامه في يديّ مَن قد يبدّدها.

لا أحد، باستثناء أثينا.

بعد مرور زمن طويل على موت أثينا، طلبت معلّمتها السابقة

إليّ أن أرافقها إلى بلدة برستونبانز في اسكوتلندا. هناك، باستغلال النفوذ الإقطاعي القديم الذي كان سيبطل الشهر التالي، منحت البلدة مذكرات عفو رسمية لـ ٨١ شخصاً ـ وهررهم ـ ممن أُعدموا في القرنَين السادس عشر والسابع عشر لممارستهم السحر.

تقول الناطقة الرسمية باسم المحاكم البارونية في برستونغرانج ودولفينستون: «أغلبية الذين أُدينوا... حُكم عليهم على أساس دليل غير حسّي، أي أفاد الشهود في الادّعاء أنهم أحسّوا بوجود أرواح شريرة، أو أنهم سمعوا أصوات أرواح».

لا جدوى الآن من الكلام عن كلّ الفظائع التي ارتكبتها محكمة التفتيش، من غرف تعذيب ومحارق أوقدتها بفتيل الحقد والانتقام؛ مع ذلك، فإن «إدّا»، ونحن في طريقنا إلى برستونبانز، قالت مراراً إن أمراً ما يشوب تلك المبادرة التي وجدتها غير مقبولة: البلدة والبارون الرابع عشر من برستونغرانج ودولفينستون، كانا «يمنحان مذكرات عفو» لأشخاص أُعدموا بوحشية.

«نحن الآن في القرن الحادي والعشرين، ومع ذلك، فإن المتحدّرين من نسل المجرمين الفعليين، أولئك الذين قتلوا الضحايا الأبرياء، لا يزالون يشعرون أنهم يملكون الحق في منح إعفاءات. أتفهم قصدي يا هيرون؟

فهمتُ قصدها. حملةُ مطاردة ساحرات جديدة تستحكم. هذه المرة، ليس السلاح حدّ النصال الحامية، بل حِدّة السخرية والقمع. كلّ من يكتشف أنه يحظى بموهبة ويتجرأ على البوح بقدراته، يُنظر إليه في العادة بعين الريبة. بشكل عام، وبدل أن يشعر الزوج أو الزوجة أو الوالد أو الولد أو أيًا يكُن، بالزهو والفخار، يعمدون إلى منع الموهوب من ذِكر المسألة، خوفاً من تعريض العائلة للسخرية.

قبل تعرُّفي أثينا، خِلتُ أنّ مواهب مماثلة هي طريقة مضلّلة لاستغلال أسى الناس. كان سفري إلى ترانسلفانيا لإعداد وثائقيّ عن مصّاصي الدماء، طريقة أخرى أيضاً لإثبات كم من السهل خداع الناس. بعض التطيُّرات، مهما بدت منافية للعقل، تقبع في خيال المرء وغالباً ما يستغلّها أشخاص عديمو الضمير. عندما زرتُ قصر دراكولا، الذي أُعيد بناؤه لمجرد إشعار السيّاح بأنهم في مكان مميّز، اقترب مني مسؤول حكومي، وألمح إلى أنني سأتلقّى هدية «هامّة» (كما قال) عندما سيعرض الفيلم على قناة الـ BBC. حَسِبَ ذاك المسؤول أنني كنت أساعد في ترويج الخرافة، وبالتالي، أستحق مكافأة سخية. قال أحد المرشدين السياحين إنّ عدد الزوّار يزداد كل سنة، وإن أي تنويه بالمكان سيكون إيجابياً، حتى وإنْ ذَكَرَ برنامج ما أن القصر مزيف، وأن فلاد دراكولا هو شخصية تاريخية لا صلة لها بالخرافة، وإنها مجرد تصوّر نسجته مخيّلة إيرلندي خصبة [ملاحظة: برام ستوكر]، الذي لم يطأ المنطقة يوماً.

عرفتُ حينها أنني، مهما اتّسمتْ وقائعي بالدقة، متواطئ في الكذبة عن غير عمد؛ حتى وإن كانت الفكرة في نصّي هي تجريد المكان من طابعه الخرافي، فسوف يصدِّق الناس ما يريدون تصديقه؛ كان المرشد على حقّ، سأكون ببساطة أساعد في المزيد من الترويج. عَدَلتُ عن المشروع من فوري، مع أنني كنت قد أنفقت الكثير من المال على الرحلة والأبحاث.

غير أنّ سفري إلى ترانسلفانيا كان له وقعٌ مدوٍّ على حياتي، ذلك أنني التقيتُ أثينا هناك عندما كانت تحاول تقفّي أثر والدتها.

القدرُ، قدرٌ غامض، جامح، وضعنا وجهاً لوجه في ردهة تافهة لفندق أتفه. كنت شاهدها على محادثتها الأولى مع ديدر، أو «إدّا»،

كما تحبّ ان تُسمّى. شاهدتُ، كما لو كنت مشاهداً ينظر إلى حياته، فيما راح قلبي يتخبّط بل سدى لئلا يسمح لنفسه بأن يقع تحت إغواء امرأة لم تنتمِ إلى عالمي. أطريتُ على نفسي عندما خرج العقل من المعركة خاسراً، وكل ما أمكنني فعله هو أن أستسلم وأتقبّل أنني في حب.

أفضى بي هذا الحب إلى رؤية أمور لم أتصور يوماً أنها موجودة: طقوس، تجسّدات، انخطافات. واعتقاداً مني أن الحب أعماني، شككتُ في كل شيء، لكنّ الشك، أبعد من أن يُشلّني، دفعني في وجهة المحيطات التي لم أستطع الإقرار بوجودها المحض. كانت تلك الطاقة ذاتها التي، في الأوقات العسيرة، ساعدتني على مواجهة خُبث زملائي في الصحافة، وعلى الكتابة عن أثينا وعملها. وبما أن الحب يبقى حياً، تبقى الطاقة، على الرغم من موت أثينا، على الرغم من أنّ كل مرادي الآن هو نسيان ما رأيت وتعلّمت. أمكنني أن أجوب ذاك العالم وأثينا فقط إلى جانبي.

هذه كانت حدائقها، أنهارها، جبالها. الآن، مع رحيلها، أحتاج إلى أن يعود كل شيء إلى ما كان عليه. سوف أركّز أكثر على مشكلات الزحمة، وسياسة بريطانيا الخارجية، وكيفية إدارتنا للضرائب. أريد استرجاع التفكير في أن عالم السحر هو مجرد حيلة ذكية، أن الناس متطيّرون، أن كل ما يعجز العلم عن تفسيره لا يحقّ له بالوجود.

عندما أخذتْ اللقاءات في بورتوبيللو تخرج عن السيطرة، تجادلنا باستمرار جول تصرّفها، مع أنني مسرور الآن أنها لم تُصغِ إليّ. وإن كان من عزاء محتمل في مأساة فَقْد أحدٍ نحبّه كل الحبّ، فهو الأمل الضروري في الإيمان بأنّ ما جرى كان على الأرجح لصالحنا.

أصحو وأنام على هذا اليقين؛ كان من الأفضل لو أنّ أثينا رحلت

عندما قرّرتْ ذلك، بدلاً من السقوط في جحيمات هذا العالم. ما كانت لتستعيد راحة البال بعد الأحداث التي ألبستها لقب «ساحرة بورتوبيللو». ولكانت بقية حياتها صداماً مريراً بين أحلامها هي، والواقع الجَماعي. ولكانت، بحسب معرفتي لها، خاضت المعركة حتى النهاية، وهدرت طاقتها وفرحها في محاولة إثبات شيء لم يكن أحد، على الإطلاق، مستعداً لتصديقه.

الله أعلم، لعلها طلبت الموت كمثل ضحية نجت من حطام سفينة وتسعى إلى برّ أمان. لا بُدّ أنها وقفت ليلاً عند محطّات قطار أنفاق كثيرة في انتظار لصوص لم يأتوا. لا بُدّ أنها مشت في أحياء باريس الأخطر، بحثاً عن قاتل لم يظهر أمامها، أو لعلّها حاولت استفزاز غضب مَنْ هم أقوى منها جسدياً، فرفضوا أن يغضبوا، من مكتئبين ومكابرين وعاجزين وأصحاب نفوذ.

وفي النهاية، تدبّرت أمر قتلها بوحشية. لكن، حينها، كم واحداً منّا وفّر على نفسه الألم من رؤية أهمّ الأمور في حياتنا تختفي بين لحظة وأخرى؟ ولا أعني الناس فقط، بل أفكارنا وأحلامنا أيضاً: قد نبقى أحياءً ليوم، لأسبوع، لبضع سنوات، لكننا، جميعاً، محكومون بالفَقْد. يظل الجسد حياً. لكن، عاجلاً أم آجلاً، ستتلقّى الروح ضربة الموت. إنها الجريمة الكاملة، لأننا نجهل من قَتَلَ فرحنا، ما كانت دوافعهم، أو أين يمكن إيجاد القتلة.

هل هم مدركون ما فعلوا، أولئك المذنبون المجهولون؟ أشكُّ في ذلك، لأنهم، المكتئبون، المكابرون، العاجزون وأصحاب النفوذ، هم أيضاً ضحايا الواقع الذي أوجدوه.

هم لا يفهمون عالم أثينا وسوف يعجزون عن فهمه. نعم، هذا السبيل الأفضل للتفكير في الأمر، إنه عالم أثينا. أخيراً، بدأت أتقبّل أنني كنت ساكناً مؤقّتاً، خدمة لي، كشخص يجد نفسه

في منزل جميل، يتناول طعاماً فاخراً، مُدركاً أنها مجرّد حفلة، أن المنزل يملكه آخر، أن الطعام ابتاعه آخر، أن الوقت سيحين عندما ستنطفئ الأضواء، ويخلد المالكون إلى النوم، ويعود الخدم إلى مخادعهم، ويُوصَد الباب، فيجد نفسه في الشارع من جديد، ينتظر سيارة أجرة أو باصاً ليعيده إلى وضاعة حياته اليومية.

أنا أعود، أو بالأحرى، جزءٌ مني يعود إلى ذلك العالم حيث ما يمكن أن نراه ونلمسه ونفسّره فقط يعتبر منطقياً. أريد أن أعود إلى ذاك العالم حيث مخالفات تجاوز السرعة، حيث الناس يجادلون أُمناء الصندوق في المصرف، أريد العودة إلى التذمّر الدائم من أحوال الطقس، إلى أفلام الرعب وسباق سيارات السرعة. هذا هو الكون الذي عليّ التعايش معه لباقي أيام حياتي. سأتزوّج، أُرزق بأولاد، وسيصبح الماضي ذكرى بعيدة، تجعلني في نهاية المطاف أتساءل: كيف أمكنني أن أكون بهذا العمى؟ كيف أمكنني أن أكون بهذه السذاجة؟

أعلم أيضاً، عند الليل، أنّ جزءاً مني سيظل يهيم في الفضاء، في اتصال مع الأشياء الواقعية بواقعية علبة التبغ وكأس المشروب الماثلتين أمامي الآن. ستُراقص روحي روح أثينا؛ سأكون معها في نومي؛ سأنهض أتصبّب عرقاً وأدخل المطبخ لأجلب كأس ماء. سأفهم أنّ على المرء، بغية صَدّ الأشباح، استخدام أسلحة لا تشكّل جزءاً من الحقيقة. ثم، عملاً بنصيحة جدّتي، سأضع مقصاً مفتوحاً على الطاولة المجانبة للسرير لأقص شريط الحلم.

في اليوم التالي، سأرمق المقص بنظرة ندم، لكن عليّ التكيّف مع العيش في العالم مجدَّداً أو المخاطرة في الجنون.

أندريا ماك كاين، ٣٢ سنة، ممثّلة مسرحية

«لا يمكن لأحد التلاعب بغيره. في أي علاقة، يكون الطرفان على علم بما يقومان به، حتى وإن تذمّر أحدهما لاحقاً لأنه استُغلّ».

هذا ما دَرَجَتْ أثينا على قوله، لكنها تصرّفت بشكل مُغاير، لأنها استغلّتني وتلاعبت بي من دون أن تقيم وزناً لمشاعري. وبما أننا في صدد الكلام عن السحر، فإن ذلك يجعل من الاتّهام أكثر خطورة؛ في النهاية، كانت أثينا معلّمتي، مسؤولة عن تمرير الألغاز المقدّسة، بإيقاظ القوة المجهولة التي نمتلكها جميعاً. عندما نركب عباب هذا البحر المجهول، نثق ثقة عمياء بمن يرشدنا، معتقدين أنّ مدى معرفتهم يفوق معرفتنا.

أضمن أنهم لا يعرفون أكثر مما نعرف. أقصد أثينا وإدّا، وكل الأشخاص الذين تعرّفتهم من خلالهما. أخبرتني أثينا أنها كانت تتعلّم وهي تعلّم. ومع أنني رفضت تصديق ذلك أولاً، فقد تمكّنت لاحقاً من التفكير في أن ذلك كان على الأرجح صحيحاً. أدركتُ أن ذلك كان إحدى طُرقها الكثيرة لجعلنا نُلقي بدروعنا ونستسلم لسحرها.

إن الغائصين في بحث روحاني لا يفكّرون، إنهم ببساطة يريدون النتائج. يريدون الشعور بأنهم أقوياء وبفوقية على الجماعات المجهولة الاسم. هم يريدون التميُّز. تلاعبت أثينا بمشاعر الآخرين بطريقة مروّعة جداً.

أعي أنها كانت يوماً شديدة الإعجاب بالقديسة «تريزا الطفل يسوع». لستُ مهتمة المذهب الكاثوليكي. وقد سمعتُ أن تريزا، خَبِرت نوعاً من الاتحاد الصوفي والجسدي مع الله. ذكرتْ أثينا ذات

مرة أنها ترغب في أن تعيش هذه الحالة. كان حريّ بها إذاً أن تدخل ديراً وتكرّس حياتها للصلاة أو لخدمة الفقراء. ولو حدث ذلك، لحظي العالم بنفع أكبر وبخطورة أقلّ بكثير من استغلال الموسيقا والطقوس لاستمالة الناس إلى نوع من إيقاعهم في حالة من الانتشاء تضعهم على احتكاك مع الأفضل والأسوأ في ذواتهم.

قصدتُها عندما كنت أبحث عن معنى لحياتي، مع أنني لم أقل الكثير في لقائنا الأول. كان عليّ أن أدرك منذ البداية أنّ أثينا لم تكن مهتمة كثيراً بذلك؛ أرادت أن تحيا، أن ترقص، أن تمارس الحب، أن تسافر، أن تجمع الناس من حولها لتُظهر لهم كم حكيمة هي، للتباهي بما وُهبت لاستفزاز الجيران، لاستغلال كل دَنَسٍ فينا إلى أقصى الحدود. مع أنها حاولت مراراً إضفاء بعض البريق الروحاني على ذلك المسعى.

كلما التقينا، لتأدية مراسم سحر أو لتناول كأس معاً، كنتُ مدركة لقوّتها. كانت شديدة لدرجة أنني كدت ألمسها. في البدء، افتُتنتُ بها وأردت أن أكون مثلها. لكن، ذات يوم، كنا في حانة، وأخذت تتكلّم عن «المذهب الثالث» المتعلّق بالجنس. فعلتْ ذلك أمام حبيبي. تذرّعت بأنها كانت تعلّمني أمراً. كان هدفها الحقيقي، في رأيي، إغواء الرجل الذي أهوى.

وبالطبع، نجحتْ.

ليس مستحسناً الكلام بالسوء عمّن فارقوا الحياة إلى عالم الأطياف. مع ذلك، لا يتوجّب على أثينا أن تلصق ذلك بي، بل بكل تلك القوى التي وجّهتها إلى ناحية منفعتها الخاصة، بدل أن تكرّسها لخير الإنسانية ولتنوُّرها الروحاني الذاتي.

وفوق كل ذلك، لو أنها لم تقم بذلك بدافع حب الظهور، لكان

كل ما بدأناه معاً قد نجح تماماً. ولو أنها تصرّفت بتكتّم أكبر، لكنا الآن ننجز المهمة التي أُنيطت بنا. لكنها عجزت عن كبح جماحها؛ ظنّت أنها ربّة الحقيقة، قادرة على تخطّي كل الحواجز بمجرد استخدام قوى إغوائها.

والنتيجة؟ تُركتُ وحيدة. ولا يسعني ترك العمل غير مُنجز. عليّ الاستمرار حتى النهاية، مع أنني أشعر أحياناً بأنني شديدة الضعف ومحبطة.

لم أفاجأ بالطريقة التي انتهت فيها حياتها؛ كانت تتودّد إلى الخطر دوماً. يُقال إن المنفتحين أتعس من الانطوائيين، وعليهم التعويض عن ذلك بالإثبات لأنفسهم على الدوام كم هم سعداء، في رضا، ومتصالحون مع الحياة. في حالتها، على الأقلّ، يصحّ ذلك بحقّ.

كانت أثينا مدركة لقوّة حضورها، وجعلت كلّ من أحبّها يُعاني.

أنا ضمناً.

ديدر أونيل، ٣٧ سنة، طبيبة، تُعرف بـ «إدًا»

إذا اتصل بنا رجل غريب اليوم وتكلّم قليلاً، لا يُقدّم اقتراحات، لا يقول شيئاً مميزاً، مع ذلك يولينا ذاك الاهتمام الذي نادراً ما نتلقّاه، نكون قادرات إلى حدّ بعيد على مطارحته الفراش في الليلة ذاتها، شاعرات نسبياً أننا مغرمات. هذه حالنا نحن النساء، ولا ضير في ذلك، فمن طبيعة الأنثى أن تُشرّع نفسها للحب بسهولة.

كان هو الحب عينه الذي شرّعتُ نفسي له في لقائي الأول مع «الأم» عندما كنتُ في التاسعة عشرة من العمر. كانت أثينا في

مثل هذه السن يوم دخلتُ للمرة الأولى في حالة انخطاف وهي ترقص. لكن كان ذلك الشيء المشترك الوحيد بيننا، أي العمر الذي ابتدأنا فيه.

وكنا في باقي الوجوه مختلفتين تماماً وعميقاً، خصوصاً في تعاطينا مع الآخرين. وبصفة معلّمة لها، لطالما بذلتُ ما في وسعي لمساعدتها في بحثها الداخلي. أما كصديقة، مع أنني لست على ثقة بأنّ مشاعر الصداقة كانت متبادلة، فإنني حاولت إنذارها من أنّ العالم غير مُهيّأ لنوع التحوّلات التي أرادت إحداثها. أذكر أنني قضيتُ بعض الليالي المريرة قبل أن أسمح لها بأن تتصرّف بحرية، وتنصاع لأوامر قلبها.

كانت مشكلتها العظمى أنها امرأة من القرن الثاني والعشرين تحيا في القرن الحادي والعشرين، من دون أن تتستَّر على هذا الواقع. هل دفعتْ ثمناً؟ بالتأكيد دفعت. لكنها كانت لتدفع ثمناً أغلى لو أنها قمعت نفسها الأَثيرة الحقيقية، كانت لتشعر بالمرارة والإحباط، بالقلق على الدوام «لما قد يظن الآخرون»، والقول «سوف أحلّ هذا وذاك أولاً، ثم سأكرّس نفسي لحلمي»، والتذمّر أن «الظروف لا تكون ملائمة أبداً».

الكلّ يبحث عن المعلّم الأفضل، ومع أنّ تعاليم المعلّمين قد تكون إلهية المضمون، فإنهم جميعاً بشر. وهذا أمر يصعب على الناس تقبّله. لا تخلط بين المعلّم والدرس، بين الطقس الديني والانتشاء، بين ناقل الرمز والرمز بذاته. إن «التقليد» يرتبط بتلاقينا مع قوى الحياة وليس مع الناس الذين يُحدثونها. لكننا ضعفاء: نسأل «الأم» أن ترسل إلينا مرشدين، بيد أن كل ما تبعث به هو الإشارات إلى الدرب التي علينا أن نسيرها.

مشيرون للشفقة أولئك الذين يبحثون عن الرعاة، بدل التوق إلى

الحرية! إن التلاقي مع الطاقة العُليا مفتوح لأي يكن، لكنه يظل بعيداً عن أولئك الذين يُلقون المسؤولية على عاتق الغير. إن وقتنا على هذه الأرض مقدّس، وعلينا الاحتفاء بكل لحظة.

لقد نُسيت أهمية ذلك بالكامل: حتى العُطل الدينية تحوّلت إلى فرص للذهاب إلى الشاطىء أو المتنزّه أو التزلّج على الثلج. انتفت الطقوس. لم يعد بالإمكان تحويل الأفعال العادية إلى تجلّيات المقدّس. نطهو الطعام، وبدل أن نفرغ حبّنا في إعداده، نتذمّر من أنه مضيعة للوقت. نعمل ونحمل أنفسنا على التصديق أنه لعنة إلهية، في حين أن علينا استخدام مهاراتنا لخلق المتعة ونشر طاقة «الأم».

جعلت أثينا العالم المكتنز الذي نحمله جميعاً في نفوسنا يطفو على السطح، من دون أن ندرك أنّ الناس ليسوا مهيّئين بعدُ لتقبّل قدراتهم.

نحن النساء، عندما نكون في بحث عن معنى لحياتنا أو عن درب المعرفة، نتماهى دوماً بنماذج أنثوية أربعة:

العذراء، (ولستُ هنا في صدد الكلام عن فتاة عذراء من الناحية الجنسية) ينبع بحثها من استقلاليتها التامّة، وكلّ ما تتعلّمه هو ثمرة قدرتها على مواجهة التحدّيات وحدها.

الشهيدة، تجد طريقها إلى المعرفة الذاتية من خلال الألم والخنوع والعذاب.

القدّيسة، تجد السبب الحقيقي لحياتها في الحب غير المشروط، وفي قدرتها على العطاء من دون طلب شيء في المقابل.

أخيراً، الساحرة، تبرّر وجودها في البحث عن اللذّة التامة اللامحدودة.

بطبيعة الحال، على المرأة أن تختار أحد هذه النماذج الأنثوية، لكنّ أثينا كانت النماذج كلّها دفعة واحدة.

بديهياً، يمكننا تبرير سلوكها، زاعمين أنّ كل من يدخلون حالة من الانخطاف أو الانتشاء يفقدون الاتصال مع الواقع. هذا خطأ: العالم المادي والعالم الروحاني هما وجهان لعملة واحدة. يمكننا أن نرى الألوهية في كلّ ذرّة غُبار. لكن ذلك لا يمنعنا من مسحها باسفنجة مبلّلة. الألوهية لا تختفي، بل تتحوّل إلى السطح النظيف.

كان على أثينا أن تكون أكثر حذراً.

عندما أتأمّل في حياة تلميذتي وموتها، يبدو لي أنه كان حرياً بي أن أغيّر سلوكي أنا أيضاً.

ليلى زينب، ٦٤ سنة، عالمة في التنجيم

أثينا؟ يا له من اسم مشوّق! لنرَ... رقمها الأقصى هو ٩. متفائلة، أنيسة، الأرجح أن تتميّز بين حشد. قد يقصدها الناس سعياً إلى التفهّم والعاطفة والسخاء. ولهذا السبب تحديداً عليها أن تكون حذرة، لأنّ هذا الميل إلى الشعبية قد يصيبها بالغرور، وسيفضي بها الأمر إلى الخسارة أكثر من الكسب. عليها أيضاً أن تصون لسانها، لأنها ميّالة إلى الكلام أكثر مما يقتضيه المنطق.

أما رقمها الأدنى، فهو ١١. أُحسّ أنها تتطلّع إلى مركز زعامة. لها اهتمام بالموضوعات الصوفية. ومن خلالها تحاول أن توجد الانسجام لَمن حولها.

لكن هذا يتضارب مباشرة مع الرقم تسعة، الذي يشكّل مجموع أرقام ميلادها من يوم وشهر وسنة، وهي أرقام مختزلة في

رقم وحيد: ستكون على الدوام عرضة للحسد والحزن والانطواء والقرارات المتهوّرة. عليها الحذر لئلا تدع نفسها تتأثّر بذبذبات سلبية: الطموح المفرط، التعصّب، إساءة استخدام السلطة، الإسراف.

بسبب هذا التضارب، أقترحُ أن تختار مهنة لا تنطوي على الاتصال العاطفي مع الناس، مثل هندسة الحاسوب أو الهندسة المدنية.

توفّيت؟ أنا آسفة. إذاً، ما الذي كانت تفعله؟

ما الذي كانت أثينا تفعله؟ فعلتِ القليل من كل شيء، لكن، إن كنت لأُلخّص حياتها، لقلتُ: كانت كاهنة، فهمتْ قوى الطبيعة. أو، بالأحرى، كانت امرأة، بالنظر إلى أنها لا تمتلك الكثير لتخاف خسارته وليس لديها إلا القليل لتحلم به جازفت أكثر من سواها، وآل بها المطاف إلى التحوّل إلى القوى التي ظنّت أنها كانت متمكّنة منها.

كانت أمينة صندوق في أحد المتاجر الكبرى، موظّفة مصرف، سمسارة عقارات، وفي كلٍّ من هذه المراكز، كانت تكشف دوماً عن الكاهنة في داخلها. عشتُ معها ثماني سنوات وأدين لها بـ: إحياء ذِكراها وهويتها.

أصعب ما في جمع هذه الإفادات كان إقناع الأشخاص بأن يُجيزوا لي استخدام أسمائهم الحقيقية. قال البعض إنهم لا يريدون التورّط في مثل هذا النوع من القصص. حاول البعض الآخر تورية آرائه ومشاعره. أوضحتُ أنّ نيّتي الحقيقية هي مساعدة جميع من يَعنى بفهمها على وجه أفضل، وأنّ ما من قارىء يصدّق إفادات لا تحمل اسماً.

وافقوا في النهاية، ظناً منهم أنهم عرفوا الوجه الفريد والقاطع لأي حدث، مهما يكن بلا دلالة. خلال التسجيلات، أدركت أن الأشياء لا تكون مطلقة أبداً، هي وقف على مدارك كل فرد. والطريقة الفضلى لمعرفة من نحن، تكون في الغالب باكتشاف نظرة الآخرين إلينا.

لا يعني هذا أن نفعل ما يتوقّع الغير منّا فعله، لكنه يساعدنا على فهم أنفسنا أفضل. أنا مَدين لأثينا في إحياء قصّتها، في كتابة خرافتها.

سميرة ر. خليل، ٥٧ سنة، ربّة منزل، والدة أثينا

أرجوك، لا تدعُها أثينا. اسمها الحقيقي شيرين، شيرين خليل، ابنتنا الغالية، التي أردناها يائسَين، التي تمنّيتُ ووالدها لو كنّا مَن رُزقا بها. لكن، كان للحياة مخطّطات أخرى. عندما تكون قِسمتنا شديدة السخاء، يكون هناك على الدوام بئر تهوي فيها كلّ أحلامنا.

عشنا في بيروت، يوم تَوافق الجميع على اعتبارها أجمل مدن الشرق الأوسط. كان زوجي صناعياً ناجحاً، وقد تزوّجنا عن حب. دَرَجنا على السفر إلى أوروبا كل سنة. كان لنا أصدقاء عدة، وكنا نُدعى إلى كل المناسبات الاجتماعية المرموقة. وذات مرة، زار منزلي رئيس الولايات المتحدة بلحمه ودمه، أتتصوّر! ثلاثة أيام لا تُنسى. قضى عملاء الاستخبارات الأميركية السرّية قرابة اليومين يمشّطون المنزل زاوية زاوية (كانوا قد أمّوا المنطقة منذ أكثر من شهرين، متّخذين مواقع استراتيجية، يستأجرون شققاً، يتنكّرون بزيّ متسوّلين أو عشّاق يافعين). واحتفلنا، ليوم، أو بالأحرى

لساعتين. لن أنسى يوماً نظرة الحسد التي اتّشحت بها عيون أصدقائنا، ولن أنسى الشعور بالحماسة والصورُ تُلتقط لنا إلى جانب الرجل الأكثر نفوذاً على وجه الأرض.

امتلكنا كل شيء، ما عدا أهم ما أردنا امتلاكه وهو الابن. وبالتالي، لم نمتلك شيئاً.

حاولنا كل شيء: قطعنا العهود والوعود، قصدنا أماكن كانت المعجزات فيها أكيدة. استشرنا أطباء، مشعوذين، تناولنا أدوية وشربنا أنواعاً من الإكسير والجرعات السحرية. خضعتُ للإخصاب الاصطناعي مرّتين، وفقدت الطفل في المرّتين. وفي المرة الثانية، فقدت المبيض الأيسر؛ على أثر ذلك، لم يكن أي طبيب على استعداد لمثل هذه المخاطرة مجدداً.

إذّاك، اقترح أحد أصدقائنا العديدين الذين كانوا على علم بحالنا العصيبة الحلّ المحتمل الوحيد: التبنّي. قال إنّ لديه معارف في رومانيا، وإنّ العملية لن تستغرق الكثير من الوقت.

بعد شهر، ركبنا طائرة. كان لصديقنا علاقات عمل مهمة مع الديكتاتور الذي حكم البلاد حينذاك، والذي نسيتُ اسمه [ملاحظة: نيكولاي تشاوتشيسكو]. وهكذا تفادينا الروتين الحكومي البيروقراطي، وتوجّهنا تواً إلى مركزٍ للتبني في سيبيو، في ترانسلفانيا. كنّا هناك، محطّ ترحيب، قدِّمت إلينا القهوة، الدخان، المياه المعدنية، وإذا بالأوراق تُوقّع وتُختم. كلّ ما كان علينا فعله هو اختيار ولد.

تمّ اصطحابنا إلى حضانة شديدة البرودة. ولم أستطع أن أتصوّر كيف أمكنهم ترك أولئك الأولاد المساكين في مكان مماثل. كان تبنّيهم جميعاً أول ما راودني غريزياً. أن أحملهم معي إلى

لبنان، حيث الشمس والحرية. لكن من الواضح أنها كانت فكرة مجنونة. جلنا مرّات عدة بين الأسِرّة، نصغي إلى بكاء الأولاد، وكنا مذعورين لعظمة القرار الذي كنّا على وشك اتّخاذه.

لأكثر من ساعة، لم أنطق بكلمة. وزوجي كذلك. خرجنا، تناولنا القهوة، دخّنا السجائر، ثم دخلنا مجدداً، حدث ذلك غير مرّة. لاحظتُ أن صبر المرأة المسؤولة عن التبنّي كاد ينفد. أرادت قراراً فورياً. في تلك اللحظة، استسلمتُ لحسّ فطري أجرؤ على تسميته أمومة، كما لو أنني وجدت ولداً كان يجب أن يكون ولدي في تجسّده، لكنه أتى إلى هذا العالم من رحم امرأة أخرى. وإذا بي أشير إلى طفلة محدّدة.

نصحتنا السيدة أن نفكّر مجدَّداً. هي التي كانت تنتظر بفارغ الصبر أن نتّخذ قراراً! لكنني كنت أكيدة.

مع ذلك، وفي محاولةٍ منها لتجنّب جرح مشاعري (كانت تعتقد أن لنا روابط مع الطبقات العليا في الحكومة الرومانية)، همستْ في أذني، بحيث لا يسمعها زوجي، قائلةً: «أعلمُ أن الأمر لن ينجح. فهذه الطفلة من نسل غجري».

أجبتها أن الثقافة لا تنتقل عبر الجينات. وأن ابنة الأشهر الثلاثة هذه سوف تكون ابنتنا، وسوف تتلقى تربيتنا، بالاستناد إلى عاداتنا. ترتاد كنيستنا، تزور شطآننا، تقرأ كتباً بالفرنسية، تدرس في المدرسة الأميركية في بيروت. كنت أجهل كل أمر عن ثقافة الغجر، ولا أزال. كلّ ما أعرفه أنهم يكثرون السفر، قليلاً ما يغتسلون، ليسوا أهلاً للثقة، يضعون أقراطاً. تقول الأسطورة أنهم يختطفون الأولاد ويصحبونهم في قوافلهم. لكن هنا كان ما يحصل هو العكس تماماً. فقد خلّفوا وراءهم طفلة لأعتني بها.

حاولت السيدة إقناعي بالعدول عن الأمر. لكنني كنت في صدد التوقيع على الأوراق، والطلب إلى زوجي القيام بالمِثل. في رحلة العودة إلى بيروت، بدا العالم مختلفاً: لقد وهبني الله سبباً للعيش والعمل والكفاح في مستنقع الدموع هذا. غدا عندنا طفل يبرّر كل جهودنا.

كبرت شيرين حكمة وجمالاً، صحيح أن الأهل كافة يفاخرون بأولادهم، لكنني أعتقد أنّ شيرين كانت طفلة استثنائية بالفعل. بعد ظهر أحد الأيام، وإذ كانت شيرين في الخامسة، قال أحد أشقّائي إنها، إذا أرادت أن تعمل في الخارج مستقبلاً، فإنّ اسمَها سيفضح أصلها على الدوام. واقترح أن يُستبدل به اسمٌ لا يوحي بشيء، مثل أثينا. الآن، بالطبع، أعلم أن «أثينا» يمثّل عاصمة اليونان، وهو أيضاً اسم إلهة الحكمة والذكاء والحرب عند الإغريق.

لعلّ أخي عرف ذلك، تماماً كإدراكه لما قد يسبّبه اسم عربي من مشكلات في المستقبل، ذلك أنه كان غارقاً في شؤون السياسة، كسائر أفراد العائلة، وأراد أن يحمي ابنة أخته من السُحُب السوداء التي استطاع هو وحده أن يراها في الأفق. وأكثر ما يثير العجب أنّ شيرين أحبّت وقع هذا الاسم. عصر ذاك اليوم أخذت تشير إلى نفسها على أنها أثينا، ولم يكن في مقدور أحدٍ أن يقنعها بغير ذلك. ولإرضائها، اعتمدنا أيضاً ذلك اللقب، معتقدين أنها ستكون نزوة عابرة.

أيُعقل أن يؤثّر اسمٌ في حياة إنسان؟ مرّ الوقت، وترسّخ الاسم. في الثانية عشرة من العمر، اكتشفنا أنّ ثمة دعوة دينية تجتذبها. كانت تقضي كلّ وقتها في الكنيسة. وقد حفظتْ الإنجيل عن ظهر قلب؛ كان ذلك بركة ولعنة في آن. خِفتُ على سلامة ابنتي

وسط عالم كان آخذاً في الانشقاقات الدينية. آنذاك بدأت شيرين تخبرنا، كما لو أن الأمر أكثر الأمور طبيعية في العالم، أن لها أصدقاء خفيين، وهم ملائكة وقديسون تعوّدت رؤية صورهم في الكنيسة التي كنّا نرتادها. جميع الأولاد، أينما كان، لهم رؤى. لكن سرعان ما تتساقط من ذاكرتهم بعد تجاوز سنّ معيّنة. كما أنهم يعاملون الأجسام الجامدة، كالدمى والنمور الاسفنجية، كما لو كانت من لحم ودم. غير أنني شعرت فعلاً أنها كانت تبالغ عندما اصطحبتها من المدرسة ذات يوم، وقالت لي إنها قد رأت «امرأة في حلّة بيضاء، تشبه مريم العذراء».

أنا أؤمن بالملائكة بطبيعة الحال. حتى أنني أؤمن بأنّ الملائكة يتحدّثون إلى الأطفال. لكن عندما يبدأ الطفل بتلقي رؤى يراها الراشدون، فهذه مسألة أخرى.

سبق لي أن قرأت عن رُعاة وقرويين شتّى زعموا رؤية امرأة في حلّة بيضاء، وكيف دُمِّرت حياتهم على الأثر. ذلك أن الناس أخذوا يقصدونهم متوقّعين منهم المعجزات؛ ثم تولّى الكهنة الأمر وباتت القرية محجًّا. وأنهى الأولاد المساكين حياتهم راهبات أو رهباناً. استحوذت القصة عليّ. كانت شيرين في عمر يقضي بأن تهتم أكثر بالتبرّج وطلاء الأظافر ومشاهدة المسلسلات التلفزيونية العاطفية وبرامج الأطفال. كان ثمة خطب في ابنتي، فاستشرت أخصائياً.

«استرخي»، قال لي.

أفادني طبيب الأطفال ذاك المختصّ في علم نفس الأطفال، فضلاً عن أطبّاء آخرين في هذا المجال، بأن الأصدقاء غير المرئيين هم إسقاط لأحلام الطفل، ووسيلة آمنة تساعده على اكتشاف رغباته والتعبير عن مشاعره.

«نعم، لكن ماذا عن رؤيا امرأة في حلّة بيضاء؟».

أجاب مرجّحاً أنّ شيرين لم تفهم كيف ننظر إلى العالم ولا تفسيرنا له. اقترح أنّ نخبرها تدريجاً وبعد التمهيد، أنها متبنّاة. والاحتمال الأسوأ، بحسب تعبير الطبيب، هو أنها قد تسعى إلى اكتشاف ذلك بنفسها. عندئذ، سوف تبدأ بالشك في الكل. وقد يصعب التكهُّن بسلوكها.

مُذاك، غيّرنا أسلوب تحدّثنا إليها. لا أدري مدى تذكُّر الأولاد لما يحصل لهم. لكننا حاولنا إظهار مدى حبّنا لها، وقلنا أن لا داعي لها في اللجوء إلى عالم خيالي. كان ينبغي أن تدرك أنّ كَوْنَها المرئي كان جميلاً بقدر ما يمكنه أن يكون جميلاً؛ أنّ والديها سيحميانها من أي خطر؛ أنّ بيروت مدينة جميلة وشطآنها تفيض شمساً وناساً. ومن دون ذكر «المرأة في حلّة بيضاء» ولو مرة، رُحتُ أقضي المزيد من الوقت مع ابنتي؛ دعوتُ زميلاتها في المدرسة إلى منزلنا؛ استغنمتُ كلّ فرصة لأغدق عليها العطف.

نجحتُ خطتي. كان زوجي كثير السفر، وكانت شيرين تشتاق إليه دوماً. وباسم الحب، قرّر أن يغيّر نمط حياته قليلاً؛ فحلّت التسلية المشتركة بين أب وأم وابنتهما محلّ أحاديثها الفردية.

كان كل شيء يسير على ما يرام. لكن، ذات ليلة، دخلت غرفتنا والدمع ينهمر على وجنتيها، قائلة إنها ترتعد خوفاً وإنّ الجحيم على مرمى حجر.

كنت وحدي في المنزل. كان زوجي مسافراً. ورجّحت أن يكون سفره السبب في بأسها. لكن أن تذكر الجحيم! ما الذي كانت تتلقّنه من تعاليم في المدرسة أو الكنيسة؟ قررت أن أذهب لمخاطبة معلّمتها في اليوم التالي.

في تلك الأثناء، لم تكفّ شيرين عن البكاء. توجّهتُ بها إلى النافذة، وأريتها البحر المتوسط في الخارج، يُضيئه سناء البدر. أخبرتها أنْ لا وجود للشياطين، لا وجود سوى للنجوم، وللناس الذين يتمشّون على الأرصفة خارج منزلنا. أخبرتها ألّا تقلق، أن لا داعي لخوفها. لكنها ظلّت تنتحب وترتجف. بعد نصف ساعة من محاولات تهدئتها، أخذ القلق يسري في عروقي. توسّلت إليها أن تكفّ عن ذلك، ففي النهاية، هي لم تعد طفلة. خلتُ أنها ربما بدأت تحيض للمرة الأولى، وسألتها بخجل إن كان ثمة دم.

«نعم، الكثير».

أحضرتُ بعض القطن، وطلبتُ إليها أن تستلقي لكي أعتني بـ «الجرح». لم يكن الأمر مهماً. كنت سأوضح لها ذلك في اليوم التالي. لكنّ دورتها الشهرية لم تكن قد بدأت. بكتْ أكثر، لا بُدّ أنها كانت تعبة لأنها غفت لاحقاً.

في اليوم التالي، أُريق الدم.

اغتيل أربعة رجال. كان ذلك في نظري معركة أخرى من المعارك القَبَلية المحتومة التي تعوّدها شعبي. أما شيرين، فلم يحمل لها ذلك أي معنى، حتى أنها لم تذكر الكابوس الذي راودها.

ومنذ ذلك التاريخ فصاعداً، دنا الجحيم أكثر فأكثر، ولم يعد يغادر. في ذلك اليوم بالذات، قُتل ٢٦ فلسطينياً في قافلة، ثأراً لعمليات القتل. بعد أربع وعشرين ساعة، كان من المستحيل النزول إلى الشارع بسبب الطلقات التي كانت تأتي من كل صوب. أُقفلتْ المدارس، هرع أحد أساتذة شيرين بها إلى المنزل. وتفاقم الوضع. قطع زوجي رحلة العمل وعاد إلى بيروت، حيث قضى أياماً بطولها يهاتف أصدقاء له في الحكومة. لكن لم يقل أيّ أمر منطقي. كانت

شيرين تسمع دوي الرصاص في الخارج وصراخ زوجي الغاضب في الداخل. لكن، لعجبي، لم تتفوّه بكلمة. حاولتُ إخبارها بأن الأمر لن يدوم، أننا سنتمكّن قريباً من نزول الشاطىء مجدداً. لكنها كانت تشيح بنظرها عنّي ببساطة، أو تطلب كتاباً تقرؤه أو تسجيلاً موسيقيّاً تسمعه. وفيما أخذ الجحيم يشتد، كانت شيرين تقرأ وتصغي إلى الموسيقا.

لكن اسمح لي، فليس بودّي إطالة الحديث في ذلك. لا أريد التفكير في التهديدات التي تلقّيناها، بمن كان على صواب، من كان على خطأ، ومن كان بريئاً. بعد أشهر قليلة، كان عليك لو أردت أن تعبر الشارع، أن تركب قارباً إلى جزيرة قبرص المقابلة، ثم تمتطي قارباً آخر وتهبط في الجهة المقابلة من الشارع.

بقينا سنةً تقريباً محتجزين في بيوتنا. نأمل دوماً أن يتحسّن الوضع، نفكّر دائماً أن ما يجري أمر مؤقّت، وأن الحكومة ستمسك بزمام الأمور. ذات صباح، فيما كانت شيرين تصغي إلى تسجيل موسيقي على جهاز الأسطوانات المحمول الخاص بها، راحت ترقص وتقول أشياء من مثل: «سوف يدوم ذلك لوقت طويل طويل».

حاولتُ منعها من ذلك، غير أنّ زوجي أمسك بذراعي. أدركتُ أنه كان يصغي إلى أقوالها ويأخذها على محمل الجدّ. لم أفهم لماذا، ولم نأتِ على هذا الموضوع مُذاك. غدا نوعاً من المحرّمات بيننا.

في اليوم التالي، شرع يتّخذ خطوات لم تكن في الحسبان. وإذا بنا، بعد أسبوعين على متن قارب وجهته لندن. لاحقاً، علمنا أن حوالي ٤٤٠٠٠ شخص وقعوا ضحايا الحرب الأهلية في تينك السنتين، وجرح ١٨٠٠٠٠، وتشرّد الآلاف؛ مع أن هذه الإحصاءات لا يُعوّل عليها كثيراً. استمر القتال لأسباب أخرى، احتلّت جيوش أجنبية البلاد، ولا تزال أبواب الجحيم مفتوحة حتى اليوم.

«سيدوم ذلك لوقت طويل»، قالت شيرين. للأسف، كانت على حق.

لوكاس دجِسّن - بيترسن، ٣٢ سنة، مهندس، زوج سابق

عندما التقيتُ أثينا بداية، كانت على علم بأنها متبنّاة. كانت في التاسعة عشرة من عمرها فقط، وعلى وشك أن تبدأ مشاجرة مع زميلة لها في مقهى الجامعة، ظنّت الزميلة أن أثينا إنجليزية الأصل (بشرة بيضاء، شعر منسدل، عينان تتماوجان بين الأخضر والرمادي)، فتفوّهت بعبارات مُشينة عن الشرق الأوسط.

كان الفصل الدراسي الأول لهؤلاء الطلبة، وكان كلّ طالب يجهل الآخر. غير أنّ أثينا انتصبت، جذبت الفتاة الأخرى بياقة قميصها وأخذت تصرخ:

«عنصرية!».

رأيتُ نظرة الرعب في عيني الفتاة ونظرة الحماسة في عيون الطلبة الآخرين، يتوقون إلى معرفة ما التالي. كنت متقدّماً عليهم بسنة دراسية، وكنت أعرف تماماً عواقب ذلك: سَوْقَهما إلى نائب رئيس الجامعة التقدّم بشكوى رسمية، يتبعهما على الأرجح طرد من الجامعة، واحتمال إجراء تحقيق جنائي في العنصرية المزعومة، وسوى ذلك. وسيخرج الجميع خاسرين.

صرختُ: «إصمتي!»، من دون أن أدري تماماً ما كنت أقول.

لم أكن على معرفة بأيٍ من الفتاتين. لستُ مخلّص العالم، وبصراحة تامة، يجد الشبّان التشاجر العَرَضي مشوّقاً. لكنني عجزتُ عن ردع نفسي.

«توقّفي!»، هكذا صرختُ مجدَّداً بالفتاة الشابة الجميلة التي كانت حينها قد أحكمت الخناق على عنق الفتاة التي توازيها شباباً وجمالاً. رمقتني بنظرة غضب. ثمّ، فجأة، تغيّر شيء ما. ابتسم ثغرها، مع أنها كانت لا تزال تُحكم قبضتها على عنق زميلتها.

قالت: «نسيت أن تقول «من فضلكِ»».

ضحك الجميع.

قلت لها مجدَّداً: «توقّفي، «من فضلك»».

أفلتت عنق الفتاة الأخرى، وتوجّهت إليّ. التفتَ الكلّ ليشاهد ما سيحدث.

«آداب السلوك عندك ممتازة. أتحمل سيجارة؟».

قدّمتُ إليها علبتي، وخرجنا لندخّن. انتقلتُ من حالة الغضب إلى اللامبالاة. وبعد دقائق كانت تضحك، تناقش أحوال الطقس، وتسأل أي فرقة موسيقا بوب تروق لي. سمعتُ الجرس يرنّ معلناً بدء الصف. وإذا بي أتجاهل جدياً القاعدة التي ترعرعت على التزامها طوال حياتي والتي تقول لي: قمْ بواجبك. بقيتُ هناك أحادثها، كما لو أنه ما من دروس جامعية، ما من مشاجرات، ما من مقهى، ما من ريح أو برد أو شمس. كان هناك المرأة الشابة فقط بعينيها الرماديتين، تقول أكثر الأشياء المملّة والعديمة المعنى. لكنّها مع ذلك كانت قادرة أن تستحوذ على اهتمامي بها لباقي حياتي.

بعد ساعتين، كنا نتناول الغداء سوياً. بعد سبع ساعات، كنا في حانة نتناول العشاء، ونشرب بقدر ما تتيح ميزانيتنا. أخذت أحاديثنا تزداد عمقاً. وفي وقت قصير، عرفتُ عملياً كل شيء عن

حياتها، رَوَت أثينا تفاصيل طفولتها ومراهقتها من دون تحفيزٍ مني. لاحقاً، أدركتُ أنها كانت هكذا مع الكلّ. لكنني ذلك اليوم، شعرتُ أنني الرجل الأهم على وجه الأرض.

كان عليها المجيء إلى لندن هرباً من الحرب الأهلية التي كانت قد اندلعت في لبنان. والدها، مسيحي ماروني [ملاحظة: الكنيسة المارونية تعود إلى الكنيسة الكاثوليكية، وهي على الرغم من خضوعها لسلطة الفاتيكان، لا تستوجب أن يكون كهنتها عازبين. كما أنها تتّبع الشعائر الشرق أوسطية والأرثوذكسية أيضاً]، كان قد تلقّى تهديدات بالقتل، لأنه كان يعمل لحساب الحكومة اللبنانية. لكن مع ذلك، لم يتمكّن من حَمْلِ نفسه على الرحيل. قرّرت أثينا، على إثر سماعها مصادفةً لمكالمة هاتفية، أن الوقت حان لتفعل شيئاً ما، وأن عليها أن تأخذ على عاتقها مسؤوليات البرّ بالوالدين وحماية من تحبّ.

أدّت رقصة وادّعت أنها في حالة انخطاف (كانت قد علمت بذلك كلّه من المدرسة عندما درست سيرة القديسين)، وأخذت تنطق بأقوال متعدّدة. لا أدري كيف يمكن لمجرّد طفلة أن تُقنع راشدَيْن باتّخاذ قرارات مرتكزة على أقوالها، لكن هذا، كما قالت أثينا، كان بالضبط ما حدث. كان والدها شديد التطيّر، وكانت على اقتناع بأنها خلّصت حياة عائلتها.

وصلوا إلى هنا كلاجئين، لا كمتسوّلين. فالجالية اللبنانية مشتّتة في أصقاع العالم كلّه، وسرعان ما وجد والدها وسيلة للإقلاع من جديد بعمله. واستمرت الحياة. تمكّنت أثينا من التحصيل العلمي في مدارس جيدة، اتخذت دروساً في الرقص، لشغفها به. وعندما أنهت دراستها الثانوية. اختارت أن تحوزَ شهادة في الهندسة.

ذات مرة كانوا مقيمين في لندن، دعاها والداها لتناول العشاء في أحد أفخم المطاعم في المدينة. وأوضحا لها، بحذر شديد، أنها متبنّاة. ادّعت أثينا أنها متفاجئة، ضمّتهما معاً إليها. وقالت إنّ شيئاً لن يغيّر من علاقتها بهما.

الحقيقة أنّ صديقاً للعائلة، في لحظة خُبثٍ، نعتها بـــ «اليتيمة الجحودة». وعزا افتقارها إلى آداب السلوك إلى واقع أنها ليست «الابنة الحقيقية لوالديها». وإذا بها تقذف منفضة في وجهه وتجرحه، وتبكي على مدى يومين كاملين. تعوّدت سريعاً فكرة أنها متبنّاة. وتكتَّم صديق العائلة على حقيقة جرحه، مؤثِراً القول إنّ لصوصاً تهجّموا عليه في الشارع.

سألتُها إن كانت تودّ الخروج برفقتي في اليوم التالي. أخبرتني أنها كانت فتاة عذراء، ترتاد الكنيسة أيام الآحاد، ولا تبالي بالروايات الرومانسية. كانت أكثر اهتماماً بمطالعة كل ما أمكنها قراءته حول الشرق الأوسط.

كانت، باختصار، مشغولة. مشغولة جداً.

قالت: «يعتقد الناس أنّ حلم المرأة الأوحد هو الزواج وإنجاب الأولاد. وبالاستناد إلى ما أخبرتكَ به، قد ترجِّح أنني عانيت الأمرّين في حياتي. ذلك ليس صحيحاً. لقد خَبِرْتُ هذا الوضع من قبل. عرفتُ رجالاً أرادوا «حمايتي» من كل تلك المآسي. لكن ما يغيب عن بالهم أنّه، منذ أيام الإغريق فصاعداً، كان الخارجون من المعركة إما يعودون محمَّلين على دروعهم، وإما يعودون أقوى، على الرغم من ندوبهم أو بسببها. هكذا أفضل: عِشْتُ في ساحة معركة مُذ ولدت. لكنني لا أزال حيّة، ولا أحتاج إلى من يحميني».

سكتتْ قليلاً.

«أترى كم أنني مثقّفة؟».

«جداً، لكنكِ عندما تتهجّمين على شخص أضعف منك، تجعلين الأمر يبدو وكأنك في حاجة فعلاً إلى الحماية. كدت تهدمين مسيرتك الجامعية في لحظة».

«أنت على حق. حسنٌ، أقبل الدعوة».

صرنا نرى بعضنا بانتظام. وكلما تقرّبتُ منها، زاد اكتشافي لنوري، لأنها طالما شجّعتني أن أقدّم أفضل ما عندي. لم تقرأ يوماً كتباً عن السحر أو القوى الخفية. قالت إنها من أعمال الشيطان، وأنّ الخلاص الوحيد المحتمل يكون عن طريق يسوع، دون سواه. لكن، أحياناً، كانت تقول أشياء لم تبدُ أنها تتوافق بكلّيتها مع تعاليم الكنيسة.

«أحاط المسيح نفسه بالمتسوّلين والعاهرات وجباة الضرائب والصيادين. أعتقد أنه أراد بذلك إظهار أن الشرارة الإلهية قابعة في كل نفس ولا تنطفىء أبداً. عندما أجلس مع نفسي، أو عندما أكون في حيوية مفرطة، أشعر وكأنني أنطلق مع ذبذبات الكون كلّه. عندها أعلم أموراً أجهلها، كما لو أن الله يسدّد خطواتي. ثمة لحظات أشعر فيها أنّ كل شيء ينكشف لي».

ثم تصوّب نفسها بنفسها:

«لكن هذا خطأ».

لطالما عاشت أثينا بين عالمين: ما شعرتْ أنه صحيح، وما تلقّنته عبر دينها.

ذات يوم، بعد نصف سنة دراسية تقريباً من المعادلات والحسابات ودراسات البناء، أعلنت أنها كانت ستترك الجامعة.

فقلت لها: «لكنك لم تخبريني قط بالأمر!».

«كنتُ خائفة حتى من مكالمة نفسي بشأن ذلك. لكنني ذهبت صباح اليوم لرؤية مصفّفة شعري. جهدتْ في العمل لكي تتمكّن ابنتها من نيل إجازة في علم الاجتماع. تخرّجت الفتاة أخيراً، وبعد أن طرقت عدة أبواب، وجدتْ عملاً كسكرتيرة في موقع ورشة إسمنت. لكن، حتى اليوم، قالت لي مصفّفة الشعر بفخر كبير: «حازت ابنتي شهادة». معظم أصدقاء والديّ وأولاد أصدقاء والديّ يحملون شهادات أيضاً. لا يعني ذلك أنهم عملوا في المجال الذي يريدونه. على الإطلاق، هم ارتادوا الجامعة لأنّ أحدهم، في زمن كانت تبدو الجامعات فيه مهمة، قال: لكي ينهض العالم، عليك حيازة شهادة. وبذلك حُرم العالم من حدائقيين ممتازين، خبّازين، تجّار تحف، نحاتين، كتّاب».

طلبتُ إليها أن تُجيل التفكير في الأمر قبل اتّخاذ مثل هذه الخطوة المصيرية، لكنها اقتبست هذه السطور عن روبرت فروست:

طريقان مفترقان في غابة، وأنا، أنا اخترت الطريق التي عبرتها قلّة.

وهذا ما شكّل كل الفارق.

في اليوم التالي، لم تأتِ إلى الصف. في لقائنا التالي، سألتها ماذا كانت تنوي أن تفعل.

«سوف أتزوّج وأنجب طفلاً».

لم يكن ذلك التماساً نهائياً في نظري. كنتُ في العشرين وهي

في التاسعة عشرة. فكّرت أن من المبكر الإقدام على مثل هذا الالتزام.

لكن أثينا كانت جادّة فعلاً. وكان عليّ الاختيار بين الشيء الوحيد الذي مَلأ أفكاري عن حق، وهو حبّي لتلك المرأة، وخسارة حرّيتي وكلّ الخيارات التي وعدني بها المستقبل.

صراحةً، كان القرار سهلاً.

الأب جيانكارلو فونتانا، ٧٢ سنة

بالطبع فاجأني حضور هذا الثنائي اليافع جداً إلى الكنيسة لترتيب مراسم الزفاف. كانت معرفتي بـ «لوكاس دجِسّن ــ بيترسن معرفة سطحية. لكن في ذلك اليوم، علمت أن أفراد عائلته أرستقراطيون صعاب من الدانمارك، عارضوا ذاك الارتباط تماماً. لم تكن العائلة معارضة للزواج فحسب، بل للكنيسة أيضاً.

يقول والده، الذي ارتكز على حجج علمية قاطعة جَهْراً، إن الكتاب المقدّس الذي يقوم الدين كلّه عليه، ليس كتاباً بالفعل، بل إنه مُلصق من ٦٦ مخطوطة مختلفة، أسماء مؤلّفيها أو هوياتهم مجهولة؛ وقال إن حوالى ألف سنة تفصل بين وضع الكتاب الأول والأخير، وهي مدة زمنية أطول من الزمن الذي مرّ على اكتشاف كولومبوس لأمريكا. وإن أياً من الكائنات الحية على وجه هذا الكوكب، من القردة إلى الببغاوات، لا يحتاج إلى وصايا عشر ليعرف كيفية التصرّف. وكلّ ما يلزم العالم ليظل في تناغم هو اتّباع قوانين الطبيعة.

بطبيعة الحال، قرأتُ الكتاب المقدّس، وأعرف القليل عن تاريخه، لكنّ البشر الذين كتبوه كانوا أدوات القدرة الإلهية، ويسوع أقام

ميثاقاً أقوى بكثير من الوصايا العشر، أقام الحب. إن الطيور أو القردة أو أيّ من مخلوقات الله، تُطيع غرائزها وتقوم بمجرد ما هي مبرمجة على القيام به. في حالة البشر، الأمور أكثر تعقيداً، لأننا نعرف الحب وشِراكه.

إلهي، ها أنذا أقول وعظاً، في حين أن عليّ أن أخبرك عن لقائي بأثينا ولوكاس. فيما كنت أتكلّم إلى الشاب ــ أقول «أتكلّم» لأننا لا نتشاطر الدين نفسه، وأنا، بالتالي، غير مُلزم بسرّ الاعتراف ــ علمت أنه، إلى جانب مقاومة الأُسرة للإكليروس، كانت تبدي مقاومة ضارية ضد أثينا لأنها أجنبية. انتابتني رغبة في الاقتباس من الكتاب المقدّس، من جزء لا يُجاهر بالدين، بل يدعو إلى الاحتكام بالمنطق.

«لا تَمْقتُوا الآدَومِيينَ لأنهمْ إخْوَتُكم، وَلا تَكْرَهوا المِصْرِيينَ لأنَكم كُنْتُم ضُيوفاً في دِيَارِهم».

المعذرة، ها أنذا أقتبس من الكتاب المقدّس مجدداً، وأعدكَ أنني سأحاول ضبط نفسي. بعد التكلّم إلى الشاب، قضيتُ حوالى ساعتين مع شيرين، أو أثينا، كما فضّلتْ أن يُطلق عليها.

لطالما أثارت أثينا فضولي. مُذ بدأتْ ترتاد الكنيسة، بدا لي أن لها طموحاً أوحد هو: أن تصبح قدّيسة.

قالت لي، على الرغم من جهل خطيبها لذلك، إنها قُبيل اندلاع الحرب الأهلية في بيروت، خَبِرَتْ تجربة مشابهة إلى حد بعيد لتجربة القديسة «تريزا الطفل يسوع»: رأت الدماء تسري في الشوارع. يمكن للمرء أن يعزو ذلك إلى صدمة عاطفية في الطفولة أو المراهقة، لكن في الواقع، يحيا كلّ المبدعين، بدرجات متفاوتة، تجارب مماثلة تنطوي على «الامتلاء نعمةً». فجأة، في أقل من ثانية،

نشعر أن حياتنا كلّها مبرّرة، أن خطايانا مغتفرة، أنّ الحب لا يزال القوة الأقوى، القوة التي يمكنها أن تحوّلنا إلى الأبد.

لكن، في الوقت نفسه، نشعر بالخوف. فالاستسلام كلياً للحب، أكان بشرياً أم إلهياً، يعني التخلّي عن كل شيء، بما فيه رفاهنا أو قدرتنا على صنع القرارات. هو يعني الحب بأعمق ما للكلمة من معنى. الحقيقة أننا لا نريد الخلاص بالطريقة التي اختارها الله نريد أن نُبقي تحكُّمنا مطلقاً في كل خطوة نخطوها، أن نكون مدركين تماماً قراراتنا، أن نكون قادرين على اختيار موضوع تفانينا.

لكن ليس ذلك شأن الحب. فهو يصل، فيدخل ثم يَشْرَع في توجيه كل شيء. وحدها النفوس الشديدة القوّة من تسمح لذواتها أن تنجرّ، وأثينا كانت نفساً قوية. كانت قوية إلى درجة أنها كانت تقضي ساعات في التأمل العميق. كانت تتمتع بموهبة موسيقية مميّزة، يُقال إنها كانت راقصة بارعة أيضاً. لكن، بما أنّ الكنيسة ليست المكان المناسب فعلاً لذلك، كانت تُحضر غيتارها كل صباح، وتقضي بعض الوقت ترتّل تسبيحة العذراء مريم قبل ارتيادها الجامعة لتحضر الصف.

لا أزال أذكر المرة الأولى التي سمعتها فيها. كنت قد انتهيت لتوي من القدّاس الصباحي مع رعايا الأبرشية القلائل الذين كانوا على استعداد للنهوض في مثل تلك الساعة المبكرة من صباح قارس، وسرعان ما تنبهت إلى أنني نسيتُ جمع المال الذي تُرك في صينية الكنيسة. عندما دخلتُ، سمعت موسيقا جعلتني أرى كل شيء بشكل مختلف، كما لو أنّ يد ملاك لامست الجو. في زاوية من الزوايا، جلستْ في حالة من الانتشاء، شابة في العشرين من

العمر تقريباً، تعزف، تراتيل التسبيح على الغيتار، عيناها محدقتان بتمثال العذراء.

توجهتُ إلى الصينية. لاحظتْ وجودي فتوقّفتْ عن العزف. لكنني أومأتُ لها برأسي أحثّها على المتابعة، ثم جلستُ على أحد المقاعد، أغمضتُ جفنيّ وأصغيتُ.

في تلك اللحظة، بدا وكأن حسّاً من الجنة، من «الامتلاء بالنعمة» هابط من السماء. وكما لو أنها فهمت ما كان يختلج فيّ، أخذت الشابة توشّح موسيقاها بالصمت. كلما توقّفتْ، تلوتُ صلاة، لتعلو الموسيقا من جديد.

كنت مدركاً أنني أعيش شيئاً لا يُنسى، إحدى تلك اللحظات الساحرة التي نفهمها بعد انقضائها فحسب. كنت أحيا الحاضر بكلّيتي، من دونِ ماضٍ ولا مستقبل. كنت مُغرِقاً في عيش الصباح والموسيقا والجمال والصلاة المرتجلة. دخلتُ حالة من العبادة والانتشاء الروحاني والامتنان لوجودي في العالم، سررتُ لأنني استجبتُ لدعوتي، على الرغم من معارضة عائلتي. في بساطة تلك الكنيسة الصغيرة، في صوت تلك الشابة، في نور الصباح وهو يفيض على كل شيء، فهمتُ مرة أخرى أن كِبَر الخالق يتجلّى عبر الأمور البسيطة.

بعد انهمار دموعي، وانقضاء ما بدا لي أنه أبدية، توقّفتْ الشابة عن العزف. استدرتُ وأدركتُ أنها كانت من رعايا أبرشيتي. بعد ذاك، أصبحنا صديقين، وكلما استطعنا، تشاركنا في تلك العبادة عبر الموسيقا.

غير أن فكرة الزواج فاجأتني تماماً. بما أن معرفة أحدنا للآخر

كانت جيدة إلى حد ما، سألتها كيف ستكون في رأيها ردة فعل عائلة زوجها.

«سيئة، سيئة جداً».

سألتها، بأقصى حدود اللباقة، إن كانت مُكرهة على الزواج لسبب ما.

«لا. لا أزال عذراء. لستُ حاملاً».

سألتها إن كانت قد أخبرت عائلتها. قالت إنها فعلت، وإن ردّ فعل والديها كان مرعباً، صحبته دموع والدتها وتهديد والدها ووعيده.

«عندما آتي إلى هنا لتسبيح العذراء بموسيقاي، لا أبالي بما قد يظنّ الناس بي، أنا ببساطة أشاركها في مشاعري. وهذا ما كانت عليه الحال دوماً مُذ أصبحت كبيرة بما يكفي وأتّخذ قراراتي بنفسي. أنا شريانٌ للطاقة الإلهية أن تسري فيه تجلياً. وهذه الطاقة تطلب إليّ الآن أن أُرزق بولد، لكي أمنحه ما لم تمنحني والدتي الحقيقية إياه، وهو الحماية والأمان».

أجبتها: «لا أحد في أمان على هذه الأرض».

كان مستقبل طويل لا يزال مطروحاً أمامها، كان ثمة متسع من الوقت لكي تَحدُثَ أعجوبة الخَلْق فيها. لكن، كانت أثينا عازمة على قرارها:

«لم تنتفض القديسة تريزا على المرض الذي أصابها. بل، على العكس، رأت فيه إشارة إلى مجد الله. كانت القديسة تريزا في الخامسة عشرة من عمرها فقط، أي كانت تصغرني بكثير، عندما قرّرتْ دخول الدير. مُنِعَتْ من ذلك، لكنها أصرّت. قرّرتْ أن تذهب للتحدّث إلى البابا بنفسها، أتتصوّر! التحدّث إلى البابا؟! وتمّ لها ما أرادتْ. هذا المجد ذاته يطلب إليّ أموراً أبسط وأكثر سخاءً، أن

أصبح أماً. إن انتظرتُ أكثر، فلن أتمكّن من أن أكون رفيقة لدي، سيكون فارق العمر هائلاً بيننا، ولن نتقاسم الاهتمامات نفسها».

قلتُ لها إنها لن تكون الوحيدة في ذلك.

لكنْ أثينا واصلت كما لو أنها لا تصغي: «أكون سعيدة فقط عندما أفكّر أن الله موجود ويصغي إليّ؛ لكن ذلك لا يكفي للاستمرار في الحياة، عندما يبدو كل شيء بلا معنى. أنا أدّعي سعادة لا أشعرها. أستر حزني لئلا أُقلق من يحبونني ويهتمون بأمري. مؤخراً، فكرتُ حتى في الانتحار. في الليل، قبل أن أخلد إلى النوم، أُطيل الحديث مع نفسي، أصلّي عسى أن تجلو هذه الفكرة عني؛ إذ ستكون نكراناً، هروباً، طريقة لنشر المأساة والبؤس على وجه الأرض. في الصباحات، أجيء إلى هنا، لأتحدّث إلى القديسة تريزا، وأطلب إليها أن تُعتقني من الأبالسة التي أُحادثها ليلاً. نجح الأمر حتى الآن، لكنني أَضْعُفُ من جديد. أعرف أنني موكلة بمَهمة رفضتها لزمن طويل، وعليّ قبولها الآن. وهذه المهمة هي أن أكون أماً. عليّ إنجاز هذه المهمة وإلّا سوف أُجنّ. إذا لم أشعر بحياة تنمو داخلي، فلن أتمكّن من تقبُّل الحياة خارجي».

لوكاس دجِسِّن ــ بيترسِن، زوج سابق

مع ولادة فايورِل، كنت قد أتممتُ سنتي الثانية والعشرين. لم أعد حينها الطالب الذي تزوّج زميلته الطالبة، بل أضحيتُ رجلاً مسؤولاً عن إعالة أسرته، يرفع حملاً ثقيلاً على منكبيه. عَرَضَ عليّ والدايّ، اللذان لم يحضرا الزفاف، معونة مادية شرط أن أهجر أثينا وأكسب الوصاية على الولد (أو، بالأحرى، هذا ما قاله والدي،

ذلك أنّ والدتي كانت تتصل بي هاتفياً، تجهش بالبكاء، تقول إني لا بُدّ أن أكون مجنوناً، وتقول أيضاً كم أنها تودّ أن تضمّ حفيدها بين ذراعيها). كنتُ آمل أن تتبدّد مقاومتهما تدريجاً مع فهمهما كم أحب أثينا وكم أنا عازم على البقاء معها.

لم تتبدّد. إذّاك كان عليّ تأمين لقمة العيش لزوجتي ولولدي. تركتُ الدراسة في كلية الهندسة. تلقّيت اتصالاً هاتفياً من والدي. مزيج من التهديد والوعيد: قال إن مضيتُ في غيّي، فسوف يؤول بي الأمر إلى حرماني من الميراث. لكن إن عدتُ إلى الجامعة، فسوف يفكر في مساعدتي، «مؤقتاً»، كما جاء على لسانه. رفضتُ. تقتضي رومانسية الشباب أن نتّخذ على الدوام مواقف حاسمة جداً. قلت له باستطاعتي أن أحلّ مشكلاتي بنفسي.

في الوقت الذي سبق ولادة فايورل، أخذت أثينا تساعدني على فهم نفسي أكثر. كان يحصل ذلك من خلال الموسيقا، لا من خلال الجنس، إذ عليّ الاعتراف بأن علاقتنا الجنسية لم تكن مكتملة.

علمتُ فيما بعد أن عمر الموسيقا بعمر الجنس البشري. لم يكن أجدادنا، المتنقلون من كهف إلى كهف، قادرين على حمل الكثير من المتاع، لكن يُظهر عِلم الآثار الحديث أنهم كانوا يحملون، إلى جانب القوت القليل الذي يلزمهم، آلة موسيقية في أمتعتهم، تكون طبلاً في العادة. ليست الموسيقا مجرد شيء يُريحنا أو يُلهينا، هي أبعد من ذلك، إنها إيديولوجيا.

كما يمكنك الحكم على الناس من خلال نوع الموسيقا التي يصغون إليها.

فيما رُحتُ أراقب أثينا وهي ترقص أثناء حملها، وأستمع إليها

تعزف على الغيتار لتهدئة الطفل وجعله يشعر بأنه محبوب، كنتُ أدع رؤيتها للعالم تؤثّر في حياتي أيضاً. مع ولادة فايورل، كان أوّل ما قمنا به عند إحضاره إلى المنزل، إسماعه موسيقا ألبيوني البطيئة. وكنا متى تخاصمنا، تساعدنا قوة الموسيقا على تخطّي المحِن، مع أنني أعجز عن إقامة أي رابط منطقي بين الأمرين، إلّا إذا فسّر على الطريقة الهيبية.

لكن هذه الرومانسية كلّها لم تُدرّ علينا المال. بما أنني لم أكن أعرف العزف على أي آلة موسيقية، ولم يكن بوسعي تقديم معزوفات موسيقية في حانة، حصلتُ أخيراً على وظيفة كمتدرّج في شركة هندسة معمارية، وكنت أقوم بالحسابات البنيوية. كانوا يدفعون لي أجراً متدنياً على أساس الساعة. وهكذا، كنت أغادر المنزل كل صباح في وقت مُبكر جداً وأرجع متأخّراً. لم أكن في الغالب لأرى ابني، الذي يكون نائماً عند عودتي. وكنت أشعر بالإرهاق الشديد الذي يحول دون التحدّث إلى زوجتي أو ممارسة الحب معها. كنت أتساءل كل ليلة: متى سنتمكّن من تحسين أوضاعنا المادية ونعيش بالأسلوب الذي نستحقّه؟ مع أنني وافقت أثينا الرأي إلى حدّ بعيد في أنه لا جدوى من حيازة شهادة في الهندسة (أو الحقوق أو الطب مثلاً)، فإن ثمة وقائع تقنية أساسية تظل جوهرية إذا كنا لا ننوي أن نعرّض حياة الناس للخطر. انقطعتُ مجبراً عن التدرّب في مهنتي المختارة، ما معناه التخلّي عن حلم كان شديد الأهمية لي.

وإذا بالشجارات تبدأ. تذمّرتْ أثينا أنني لم أكن أمنح الطفل الاهتمام الكافي، أنه يحتاج إلى والد، أنها لو أرادت ولداً ببساطة، لكانت فعلت ذلك وحدها، من دون أن تسبّب لي كل تلك المتاعب. خرجتُ من المنزل مستاءً أكثر من مرة، قائلاً إنها لا

تفهمني، وإنني لم أفهم كيف وافقتُ على «جنون» أن نرزق بطفل ونحن في العشرين من العمر، قبل أن يكون لنا حتى الحدّ الأدنى من الضمانة المادية. تدريجاً، وبسبب الإرهاق والانزعاج، توقّفنا عن ممارسة الحب.

بدأتُ أغرق في الاكتئاب شاعراً أنني تعرّضت للتلاعب والاستغلال من المرأة التي أحببت. لاحظتْ أثينا حالتي النفسية المتفاقمة غرابة. لكنها، بدل أن تساعدني، ركّزت طاقاتها على فايورل وعلى الموسيقا. غدا العمل منفذي. كنت أتكلّم إلى والديّ بين الحين والحين، وكانا يقولان على الدوام، كما قالا مراراً من قبل، إنها حملتْ بالطفل لتجبرني على الزواج منها.

ازدادت أثينا تمسكاً بالدين. أصرّت على أن تتمّ عمادة ابننا باسم معمودية قرّرته بنفسها هو فايورل، وهو اسم روماني.

وباستثناء مهاجرين قلائل، أشكّ أن أحداً في إنجلترا يحمل اسم فايورل. لكني فكّرتُ في أن ذلك يجسّد خيالها. وأدركتُ أيضاً أنها كانت تُقيم روابط غريبة مع ماضٍ لم تعرفه قط، هو أيامها في دار الأيتام في سيبيو.

حاولتُ التأقلم، لكنني شعرت بأنني أفقد أثينا بسبب الطفل. أخذت جدالاتنا تتكرّر، وهدّدتني بالرحيل خوفاً من أن يلتقط فايورل «الطاقة السلبية» من شجاراتنا. ذات ليلة، عندما لفظتْ هذا التهديد مرة جديدة، كنت أنا من رَحل، وفي نيّتي الرجوع بعد أن أكون قد هدأت قليلاً.

رحتُ أهيم بلا وجهة في لندن، ألعن الحياة التي اخترتها، الولد الذي وافقتُ على أن أرزق به، الزوجة التي بدتْ أنها فقدت الاهتمام بي. دخلتُ أول حانة استوقفتني، بالقرب من محطة قطار أنفاق

سريع، وتجرّعتُ أربع كؤوس من الويسكي. مع إقفال الحانة عند الحادية عشرة، فتّشت عن أحد تلك المتاجر التي تظل مفتوحة الليل بطوله، ابتعتُ المزيد من الويسكي. جلستُ على مقعد في ساحة وواصلت الشراب. دنا مني رهط من الشبان، وطلبوا إليّ تقاسم زجاجة المشروب. عندما رفضت، هاجموني. وصلت الشرطة، وتمّ سوقنا جميعاً إلى مركز الشرطة.

أُطلق سراحي بعد أن أدليت بإفادتي. لم أتقدّم بأي شكوى، قائلاً إنه لم يكن سوى سوء تفاهم سخيف؛ في النهاية، لم أشأ أن أقضي شهوراً أَمْثُلُ في محاكم مختلفة، بصفتي ضحية اعتداء. كنت لا أزال في غاية الثمالة عندما كنتُ أهمّ بالرحيل، فتعثّرت ووقعت منبطحاً على طاولة مكتب محقّق. غضب المحقّق، لكن بدل أن يوقفني فوراً لإهانة شرطي، رمى بي إلى الشارع.

هناك، وقف واحد من المعتدين عليّ، وشكرني على وضع حدّ للقضية. أشار إلى أنني كنت ملطّخاً بالوحل والدم، واقترح عليّ تبديل ملابسي قبل العودة إلى المنزل. بدل أن أتابع طريقي، طلبتُ أن يسدي إليَّ خدمة بإصغائه إليّ، لأنني يائس وفي حاجة إلى من أتحدّث معه.

على مدى ساعة، أصغى بصمتٍ إلى ويلاتي. لم أكُن أتحدث إليه بالمعنى الفعلي، بل أُحدّث نفسي: شابٌ، الحياة كلها أمامه، سيرة مهنية لامعة مُمكنة، وعائلة تتمتّع بالمعارف اللازمة لتفتح أمامه كل الأبواب. لكنه يبدو الآن كمتسوّل، ثَمِل، تَعِب، مُكتئب مفلس. وكلّ ذلك بسبب امرأة لم تولني أي انتباه.

مع وصول قصّتي إلى ختامها، غدت نظرتي إلى وضعي أوضح: حياةٌ اخترتها إيماناً مني بأن الحب ينتصر على كل شيء. ليس ذلك صحيحاً. أحياناً يرمي بنا الحب إلى الهاوية، ولزيادة الطين بلّة،

يرمي معنا مَن نحبّهم. في حالتي، كنت ماضياً في تدمير حياتي وحياة أثينا وفايورل معي.

في تلك اللحظة، قلتُ لنفسي مرة ثانية أنني رجل، ولست الصبي الذي وُلد وفي فمه ملعقة من فضة، وأنني سأواجه بوقار كل التحدّيات التي مَثَلَتْ أمامي. كانت أثينا نائمة، والطفل بين ذراعيها. استحممتُ، خرجتُ لأرمي بثيابي المتّسخة في القمامة، استلقيتُ على السرير، وشعرت بصحوة غريبة.

في اليوم التالي، أخبرت أثينا أنني سأطلّقها. سألتني عن السبب فقلت:

«لأنني أحبكِ. لأنني أحب فايورل. ولأن كلّ ما فعلته هو إلقاء اللوم عليكما في تخلّيّ عن حلمي بأن أصبح مهندساً. لو انتظرنا قليلاً، لكانت الحال مختلفة، لكنك كنت تفكرين في مخطّطاتك منفردة، ونسيتِ أن تُشركيني فيها».

لم تقل أثينا شيئاً، كما لو أنها كانت تتوقّع حصول ذلك، أو كما لو أنها كانت، بلا شعور، تحثّني على ردٍّ كهذا.

كان قلبي يقطر دماً، أَمِلْتُ أن ترجوَني لأبقى. لكنها بدت هادئة ومُستكينة، قلقها الوحيد أنّ الطفل قد سمع حديثنا. عندئذٍ بالذات، أيقنتُ أنها لم تحبّني يوماً، وأنني كنت مجرد أداة لتحقيق حلمها المجنون في أن تنجب طفلاً وهي في التاسعة عشرة من العمر.

أخبرتُها أن بإمكانها الاحتفاظ بالمنزل والأثاث. لكنها لم تأبه. كانت ستمكث مع والديها لفترة، ثم تبحث عن عمل وتستأجر شقة خاصة. سألتُ إن كان بوسعي تأمين العون المادي لفايورل، فوافقتْ على الفور.

نهضتُ، قبّلتها قبلة أخيرة مطوّلة، وكنت مصرّاً على احتفاظها بالمنزل. لكنها كرّرت عزمها على الذهاب إلى منزل والديها ما إن توضّب كامل أمتعتها. مكثتُ في فندق رخيص. وكنت كل ليلة أنتظر أن تتصل بي، تسألني العودة وبدء حياة جديدة. كنت حتى على استعداد لمتابعة الحياة القديمة لو اقتضى الأمر، لأن الفراق جعلني أدرك أن ما من شيء أو من أحد في العالم أهمّ من زوجتي وولدي.

بعد أسبوع، تلقّيت الاتصال أخيراً. لكن كل ما قالته كان أنّها أخذت أمتعتها كلّها ولن تعود. بعد أسبوعين من ذلك، علمتُ أنها استأجرت عُلّية في «باست رود»، حيث كان عليها أن تحمل طفلها صاعدة ثلاثة طوابق كل يوم. بعد ثلاثة أشهر، وقّعنا أوراق الطلاق النهائية.

رحلت عائلتي الحقيقية إلى الأبد. والعائلة التي ولدتني، استقبلتني بسرور.

بعد انفصالي عن أثينا والمعاناة التي تلت، كنت أسأل نفسي: هل اتخذتُ قراراً سيئاً، غير مسؤول، كمن قرأوا الكثير من قصص الحب في مراهقتهم، وأرادوا يائسين محاكاة قصة روميو وجولييت. عندما تضاءل الألم، والوقت هو العلاج الوحيد لذلك، وجدتُ أنّ الحياة أتاحت لي لقاء المرأة الوحيدة التي سأتمكّن من حبّها يوماً. كل ثانية قضيتها إلى جانبها كانت تستحق العناء، وإن سنحت لي الفرصة، وعلى الرغم من كلّ ما حدث، سأفعل الأمر ثانية.

لكن الوقت، فضلاً عن أنه بَلْسَمَ الجراح كلّها، علّمني أمراً غريباً أيضاً وهو أنّ من الممكن أن نحب أكثر من شخص في حياتنا. تزوّجتُ ثانية. أنا سعيد للغاية مع زوجتي الجديدة، ولا أستطيع تصوّر العيش من دونها. لكن هذا لا يعني أن أتنصّل من

تجاربي الماضية برمّتها، ما دمتُ حريصاً على عدم المقارنة بين حياتي. لا يُمكنكَ قياس الحب بالطريقة التي تقيس فيها طول الطريق أو ارتفاع مبنى.

بقي شيء شديد الأهمية من علاقتي بأثينا: ابننا، حلمها العظيم، الذي تكلّمت عنه بكل صراحة قبل أن نقرّر الزواج. لدي ابن آخر من زوجتي الثانية، وأنا أكثر استعداداً لمطبّات الأبوّة، مما كنت عليه منذ اثنتي عشرة سنة.

ذات مرة، عندما ذهبت لأحضر فايورل لقضاء نهاية الأسبوع معي، قرّرت سؤالها عن ردّة فعلها الشديدة الهدوء عندما أبلغتها قراري بالانفصال عنها.

أجابت: «تعلّمت أن أتعذّب في صمت طوال حياتي».

حينها فقط، لفّت ذراعيها من حولي وذرفت كلّ الدموع التي أرادت ذرفها ذاك اليوم.

الأب جيانكارلو فونتانا، ٧٢ سنة

رأيتها عندما حضرت إلى قدّاس الأحد، والطفل بين ذراعيها كالعادة. عرفتُ أنها ولوكاس يواجهان صعوبات، لكن حتى ذاك الأسبوع، بدت تلك الصعوبات مجرد سوء تفاهم من النوع الذي يحصل بين كل ثنائي. وبما أن كلاً منهما كان شخصاً يشعّ طيبة، أَمِلتُ، عاجلاً أم آجلاً، في أن يُبدِّدا التباين بينهما.

سنة كاملة مرّت على زيارتها الأخيرة إلى الكنيسة صباحاً لتعزف الغيتار وتسبّح العذراء. كرّست نفسها لرعاية فايورل، الذي شرّفني أن أعمّده، مع أنني لم أسمع من قبل بقديس يحمل هذا

الاسم. واظبتُ على حضور القدّاس كلّ أحد، وكنا على الدوام نتحدّث بعد أن تنتهي الصلاة وينفضّ الحشد. قالت إنني صديقها الوحيد. معاً تشاركنا العبادة الإلهية. لكنها الآن، احتاجت إلى أن تتقاسم معي مشكلاتها الدنيوية.

أحبّت لوكاس أكثر من أي رجل التقته، كان والد ابنها، والشخص الذي اختارت أن تقضي حياتها معه، الشخص الذي تخلّى عن كل شيء وتمتّع بالجرأة الكافية لإنشاء عائلة. عند ظهور الصعوبات، حاولتْ إقناعه أنها مجرد مرحلة، أنّ عليها أن تكرّس نفسها لابنهما، ولم يكن في نيّتها أن تجعل من فايورل طفلاً مدلّلاً مشاكساً. إذ سرعان ما كانت ستتركه يواجه بعض تحدّيات الحياة وحده. بعد ذلك، ترجع الزوجة والمرأة التي عرفها زوجها عندما التقيا للمرة الأولى، بل المرأة التي أصبحت أفضل استيعاباً لواجباتها ومسؤولياتها التي رافقت قرارها. ظل لوكاس يشعر أنه منبوذ، حاولت يائسة أن تقسم نفسها ما بين زوجها وابنها، لكن كان عليها دوماً الاختيار بين أحدهما. ومتى حدث ذلك، لم تتردّد يوماً، كانت تختار فايورل.

واستقاءً من معرفتي القليلة بعلم النفس، قلتُ إنها ليست المرة الأولى التي أسمع فيها قصة مماثلة. وفي مثل هذه الحالات، ينزع الرجال إلى الشعور بأنهم منبوذون، لكن سرعان ما يزول ذلك. كنت قد سمعت عن مشكلات مشابهة في محادثاتي مع رعايا آخرين في الأبرشية. خلال إحدى محادثاتنا، اعترفتْ أثينا أنها كانت متسرّعة على الأرجح؛ فرومانسية أن تكون أمّاً شابة أعمتها عن إبصار التحديات الحقيقية التي تنشأ بعد ولادة الطفل. لكن كان الأوان قد فات على الندم.

سألتني إن كان بإمكاني التحدّث إلى لوكاس، الذي لم يأت

إلى الكنيسة قط، لأنه، على الأرجح، لم يؤمن بالله، أو لأنه فضّل قضاء صباح كل أحد مع ابنه. وافقتُ على طلبها، على أن يأتي بملء إرادته. وعندما كانت أثينا تهمّ في طلب هذه الخدمة منه، حدثت الأزمة الكبرى، فهجرها وهجر فايورل.

أشرتُ عليها بالصبر، لكن جرحها كان عميقاً. هُجرت مرة في طفولتها، وانتقل الحقد كلّه الذي شعرت به تجاه والدتها الطبيعية آلياً إلى لوكاس، مع أنني عرفت لاحقاً أنهما أصبحا صديقين مقرَّبين ثانية. كانت أثينا ترى أن قطع روابط الأسرة إنما هو أكبر خطيئة يمكن لامرىء أن يرتكبها.

واظبت على المجيء إلى الكنيسة أيام الآحاد، لكنها كانت ترجع إلى المنزل فور انتهاء القدّاس. لم يعد لديها من تترك معه ابنها الذي لم يكن يكفّ عن البكاء طوال القدّاس، مانعاً المصلّين من التركيز. وفي إحدى الفرص النادرة التي أمكننا التحادث خلالها، قالت إنها تعمل لحساب مصرف، وإنها استأجرت شقة، ولا داعي لأن أقلق على حالها، وإن والد فايورل (كفّتْ حينها عن ذكر اسمه) يؤدّي واجباته المادية.

وإذا بيوم الأحد المشؤوم ذاك يأتي.

علمتُ من أحد رعايا الأبرشية ما حدث خلال ذاك الأسبوع. قضيتُ عدة ليالٍ أصلي عسى أن يُنزَل عليّ ملاكاً يوحي إلي إذا كان يجدر بي مواصلة التزامي بالكنيسة أو بالبشر، نساءً ورجالاً من لحم ودم. عندما لم يظهر أي ملاك، اتصلتُ برئيسي، الذي قال لي إن السبب الوحيد لبقاء الكنيسة هو التزامها الأزلي بالعقيدة. ولو أنها درجت على الاستثناءات، لرجعنا إلى القرون الوسطى. عرفتُ بالضبط ما كان سيحدث. فكّرتُ في مهاتفة أثينا، لكنها لم تكن قد أعطتني رقم هاتفها الجديد.

ذاك الصباح، ارتجفتْ يداي وأنا أرفع القربان المقدّس وأباركه. تلفظتُ بالكلمات التي غدت تقليداً عمره ألف سنة، بالقدرة التي توارثتها الأجيال من الرّسل. ثم ارتحلتْ خواطري إلى تلك المرأة الشابة وطفلها بين ذراعيها، كما العذراء، أعجوبة الأمومة والحب التي تجلّت في الهجر والعزلة، تلك المرأة التي انضمّت إلى صف المتناولين كما كانت تفعل دائماً وتتقدّم ببطء للمناولة.

أعتقد أن غالبية الحشد عرف ما كان يحدث. وكانوا جميعاً يراقبونني، مترقّبين ردّة فعلي. رأيت نفسي محاطاً بأهل العدل، بالخطأة، بالفريسيين، بأعضاء من مجلس اليهود، بالرسل، بالتلاميذ، بذوي النيات الحسنة كما السيئة.

مثلتْ أثينا أمامي وقامت بالحركة المعتادة: أغمضت عينيها، وفتحت فمها لاستقبال جسد المسيح.

بقي جسد المسيح في يديّ.

فتحتْ عينيها، عاجزة عن فهم ما يحدث.

قلتُ همساً: «سنتحدّث لاحقاً».

لكنها لم تأتِ بحركة.

«سنتحدّثُ لاحقاً، الناس مصطفّون وراءك. سنتحدّث لاحقاً».

سألتْ، بصوت سَمِعَه كل من وقف في الصف:

«ماذا يحدث؟».

«سنتحدّث لاحقاً».

«لماذا لا تريد مناولتي؟ ألا ترى أنك تُهينني أمام الجميع؟ أوَلا يكفيني ما أعانيه؟».

قلتُ مجدداً: «أثينا، تحرّم الكنيسة المطلّقات من تناول القربان المقدّس. لقد وقّعتِ أوراق طلاقك هذا الأسبوع. سنتحدّث لاحقاً».

عندما أدركتُ أنها ستظلّ قابعة مكانها، أومأتُ إلى الشخص الواقف وراءها بالتقدّم. واصلتُ المناولة حتى آخر الرعايا. عندئذ بالذات، قبل أن أستدير ناحية المذبح، كان أن سمعتُ ذاك الصوت.

لم يعد صوت الفتاة التي بجّلت العذراء مريم، التي تحدّثت عن مخطّطاتها، التي تأثّرت جداً عندما شاطرتني تعرّفها سِيَر القديسين، والتي كادت دموعها تنهمر عندما أطلعتني على مشكلاتها الزوجية. كان الصوت صوت حيوان جريح، مُهان، بقلب ملؤه الكراهية.

قال الصوت:

«اللعنة على هذا المكان! اللعنة على كل من لم يُصغِ إلى كلام المسيح وحوّلوا مُرْسَلَته إلى بناءٍ من حجر. ذلك أن المسيح قال: «تعالوا إليّ يا جَمِيعَ المُتْعَبِين والرَازِحين تَحْتَ الأَحْمَالِ الثَقِيْلَةِ، وأَنا أُرِيْحُكُم». أنا تحت حمل ثقيل ولن يَدَعوني آتي إلى الربّ. تعلّمتُ اليوم أنّ الكنيسة قد غيّرت تلك الكلمات، لتُمسي: «تعالوا إليّ يا جميع التابعين للأحكام، ودعوا الرازحين تحت الأحمال الثقيلة يهلكون!».

سمعتُ إحدى النسوة في الصف الأمامي من مقاعد الكنيسة تسألها الهدوء. لكنني أردت سماعها. احتجتُ إلى سماعها. استدرتُ ناحيتها، مطأطأ الرأس. كان ذلك كلّ ما أمكنني فعله.

«أُقسم أنني لن أطأ كنيسة بعدُ في حياتي! مرة أخرى، تهجرني عائلة، وهذه المرة لا دخل للصعوبات المالية بالأمر أو بقلّة نضج من يتزوجون عن عمر يافع جداً. اللعنة على كلّ من يوصد الباب في وجه أم وطفلها! أنتم تماماً كأولئك الناس الذين رفضوا قبول عائلة

يسوع. كأولئك الذين أنكروا المسيح عندما كان بأمسّ الحاجة إلى صديق!».

بذلك، استدارتْ ورحلت، والدموع تنهمر على وجنتيها، وطفلها بين ذراعيها. أنهيتُ خدمة القدّاس، قدّمتُ المباركة الأخيرة وتوجّهتُ تواً إلى ملحق الكنيسة. ذاك الأحد، لم يكن لأكرّسه من أجل إسداء النصح والمحادثات غير المثمرة. ذاك الأحد، واجهتني معضلة فلسفية هي أنني اخترتُ الوفاء للمؤسسة عوضاً عن الكلمات التي تقوم عليها هذه المؤسسة.

أنا أتقدّم في العمر الآن، ويمكن أن يتغمّدني الله في أي لحظة. بقيتُ مخلصاً لديني، وأؤمن بأن الدين، على الرغم من كل هفواته، فإنه يحاول أن يضع الأمور في نصابها. ستمرّ عقود، ربما قرون، لكن ذات يوم، سيكون المهمّ هو الحب وكلمة المسيح: «تَعَالوا إليّ يا جَمِيعَ المُتْعَبِيْنَ وَالرَازِحِيْنَ تَحْتَ الأَحْمَالِ الثَقِيلَةِ وَأَنا أُرِيحُكُم». لقد كرّستُ حياتي كلّها للكهنوت ولا أندم على قراري ولو لثانية. مع ذلك، تمرّ أوقات، مثل ذلك الأحد، يراودني فيه الشك في الإنسان مع أنني لا أشك في إيماني.

أعرفُ الآن ما حدث لأثينا، وأتساءل عجباً: هل بدأ ذلك في تلك اللحظة، أم أنه كان راسخاً في روحها؟ أفكّر في أمثال أثينا ولوكاس في العالم، أولئك المطلّقين، المحرومين من تناول القربان المقدّس. كلّ ما يمكنهم فعله هو أن يجيلوا الفكر في المسيح المتعذّب، المصلوب، والإصغاء إلى كلماته، وهي كلمات لا تكون دوماً على وفاق مع قوانين الفاتيكان. في حالات قليلة، يهجر هؤلاء الناس الكنيسة. لكنهم، في غالبيتهم، يواظبون على حضور قدّاس الأحد، لأن هذا ما تعوّدوه، على الرغم من معرفتهم أنّ القربان والنبيذ المتحوِّلَين إلى جسد الرب ودمه محظوران عليهم.

أرغب في تصوّر أثينا، بمغادرتها الكنيسة، أنها التقت يسوع باكية، مضطربة. ولو حصل ذلك لارتمت بين ذراعيه وطلبت إليه أن يفسّر لها استبعادها بسبب ورقة وقّعتها، وهو أمر تافه على المستوى الروحاني، وعلى قدر من الأهمية لكاتب التسجيل وجباة الضرائب.

ولا بد أن المسيح قد أجاب أثينا:

«يا ابنتي، استُبعدتُ أنا أيضاً. لقد مرّ وقت طويل قبل سماحهم لي بالدخول».

بافيل بودبيسكي، ٥٧ سنة، مالك الشقة

كان بين أثينا وبيني قاسم مشترك وحيد: فكلانا كنا لاجئَين من حرب وكلانا أتينا إلى لندن ونحن صغيران، مع أنني هاجرت من بولندا منذ أكثر من خمسين سنة. عرفنا أن تقاليدنا، على الرغم من التغيُّر المادي، تستمرّ في المهجر، حيث تجتمع الجاليات مجدداً، وتظلّ اللغة والدّين حيَّين. وينزع الناس، في أماكن ستظل غريبة عنهم دائماً، إلى الاعتناء أحدهم بالآخر.

تستمرُ التقاليد، لكنّ الرغبة في العودة تتبدّد تدريجاً. تحتاج هذه الرغبة إلى البقاء نابضة في قلوبنا، كأمل يروق لنا إيهام أنفسنا به، من دون تجسيده حقيقة، لن أرجع مطلقاً إلى العيش في تشيستوكوفا ولن ترجع أثينا وعائلتها يوماً إلى بيروت.

كان هذا النوع من التضامن هو الذي دفعني إلى تأجيرها الطابق الثالث من منزلي في باسيت رود. أفضّل في العادة مستأجرين بلا أولاد. ارتكبتُ هذا الخطأ من قبل، وحصل أمران تذمّرتُ من الضجة التي يحدثونها نهاراً، وتذمّروا هم من الضجة التي

أحدثها ليلاً. كان لكلتا الضجّتين جذور في عنصرَين مقدَّسين: البكاء والموسيقا. لكن تَينك الضجّتين انتميتا إلى عالمين مختلفين تماماً، وكان من العسير عليهما التعايش.

حذّرتُها، لكنها لم تستوعب ذلك عن حقّ، وقالت لي ألّا أقلق بخصوص ابنها. كان يقضي النهار كلّه في منزل جدّته على أيّ حال، وكانت الشقة مناسبة بالنظر إلى قربها من مقرّ عملها في مصرف محلّي.

على الرغم من تحذيراتي، وعلى الرغم من تماسكها بشجاعة في البداية، فإن جرس بابي قُرع بعد ثمانية أيام. كانت أثينا، وبين ذراعيها طفل.

«يعجز طفلي عن النوم. ألا يَسَعُكَ أن تُخفض صوت الموسيقا لليلة واحدة على الأقل؟».

حدّق إليها كلّ من في الغرفة.

«ما الذي يحدث؟».

كفّ الطفل فوراً عن البكاء، كما لو أنه فوجئ بقدر ما فوجئت والدته لرؤية مجموعة الناس، الذين قطعوا رقصتهم في منتصفها.

ضغطتُ زرّ الإيقاف المؤقّت في المسجّلة، وأومأت لها بالدخول. ثم، أعدتُ تشغيل الموسيقا لئلا ينقطع الطقس. جلستْ أثينا في إحدى زوايا الغرفة، تهزّ طفلها بين ذراعيها، وتشاهده يغفو على الرغم من ضجة الطبل وآلات النفخ النحاسية. بقيتْ حتى انتهاء المراسم ورحلتْ برحيل الضيوف الآخرين، لكن، كما توقّعتُ أن تفعل، قرعتْ بابي في الصباح التالي قبل ذهابها إلى العمل.

قالت:

«ليس عليك تبرير ما رأته عيناي ــ أشخاصٌ يرقصون بجفون مغمضة ــ لأنني أعرف معنى ذلك. غالباً ما أقوم بالمِثْل. وحينها، تكون تلك هي لحظات السلام والسكينة الوحيدة في حياتي. قبل أن أصبح أماً، كنت أرتاد أندية الرقص الليلية مع زوجي وأصدقائي، وكنت أرى أشخاصاً بجفون مغمضة أيضاً. كان بعضهم يحاول الظهور بمظهر البارد الأعصاب فحسب. وبدا بعضهم الآخر متأثِّراً عن صدق بقوةٍ أعظم وأقوى. ومُذ أصبحتُ كبيرة كفاية لأقرِّر بنفسي، كثيراً ما استخدمتُ الرقص كوسيلة اتصالٍ بشيء أقوى وأكثر اقتداراً مني. على أي حال، أيمكن أن تقول لي ما كانت تلك الموسيقا؟».

«ألديك ارتباطات هذا الأحد؟».

«لا شيء مميّز. قد أصطحب فايورل في نزهة سيراً على الأقدام إلى متنزّه ريدجنت بارك، لاستنشاق بعض الهواء النقي. سيكون لديّ لاحقاً متّسع من الوقت لبرنامج عمل اجتماعي يخصّني. في الوقت الحاضر، قرّرت أن أتبع برنامج ابني».

«سأرافقك. إن رغبتِ في ذلك».

في الليلتين السابقتين لتنزّهنا، حضرت أثينا لمشاهدة الطقس. غفا ابنها بعد دقائق فقط من مجيئها. وكانت هي تشاهد فحسب ما يحصل من حولها، من دون أن تنبس بكلمة. جلستُ بلا حراك على الأريكة، لكني كنت واثقاً أن روحها ترقص.

بعد ظهر يوم الأحد، فيما كنا نتمشّى في المتنزّه، طلبتُ إليها التنبّه إلى كل ما تراه وتسمعه: أوراق الشجر يحرّكها النسيم، تموّجات سطح البركة، زقزقة العصافير، نباح الكلاب، صراخ

الأولاد وهم يركضون ويرجعون، كما لو أنهم يعملون بمنطق غريب ما، يعجز الراشدون عن فهمه.

«كل شيء يتحرّك، وكل شيء يتحرّك على إيقاع وتيرة ما. وكل ما يتحرّك على إيقاع وتيرة، يولّد صوتاً. في هذه اللحظة، يحصل الأمر عينه هنا وفي بقاع أخرى من العالم. لاحَظَ أسلافنا الشيء نفسه عندما حاولوا اللجوء إلى الكهوف هرباً من البرد: كانت الأشياء تتحرّك وتُحدث ضجة. ربما دبّ الفزع في نفس الإنسان الأول بداية. لكن سرعان ما حلّ حسّ من الاندهاش محلّ ذاك الخوف: فَهِمَ الأوّل أنّ تلك كانت الطريقة التي يتواصل بها الخالق معهم. وأملاً في الرّد على هذا التواصل، أخذوا يقلّدون الأصوات والحركات من حولهم؛ فكان الرقص، وكانت الموسيقا. منذ أيام قليلة، أخبرتِني أنّ الرقص يجعلُكِ في وصالٍ مع شيء أعظم منك».

«نعم، عندما أرقص، أكون امرأة حرّة، أو بالأحرى، روحاً حرّة بوسعها الطواف عبر الكون، تتأمل في الحاضر، تعظّم المستقبل، وتتحوّل إلى طاقة خالصة. يُشعرني ذلك بمتعة جمّة، يغمرني بفرح يفوق بأشواط كلّ ما خَبِرته أو سأَخْبِره في حياتي. عزمتُ يوماً على أن أصبح قدّيسة، وكنت أبتهل إلى الله عبر الموسيقا والحركة، لكن تلك الدرب أراها الآن مقطوعة أمامي إلى الأبد».

«أيّ درب تقصدين؟».

عدّلت وضعية ابنها ليجلس مرتاحاً في عربته. فهمتُ أنها لم تُرد الإجابة عن ذاك السؤال، فسألتها ثانية. لكن، عندما تصبح الكلمات قاصرة عن تجسيد الفكرة، نلجأ إلى السكوت.

من دون ومضة شعور، كما لو أنها كانت مجبرة على الدوام أن

تُقاسي في صمت ما فرضته عليها الحياة، أخبرتني بما حدث في الكنيسة، عندما رفض الكاهن، صديقها الوحيد أغلب الظن، أن يناولها القربان المقدّس. كما أخبرتني باللعنة التي تفوّهتْ بها، وأنها تخلّت عن الكنيسة الكاثوليكية إلى الأبد.

قلتُ شارحاً: «القدّيس شخص يعيش حياته بكرامة. كلّ ما علينا فعله هو أن نفهم أنّ لوجودنا سبباً وأن نُلزم أنفسنا بذلك. بعدها، يمكننا أن نَسْخَر من عذاباتنا، بطولها وعرضها، بشموخ نمشي، مدركين أن كلّ خطوة محمّلة بالمعاني. بوسعنا أن ندع النور المنبعث من «الذروة» أنّ يرشدنا».

«ما قصدك بـــ «الذروة»؟. فهي، في الرياضيات، زاوية المثلّث الرأسية».

«في الحياة أيضاً، هي هدف كل أولئك الذين يرتكبون الأخطاء على غرارنا. لكنهم، حتى في أكثر لحظاتهم سوداوية، لا يُعرضون عن النور المنبعث من قلوبهم. هذا ما نحاول فعله في جماعتنا. إن «الذّروة» متأصّلة في كلّ منا، ويمكننا بلوغها إذا تقبّلناها واعترفنا بنورها».

شرحتُ لها أنني أطلقت عبارة «البحث عن الذّروة» للرقصة التي شاهدتها في الليالي السابقة، والتي أدّاها أشخاص من كلّ الأعمار (حينها كنّا عشرة أشخاص، تُراوح أعمارهم بين ١٩ سنة و٦٥). سألتْ أثينا أين وقعتُ على ذلك.

أخبرتها أنه، إبّان نهاية الحرب العالمية الثانية، استطاع بعض أفراد عائلتي الهرب من الحكم الشيوعي الذي كان يُطبق على بولندا، وقرّروا الانتقال إلى لندن. أُسديت لهم النصيحة بإحضار أشياء فنية

وكتب قديمة نادرة كانت، كما أُخبروا، قيّمة جداً في ذاك الجزء من العالم.

بيعتْ اللوحات والمنحوتات على وجه السرعة، لكنّ الكتب افترشها الغبار. كانت أمي صارمة حيالي لكي أقرأ اللغة البولندية وأحكيها، وشكّلتْ الكتب جزءاً من تربيتي. ذات يوم، وجدت في نسخة من كتاب توماس مالتوس ترجع طبعتها إلى القرن التاسع عشر، صفحتين من الملاحظات دوّنها جدّي الذي مات في معسكر اعتقال. زحت أقرأهما، مفترضاً أن لفحواهما صلة بورثته، أو أنهما رسالة عشق موجّهة إلى حبيبة سرّية، إذ قيل إنه وقع في حب إحداهن في روسيا.

في الواقع، كان لذلك جانب من الحقيقة. احتوت الصفحتان وصفاً لرحلته إلى سيبيريا خلال الثورة الشيوعية. هناك في قرية دييدوف البعيدة، أُغرم بممثّلة [ملاحظة: لم يكن بالمستطاع تحديد هذه القرية على الخارطة. من المحتمل أنه تمّ تبديل الاسم عمداً أو أن المكان بحدّ ذاته لم يعد مأهولاً بعد تهجيرات ستالين القسرية]. بالاستناد إلى جدّي، كانت الممثّلة فرداً من طائفة، آمنت أنها وجدت الدواء لكل داء عبر نوع معيّن من الرقص، لأنّ الرقص كان يضع الراقص في اتصال مع النور المنبعث من «الذروة».

خافوا أن يزول التقليد، كان سكان القرية سيُرحّلون قريباً إلى مكان آخر، لتُمسي القرية موقعاً للتجارب النووية. توسّلته الممثّلة وأصدقاؤها أن يكتب عمّا تعلّموه. فعل ذلك، لكن من الواضح أنه لم يفكّر في مدى أهمّيته، لأنه دوّنه ملاحظات تركها داخل كتاب، وبقيت هناك إلى أن وجدتُها.

قاطعتني أثينا:

«ليس الرقص شيئاً تكتب عنه، بل تقوم به».

«بالضبط. كل ما ذَكَرْتُهُ الملاحظات هو: ارقص حتى الإرهاق، كأنك متسلّق يصعد تلّة، جبلاً مقدّساً. ارقص حتى اللهاث لدرجة يُجبر معها جسدك على الحصول على الأكسجين بطريقة أخرى. وهذا، في النهاية، ما سيجعلك تفقد هوّيتك وعلاقتك مع الزمان والمكان. ارقص، لكن على وقع آلات النقر فحسب؛ كرّر العملية كل يوم؛ واعلم أن عينيك، في لحظة معينة، ستغمضان طبيعياً، وسوف تبدأ برؤية نور يشعّ من الداخل، نور يُجيب عن أسئلتك ويطوّر قواك الباطنة».

«وهل طوّرتَ قوى مميّزة ما؟».

بدلاً من الإجابة، اقترحتُ عليها أن تنضمّ إلى المجموعة ما دام ابنها بدا مرتاحاً تماماً حتى مع تعالي ضجة الصَنْج وآلات النقر الأخرى إلى أقصاها. في الوقت المعتاد من اليوم التالي، حضرتْ افتتاح الجلسة. أجريتُ تعارفاً بينها وبين أفراد المجموعة، قائلاً إنها جارتي في الطابق العلوي. لم يتكلّم أحد عن حياته، كما لم يسألها أحد عمّا كانت تفعله في الحياة. عندما حان الوقت، أدرتُ الموسيقا وبدأنا نرقص.

أخذتْ ترقص والولد بين ذراعيها، لكن سرعان ما غفا، فوضعته على الأريكة. قبل أن أُغمض عينيّ وأُدخل في الانخطاف، وجدتُ أنها فهمت تماماً ما عنيتُ بالدرب إلى «الذّروة».

كل يوم، ما خلا الأحد، كانت تحضر مع الولد. كنا نتبادل التحية، ثم أضع موسيقا أحضرها صديق لي من السهوب الروسية، وكنا نرقص جميعاً حتى الإرهاق. بعد مرور شهر على ذلك، طلبتْ نسخة عن الشريط.

«أرغب في أن أؤدّي الرقص صباحاً، قبل أن أترك فايورل في منزل أمي، وأذهب إلى العمل».

حاولتُ نصحها بالعدول عن ذلك.

قلت: «لا أدري، أعتقد أنّ مجموعة مترابطة بالطاقة نفسها تُوجِد نوعاً من الهالة التي تساعد كُلاً على الدخول في حالة الانخطاف. كما أن الرقص قبل الذهاب إلى العمل قد يتسبّب في طردك من العمل، لأنك ستكونين مرهقة النهار بطوله».

فكّرت أثينا للحظة ثم قالت:

«أنت محقٌّ في الحديث عن الطاقة الجَماعية. في مجموعتك، مثلاً، أربعة ثنائيات وزوجتك. كلّهم وجدوا الحب؛ وذا السبب في قدرتهم على تشاطر ذبذبة إيجابية معي. أمّا أنا فلا شريك لي، أو بالأحرى، لديّ ابني، لكن ليس في وسعه إظهار حبه بعدُ بطريقة نفهمها. لذلك، أفضل تقبّل وحدتي. إذا حاولتُ الفرار منها الآن، فلن أجد شريكاً ثانية. إذا تقبّلتها، بدل مواجهتها، قد تتبدّل الأمور. لاحظتُ أن الوحدة تزداد شدّة عندما نحاول الوقوف أمامها وجهاً لوجه، لكنها تضعف عندما نتجاهلها ببساطة».

«هل انضممتِ إلى مجموعتنا بحثاً عن الحب؟».

«لعله ذلك ذريعة ممتازة، على ما أعتقد، لكن الجواب هو «لا». جئت بحثاً عن معنىً لحياتي، لأنّ ابني فايورل هو معناها الأوحد حاضراً. أخشى أن ينتهي بي الأمر إلى تدميره، إما بأن أُفرِط في رعايته، وإما بأن أسقط عليه الأحلام التي لم أتمكّن يوماً من تحقيقها. ذات ليلة، فيما كنت أرقص، شعرتُ بأنني شُفيت. ولو كنا في صدد مرض جسدي، لأسمينا ذلك معجزة، لكن كان توعّكي روحانياً، يُتعسني. وفجأة اختفى».

عرفتُ ما عَنته.

تابعت أثينا: «لم يعلّمني أحد الرقص على صوت الموسيقا، لكن أشعر بأنني أدرك ما أفعله».

«هو ليس شيئاً عليكِ تعلّمه. تذكّري عندما مشينا في المتنزّ وما رأيناه: الطبيعة تخلق إيقاعاتها الخاصة، وتتكيّف مع كل لحظة».

«ولم يعلّمني أحد كيف أحبّ. لكنني أحببت الله، أحببت زوجي، أحب ابني وعائلتي. مع ذلك، فإن ثمة حلقة مفقودة. ورغم أنني أتعب عندما أرقص، فإنني حينما أتوقّف، أبدو وكأنني في حالة من النعمة، من الانتشاء العميق. أودّ أن يدوم هذا الانخطاف طوال النهار ويساعدني على إيجاد ما أفتقر إليه: حب رجل. عندما أرقص، يمكنني أن أرى قلب هذا الرجل، دون وجهه.

أُحسّ أنه قريب مني، ولذلك أحتاج إلى البقاء متيقّظة. أحتاج إلى الرقص صباحاً لكي أقضي بقية نهاري أتنبّه إلى كل ما يحدث من حولي».

«أتعرفين ما معنى كلمة «انتشاء»؟ مرادفها اللاتيني من أصل إغريقي ويعني «الخروج من الذات». إن مكوثك خارج ذاتك طوال النهار يُحمّل الجسد والروح ما يفوق طاقتهما».

«أودّ المحاولة على أي حال».

رأيتُ أن لا جدوى من مناقشتها، فنسختُ لها الشريط. ومذاك، كنت أصحو كل صباح على صوت الموسيقا ووقع الرقص في أعلى، وأتساءل كيف لها أن تواجه عملها في المصرف بعد ساعة تقريباً من الدخول في حالة من الانخطاف. عندما صادفتها في الرواق، دعوتها لتناول القهوة عندي. وأخبرتني أنها أعدّتْ نسخاً

إضافية من الشريط، وإن الكثير من زملائها في العمل أصبحوا يبحثون عن «الذروة».

«هل أخطأت؟ هل كان سراً؟».

بالطبع هي لم تُخطىء، على العكس. بصنيعها هذا، كانت تساعدني في الحفاظ على تقليد بات شبه مفقود. بالاستناد إلى ملاحظات جدّي، قالت إحدى النساء إن راهباً زار المنطقة قد أخبرهم ذات مرة أنّ كلاً منا يحمل أسلافه والأجيال التالية في الصميم.

عندما نُعتق أنفسنا، نُعتق البشرية جمعاء.

«لذا، لا بُدّ لكلّ رجال تلك القرية في سيبيريا ونسائها أن يكونوا هنا الآن، ويكونوا سعداء جداً أيضاً. إنّ عملهم ينبعث من الرماد مجدداً في هذا العالم، كله بفضل جدّك. هناك أمر أودّ سؤالك عنه: ما الذي حملك على الرقص بعد قراءة تلك الملاحظات؟ لو أنك قرأت شيئاً عن الرياضة بدلاً منه، هل كنت لتقرّر أن تصبح لاعب كرة قدم؟».

كان سؤالاً لم يطرحه عليّ أحد من قبل.

«لأنني حينها، كنت مريضاً. كنت أعاني شكلاً نادراً من أشكال داء التهاب المفاصل، وأخبرني الأطباء أنّ عليّ التهيؤ للحياة في كرسي مدولب مع بلوغي الخامسة والثلاثين. وجدتُ أن الوقت ينفد منّي، وقرّرت بالتالي أن أكرّس نفسي لشيء لن أتمكّن من فعله لاحقاً. كتب جدّي على إحدى تلك الأوراق الصغيرة أن سكان دييدوف آمنوا بالقوى العلاجية للانخطاف».

«ويبدو أنهم صائبون».

لم أقل شيئاً، لكنني لم أكن واثقاً تماماً بما حصل. لعل الأطباء كانوا على خطأ. ولعل واقع أنني من عائلة مهاجرة أجبرني ألا يكون لدي مجال للمرض، كان قوة ضاغطة على عقلي الباطن حفّزت في جسمي ردّة فعل طبيعية. أو لعلها كانت أعجوبة فعلاً، على الرغم من أن ذلك يتنافى تماماً مع عقيدتي الكاثوليكية القائلة بأن الرقص ليس علاجاً.

أذكر يوم كنت مراهقاً أنه لم يكن لدي فكرة عن ماهية الموسيقا المناسبة، وهكذا، تعوّدت ارتداء قلنسوة سوداء تغطي الوجه والتخيّل أن كل ما حولي قد انتفى وجوده. وكانت روحي ترتحل إلى دييدوف، لتكون مع أولئك الرجال والنساء، مع جدّي وحبيبته الممثلة. في سكون غرفة نومي، كنت أسأل كلاً منهم أن يعلّمني الرقص، أن يعلّمني تخطّي حدودي، لأني كنت أدنو من الشلل الدائم. كلما تحرّك جسمي، ازداد نور قلبي سطوعاً، وتعلّمت أكثر؛ ربما من تلقاء نفسي وربما من أشباح الماضي.

حتى أنني تخيّلت الموسيقا التي لا بُدّ أنهم كانوا يستمعون إليها خلال طقوسهم. وعندما زار أحد أصدقائي سيبيريا بعد سنوات بعيدة لاحقاً، طلبتُ إليه أن يجلب لي بعض التسجيلات الموسيقية. ويا لدهشتي حين كان أحدها مشابهاً جداً للموسيقا التي تخيّلت أنها ترافق الرقص في دييدوف.

كان من الجيد أنني لم أُخبر أثينا بأي من ذلك؛ خَطَرَ لي أنها كانت سريعة التأثّر، وغير مستقرّة نوعاً ما.

كلّ ما قلته لها: «ربما ما تفعلينه صائب».

تحدّثنا مرة أخرى، قُبيل سفرها إلى الشرق الأوسط. بدت مسرورة كما لو أنها وجدت كل ما أرادته... الحب.

«شكّل زملائي في العمل جماعة، أطلقوا عليها اسم «حجّاج الذروة»، وكلّ ذلك بفضل جدّك».

«تقصدين، كلّه بفضلك، لأنكِ أنت التي شعرت بالحاجة إلى أن تشركي الآخرين في الرقص. أعلم أنك راحلة، لكن أود أن أشكرك على إضفاء بُعدٍ آخر على ما كنت أفعله كل تلك السنوات، في محاولة نشر النور بتردّد على قلّة من المهتمّين، لخوفي الدائم من أن يجد الناس القصة بأكملها قصة سخيفة».

«أتدري ما تعلّمته؟ صحيح أنّ الانتشاء يتمثّل في القدرة على الخروج من الذات، إلّا أن الرقص هو وسيلة من الارتقاء إلى الفضاء، من اكتشاف أبعاد جديدة والبقاء مع ذلك في اتصال مع الجسد. عندما ترقص، يتمكّن العالم الروحاني والعالم المادي من التعايش بسرور تام. أعتقد أن راقصي الباليه يرقصون على رؤوس أصابعهم لكي يتمكّنوا من ملامسة السماء بأناملهم».

إن كانت ذاكرتي لا تخونني، فتلك كانت آخر كلماتها لي. لدى تأدية أي رقصة نستسلم لها بفرح، يفقد الذهن خلالها قدرته التحكّمية، ويُمسك القلب برسن الجسد. عندئذ فقط تتجلّى «الذروة». ما دمنا نؤمن بها طبعاً.

بيتر شيرني، ٤٧ عاماً، مدير فرع مصرف في هولاند بارك، لندن

قبلتُ توظيف أثينا لمجرد أنّ عائلتها كانت من أهم عملائنا؛ في النهاية، يتمحور العالم حول المصالح المتبادلة. بدت شخصاً شديد التبرُّم. لذلك أوكلتُ إليها منصباً سكرتارياً مملاً، على أمل أنها ستستقيل قريباً. هكذا، أمكن لي أن أخبر والدها بأنني فعلت

أفضل ما بوسعي لمساعدتها، لكن بلا جدوى. علّمتني خبرتي كمدير استشفاف نفسيات الأشخاص، حتى وإن لم ينبسوا بكلمة. خلال دروس في الإدارة كنت أحضرها، تعلّمت أنني إذا أردتُ التخلّص من أحدهم، أفعل ما في وسعي لتحريضه على التصرّف بوقاحة، وبذلك تتوافر لدي ذريعة صرفه.

فعلت ما في وسعي لتحقيق مبتغاي بشأن أثينا. لم تكن تعوّل على راتبها لكسب العيش، وسرعان ما كانت ستعرف عدم جدوى العمل لديّ: وجوب النهوض باكراً، اصطحاب ابنها إلى منزل والدتها، الكدح في العمل اليوم بطوله في وظيفة رتيبة، أخذ ابنها من عند والدتها، الذهاب إلى المتاجر الكبرى، قضاء الوقت مع ابنها قبل أن يحين موعد نومه، ثم، في اليوم التالي، قضاء ثلاث ساعات أخرى في وسائل النقل... كل ذلك بلا داعٍ، ولا سيّما بوجود ألف طريقة وطريقة أخرى لتملأ أيامها بها. أخذ غيظها يزداد، ورحت أفتخرُ باستراتيجيتي: إنني أبلغ مرادي. راحت تتذمر من الشقة التي تسكن فيها، قائلة إنّ المالك يبقيها مستيقظة طوال الليل، بوضع موسيقا صاخبة فعلاً.

ثم، فجأة، تغيّر أمر ما. كانت أثينا أوّل من تغيّر. لكن سرعان ما أثّر ذلك في الفرع بأكمله. كيف لاحظت التغيُّر؟ إن مجموعة العاملين أشبه بأوركسترا، والمدير الجيد أشبه بالقائد الذي يعرف من يخرج عن الإيقاع، من يعزف بالتزام تام، من يتبع الآخرين. ببساطة، بدت أثينا وكأنها تعزف على آلتها من دون ولو ذرة حماسة، بدت بعيدة لا تشارك زملاءها مطلقاً بأفراح حياتها الخاصة وأحزانها، وقد أعلمتهم أنها، بعد خروجها من العمل، تقضي وقت فراغها في رعاية ابنها. ثم، فجأة، أخذت تبدو أكثر استرخاءً، أكثر تواصلاً، تخبر مَن يودّ سماعها أنها اكتشفت سرّ التجدّد.

بالطبع، «التجدّد» كلمة سحرية. وأنها صدرت عن شخص لم يكد يبلغ الحادية والعشرين من العمر، بدت هذه الكلمة سخيفة. مع ذلك صدّقها أفراد آخرون من فريق العمل، وأخذوا يطلبون إليها التركيبة السريّة.

ازدادت فاعليّتها، على الرغم من ثبات حجم عملها. وزملاؤها الذين لم يبادلوها حتى ذلك الوقت سوى كلمات مثل «صباح الخير» و«عمت مساءً»، أخذوا يدعونها إلى تناول الغداء. وبعودتهم، كانوا يبدون في سرور تام، واتخذت إنتاجية القسم قفزة عملاقة.

أعلمُ أن المغرمين يؤثّرون بمحيطهم، وافترضت على الفور أنّ في حياة أثينا ولا شك شخصاً مهمّاً جدّاً.

سألتها عن ذلك، وأتى ردّها إيجاباً، مُضيفة أنها لم تواعد يوماً أي زبون لدى المصرف، لكن، في هذه الحالة، عجزتْ عن الرفض. كان هذا يشكّل تلقائياً أساساً للصرف الفوري، فقوانين المصرف واضحة: يُمنع الاتصال الشخصي بالعملاء. لكن، أدركتُ أنّ سلوكها كان آنذاك قد أصاب الكلّ بالعدوى تقريباً. أخذ بعض زملائها يخرجون برفقتها بعد الدوام. وأعتقد أن قلّة منهم قد ذهبوا إلى منزلها.

كان الوضع ينذر بالخطر. فالمتدرجة الشابة المفتقرة إلى خبرة عمل سابقة، والتي كانت حتى ذلك الوقت تترجّح ما بين الخجل والعدائية، أصبحت في موقع الزعامة لموظّفيّ. لو طردتها، لحسبوا أن فعلتي بدافع الغيرة، ولفقدتُ احترامهم. ولو أبقيتها، لكانت مجازفة في أن أفقد السيطرة على الموظفين خلال أشهر.

قرّرتُ أن أصبر. لكن في تلك الأثناء كان معدّل «الطاقة» في المصرف يرتفع حكماً (أكره كلمة «الطاقة»، لأنها لا تعني شيئاً فعلياً، ما لم تكن تتحدث عن الكهرباء). على أي حال، بدا

عملاؤنا أكثر سعادة، وأخذوا ينصحون أشخاصاً آخرين بنا. بدا الموظفون سعداء أيضاً. وبما أن حجم عملهم قد تضاعف، فلم أحتج إلى توظيف أشخاص إضافيين، لأن الموجودين كانوا يتجاوبون تماماً.

ذات يوم، تلقّيت رسالة من رؤسائي. طلبوا إلي الذهاب إلى برشلونة لاجتماع يضم مجموعة المصرف، كي أشرح لهم التقنيات الإدارية التي أستخدمها. فقد تبيّن لهم أني قد زدت الأرباح دون زيادة في النفقات. وهذا بالطبع الأمر الوحيد الذي يهمّ المديرين التنفيذيين في كل مكان.

لكن أي تقنيات؟

بالحد الأدنى عرفتُ كيف بدأ الأمر برمّته. لذلك استدعيتُ أثينا إلى مكتبي. أثنيتُ على مستويات إنتاجيتها الممتازة، وشكرتني بابتسامة.

تابعتُ بحذر، غير راغب في أن يُساء فهمي.

«و... كيف حال حبيبك؟ لطالما وجدت أن أي شخص يحصل على الحب، يعطي مزيداً من الحب. ماذا يعمل؟».

«يعمل لصالح سكوتلند يارد». [ملاحظة: قسم تحقيقات في الشرطة على صلة بشرطة العاصمة في لندن].

ارتأيتُ ألّا أطرح المزيد من الأسئلة، لكنني أردت مواصلة الحديث، ولم أملك ما يكفي من الوقت.

«لاحظتُ عليكِ تغيّراً كبيراً و...».

«هل لاحظتَ تغيّراً في المصرف أيضاً؟».

أنّى لي الإجابة عن سؤال كهذا؟ إن أجبتها بصراحة، أكون قد

أعطيتها شحنة قوة إضافية أكثر من اللازم؛ وإن لم أكن صريحاً، فلن أحظى بالإجابات التي أحتاج إليها.

«نعم، لاحظتُ تغيّراً كبيراً، وأفكّر في ترقيتك».

«أحتاج إلى السفر. أودّ الخروج من لندن واكتشاف آفاق جديدة».

السفر؟ في الوقت الذي كان كل شيء يسير على ما يرام في فرعي، احتاجتْ إلى الرحيل؟ مع ذلك، عندما فكرتُ في الأمر، تساءلت: أوَلم يكن هذا بالتحديد المخرج الذي احتجتُ إليه وأردته؟

تابعتْ: «يمكنني مساعدة المصرف إذا حمّلتني مسؤولية أكبر».

أجل، كانت تعطيني فرصة ممتازة. كيف لم يحدث أن فكّرت في ذلك من قبل؟ كان «السفر» مرادفاً للتخلّص منها واستعادة زعامتي للمجموعة، من دون الاضطرار إلى مواجهة السقوط جزاء صرف أو تمرّد. لكن، كان عليّ التفكير في المسألة ملياً، ذلك أنني كنت في حاجة إلى خدماتها وكذلك المصرف. فبعد ملاحظة رؤسائي لازدياد الإنتاجية، عرفتُ أن عليّ المثابرة على ذلك، وإلا أجازف في فقدان الجاه الذي أحاطني، وينتهي بي الأمر أسوأ من ذي قبل. أحياناً، أفهم لماذا لا يقوم معظم زملائي بالكثير لتحسين حالهم: إن لم ينجحوا، يُقال إنهم بلا كفاءة. وإن نجحوا، فلا بد لهم من المثابرة على التحسّن دوماً، وهو الضمانة للإصابة بنوبة قلبية عن عمر مُبكر.

قمتُ بخطوتي التالية بحذر شديد: ليس مستحسناً إخافة شخص ينطوي على سرّ قبل إفشائه لنا، من الأفضل الادّعاء بمنحها طلبها.

«سوف أُعلم رؤسائي بطلبك. في الواقع، لديّ اجتماع معهم في برشلونة، وقد استدعيتك لهذا السبب. هل سيكون صائباً القول إن أداءنا تحسّن مذ أَخَذَ الموظفون الآخرون ينسجمون معك؟».

«أو، فلنقل، مُذ أخذوا يتصالحون مع أنفسهم».

«أجل، لكن بتشجيع منك، أم أنني على خطأ؟».

«تعرف تماماً أنك لست على خطأ».

«أكنت تقرأين كتاباً عن الإدارة لا علم لي به؟».

«لا أقرأ هذا النوع من الكتب، لكن أريد منك وعداً بأن تفكر في طلبي».

فكّرتُ في حبيبها الذي يعمل في سكوتلند يارد. إذا قطعت لها وعداً ونكثت به، فهل سأكون موضع انتقام؟ أيمكن أن يكون قد علّمها تكنولوجيا حديثة تخوّل المرء تحقيق نتائج مستحيلة؟

«سأخبركَ كل شيء، حتى إن خلفتَ بوعدك، لكن لا أضمن أنك ستحصل على النتائج نفسها إذا لم تطبّق ما أعلّمه».

«تقصدين "تقنية التجدّد"؟».

«بالضبط».

«ألا يكفي معرفة النظرية فحسب؟».

«ربّما. الشخص الذي علّمني، تعلّم عنها من خلال بضع أوراق».

كنت مسروراً أنها لم تجبرني على اتخاذ قرارات تُجاوز قدراتي أو مبادئي. لكن لا بُدّ لي من الاعتراف بأنني كنت مهتماً على صعيد شخصي بالقصة كاملة، لأنني أنا أيضاً حلمت في إيجاد طريقة ما لـ «إعادة تدوير» مقدرتي. وعدتُ أن أبذل ما بوسعي، وشرعت أثينا تصف الرقصة الطويلة الغامضة التي كانت تؤدّيها بحثاً عن «الذروة» المزعومة (أو أنها قالت «المحور»، لم أعد أذكر جيداً الآن). فيما تكلّمنا، حاولتُ أن أهدّئ من جنون أفكارها

بمصطلحات اعتراضية. ساعة من الزمن لم تكن كافية، لذلك طلبت إليها العودة في اليوم التالي، لنُعدّ معاً التقرير الذي سيقدّم إلى مجلس إدارة المصرف. في موضع من مواضع حديثنا، قالت مبتسمة:

«لا تقلق بشأن وصف التقنية بالألفاظ التي استخدمناها. أحسبُ أن أعضاء مجلس إدارة المصرف أشخاص مثلنا، من لحم ودم، ويهتمون بالطُرق غير المألوفة».

كانت أثينا مخطئة تماماً. فالتقليد في إنجلترا، أشد وقعاً من الابتكار. لكن ما الضير في المجازفة ما دام ذلك لا يهدّد وظيفتي؟ بدا الأمر برمّته تافهاً في نظري. لكن كان عليّ تلخيصه وصوغه بطريقة يفهمها الجميع. كان ذلك كلّ ما في الأمر.

قبل أن أقدّم «تقريري» في برشلونة، أمضيتُ الصباح بكامله أكرّر: إن «عمليتي» تأتي بالنتائج، وهذا كل ما يهم. قرأت بضعة كتب عن الموضوع. وعلمتُ أنك، بغية تقديم أفكار جديدة أشد وقعاً، عليك نسج كلامك بالقدر نفسه من الاستفزازية. وهكذا كان أول ما قلته للمديرين التنفيذيين المجتمعين في ذلك الفندق الفخم هي كلمات القدّيس بولس: «أخفى الله أعظم الأمور عن الحكماء لأنهم يعجزون عن فهم ما هو بسيط». [ملاحظة: لعله يشير إلى آية من إنجيل متى: ١١:٢٥: «أَحْمدُكَ أَيُّها الآبُ، رَبّ السَماء والأَرضِ، لأنَّكَ حَجَبْتَ هَذه الأمور عَن الحُكَماءِ والفُهَماءِ، وكَشَفْتَها للأطفالِ»، أو من رسالة القديس بولس إلى أهل كورنثس ١:٢٧: «بلْ إنّ اللّه قَدِ اخْتارَ ما هُوَ جاهِلٌ في العَالَم ليُخجِلَ الحُكماء. وقَدِ اختارَ اللّهُ ما هو ضَعيفٌ في العالم ليُخجِلَ المُقْتَدِرين»].

عندما تفوّهت بذلك، خيّم الصمت على الحضور بأكمله، ممن كانوا يحلّلون الرسوم البيانية والإحصائيات على مدى اليومين الأخيرين. خَطَرَ لي أنني من المؤكد في صدد فقدان وظيفتي،

لكنني واصلت الكلام. أولاً، لأنني كنت قد قمت بأبحاث عن الموضوع، وكنت واثقاً بأقوالي، وكنت جديراً بالثناء. ثانياً، لأنني كنت أقول الحقيقة، على الرغم من كوني مجبراً على عدم ذكر تأثير أثينا الهائل على العملية بأكملها.

«تعلّمتُ أن تحفيز الموظفين في يومنا، يستدعي منكم أكثر من التدريب الذي توفّره مراكز التدريب الممتازة عندنا. كلّ منا يحمل في داخله شيئاً مجهولاً. لكنه، عندما يطفو إلى السطح، يكون قادراً على اجتراح المعجزات.

كلنا نعمل لسبب ما: لتوفير القوت لأولادنا، لجني مال نعيل به أنفسنا، لتبرير سبب عيشنا، للتمتّع ببعض النفوذ. مع ذلك، فإن هناك على الدوام مراحل فاترة في هذه العملية. ويكمن السرّ في تحويل هذه المراحل إلى لقاء مع أنفسنا أو مع شيء أسمى. مثلاً، ليس السعي إلى الجمال مرتبطاً دوماً بشيء عملي؛ ومع ذلك، فإننا لا نزال نسعى إليه، كما لو أنه أهم ما في العالم. تتعلم الطيور أن تزقزق، ليس بداعي إيجاد الطعام، أو الهروب من الضواري المفترسة أو إبعاد المتطفّلين. زقزقة العصافير، بالاستناد إلى داروين، هي الطريقة الوحيدة المتاحة لجذب شريك وللتكاثر. قاطعني مدير تنفيذي من جنيف، مطالباً بعرضٍ أكثر موضوعية. مع ذلك، ولفرحي العظيم، سألني المدير العام أن أتابع كلامي.

مجدداً، بالاستناد إلى داروين، الذي وضع كتاباً حوّل تاريخ البشرية جمعاء، [ملاحظة: «أصل الأنواع»، ١٨٥٩، قال فيه بنظرية النشوء القاضية بأن الجنس البشري تطوّر من أحد ضروب القرود]، فإن أولئك الذين يتمكّنون من استثارة مشاعر الشغف، إنما يكرّرون شيئاً قائماً منذ إقامتنا في الكهوف، حيث طقوس التودّد

إلى شريك كانت أساسية للبقاء ونشوء الأجناس البشرية. والآن، ما الفرق بين نشوء العرق البشري ونشوء فرع مصرفي؟ لا فرق. كلاهما يخضع للقوانين ذاتها. الأصلح وحده يستمر وينشأ».

عند ذاك تحديداً، كنت مجبراً على الإقرار بأنني كوّنت هذه الفكرة بفضل المساهمة العفوية لواحدة من موظفيّ، هي شيرين خليل.

«شيرين، التي تحب أن تُعرف بـ «أثينا»، أضفت على مقرّ العمل حالة وجدانية جديدة هي الشغف. نعم، الشغف، وهو شيء لا نأخذه عادة في الاعتبار لدى مناقشة القروض أو الجداول الحسابية. أخذ موظفيّ يستخدمون الموسيقا كمحفّز للتعامل بفاعلية أكبر مع زبائنهم».

قاطعني مدير تنفيذي آخر قائلاً إن هذه الفكرة فكرة بالية: سبق أن قامت المتاجر الكبرى بالأمر ذاته، باستخدام الموسيقا المزمارية لتشجيع عملائهم على شراء المزيد.

«لا أقول إننا استخدمنا الموسيقا في مقرّ العمل. بدأ الناس يعيشون حياة مختلفة، ويرجع الأمر ببساطة إلى أن شيرين، أو أثينا إذا أردتم، علّمتهم الرقص قبل مواجهة مهامهم اليومية. لا أدري بالضبط أي آلية يوقظها الرقص في الناس؛ فأنا، بصفتي مديراً، مسؤول عن النتائج فقط، وليس عن العملية. لم أشارك شخصياً في الرقص لكنني أفهم أنهم، من خلاله، شعروا جميعاً بارتباط أوثق بما كانوا يفعلونه.

ولدنا وترعرعنا على المبدأ القائل: الوقت هو المال. نعلم تماماً ما المال، لكن ما معنى كلمة «وقت»؟ اليوم أربع وعشرون ساعة، ولحظات لا متناهيات. علينا أن نعي كل لحظة من هذه اللحظات

واستغلالها حتى أقصاها، بغض النظر عمّا إذا كنا منهمكين في شيء ما، أو أننا نتأمل الحياة فحسب. إذا سرنا على مهل، فإن كل شيء يدوم أطول. وبالطبع، هذا يعني أن غسل الأطباق قد يستغرق وقتاً أطول. وقد ينسحب ذلك على حساب مجموع رصيد الدين والتسليف في ميزانية، أو التدقيق في الكمبيالات. لكن لِمَ لا نسعى إلى تسخير هذا الوقت للتفكير في أمور ممتعة والشعور بالفرح لمجرد أننا على قيد الحياة؟ كان المدير العام ينظر إليّ بعجب. كنت واثقاً أنه أرادني أن أشرح بالتفصيل ما تعلّمته. لكن بعض الحاضرين كانوا قد بدأوا يتبرّمون ضجراً.

قال: «أفهم تماماً ما تقصد. أفهم، أيضاً، أنّ موظّفيك عملوا بحماسة أكبر لأنهم كانوا قادرين على الاستمتاع بلحظة من اليوم لدى تواصلهم تماماً مع أنفسهم. واسمح لي أن أثني عليك لتمتّعك بالمرونة الكافية كي تسمح بحدوث مثل تلك الممارسات الخارجة عن التقليد، والتي لا بُدّ من ذكر أنها كانت تأتي بنتائج ممتازة. وما دام الكلام عن الوقت، نحن في مؤتمر، وبقي لديك خمس دقائق لتختم عرضك. هلّا عدّدت النقاط الأساسية التي تتيح لنا تطبيق هذه المبادئ في فروع أخرى؟».

كان على حق. كان ذلك جيداً للموظفين، لكنه كان ليقضي على مهنتي. وبذلك قررت أن ألخّص النقاط التي كنت أنا وشيرين قد كتبناها معاً.

«بالارتكاز على مراقبات شخصية، كوّنتُ أنا وشيرين خليل نقاطاً معيّنة يسرّني أن أناقشها مع كلّ من يُبدي اهتماماً بها. إليكم النقاط الأساسية:

أ) نملك جميعاً قدرة مجهولة، قد تظل مجهولة إلى الأبد. لكن يمكن لهذه القدرة أن تصبح حليفنا. وبما أن من المستحيل قياس

تلك القدرة أو إعطاءها قيمة اقتصادية، فهي لا تؤخذ مطلقاً على محمل الجد. لكنني في صدد الكلام إلى بشر هنا. وأنا على ثقة بأنكم تفهمون ما أرمي إليه، أقلّه نظرياً.

ب) في فرعي، تعلّم الموظفون ولوج هذه القدرة عبر الرقص المستند إلى إيقاع آتٍ، على ما أعتقد، من المناطق الصحراوية في آسيا. مع ذلك، فإن منشأه لا يعود مهمّاً ما دام الناس يعبّرون بأجسادهم ما تريد نفوسهم قوله. أعتقد أنه سوف يساء فهم كلمة «نفوس». لذلك أقترح استخدام كلمة «حدس» بدلاً منها. وإن كان من العسير استيعاب هذه الكلمة أيضاً فلنستخدم إذاً عبارة «الانفعالات البدائية»، بوقعها الأكثر علمية، مع أنها، في الواقع تحمل معنى لا يرقى إلى معنى الكلمتين الأُخريين.

ج) بدلاً من تشجيع موظفيّ على القيام بتمارين الحفاظ على الرشاقة واللياقة البدنية قبل الذهاب إلى العمل، أشجعهم على الرقص لساعة على الأقل. ينبّه ذلك الجسم كما الذهن؛ هم يبدأون نهارهم بطلب درجة معينة من الإبداع من نفوسهم، وينقلون تلك الطاقة المتعاظمة إلى عملهم في المصرف.

د) يحيا العملاء كما الموظفون في العالم نفسه: ليس الواقع سوى سلسلة من المنبّهات الكهربائية التي تصل الدماغ. ما نخال أننا «نراه» هو في الواقع موجة نابضة من الطاقة تذهب إلى بقعة قاتمة تماماً من الدماغ. مع ذلك، إذا التقينا على الموجة ذاتها مع أشخاص آخرين، يمكننا المحاولة في تغيير هذا الواقع. بطريقة ما لا أفهمها، في الفرح عدوى، تماماً كالحماسة والحب، أو الحزن أو الاكتئاب أو الكراهية. أمور يمكن للعملاء ولموظّفين آخرين التقاطها عبر «الحدس». ولتحسين الأداء، علينا ابتكار آليات تُبقي على هذه المنبّهات حيّة».

علّقت إحداهن قائلة: «يا له من أمر بالغ الغموض». هي مديرة صناديق استثمار في فرع في كندا.

تضاءلت ثقتي قليلاً. أخفقتُ في إقناع أيّ منهم. مع ذلك، كابرتُ متجاهلاً ملاحظتها. وسعيت، مستخدماً إبداعي كلّه، إلى دعم بحثي بخاتمة عملية:

«يجب أن يُخصّص المصرف رأسمالاً للقيام بأبحاث حول آلية هذه الحالة النفسية المُعدِية، وبالتالي زيادة أرباحنا بشكل ملحوظ».

بدت هذه الخاتمة مُرضية. ولذلك آثرتُ عدم استخدام الدقيقتين المتبقّيتين لي. عند الانتهاء من حلقة الاجتماع، مع نهاية يوم مرهق، دعاني المدير العام لتناول العشاء، على مرأى ومسمع زملائنا أجمعين كما لو أنه كان يحاول إظهار دعمه لكل ما قلته. لم يسبق لي أن حظيتُ بفرصة تناول العشاء مع المدير العام. ولذلك حاولت استغلالها إلى أقصى حدّ. شرعتُ في الكلام عن الأداء، عن الجداول الحسابية، عن المصاعب في البورصة وأسواق جديدة محتملة. قاطعني؛ كان مهتماً أكثر بمعرفة المزيد عمّا تعلّمته من أثينا. في النهاية، لعجبي، حوّل الحديث إلى مسائل أكثر شخصية.

«فهمتُ مقصدك عندما، خلال تقديم تقريرك، تحدّثت عن الوقت. في رأس السنة، عندما كنت لا أزال أستمتع بالعطلة، قرّرت الخروج والجلوس قليلاً في الحديقة. أخذتُ الصحيفة من صندوق البريد لكنها لم تتضمن شيئاً مهماً. تضمنت فقط الأمور التي قرّر الصحافيون أنّ نعرفها، الشعور بأننا معنيون بها ولنا رأي فيها. فكّرت في مهاتفة أحد العاملين معي، لكن ذلك سخيف، لأنهم سيكونون جميعاً مع عائلاتهم. تناولت الغداء مع زوجتي، وأولادي وأحفادي. أخذتُ قيلولة. وعندما استيقظت، دوّنت بعض الملاحظات، ثم أدركت أنها كانت لا تزال الساعة الثانية بعد الظهر. كان ما

بقي لي من الإجازة ثلاثة أيام. وعلى الرغم من رغبتي الملحّة في أن أكون مع عائلتي، فإنني شعرت بعدم جدواي.

في اليوم التالي، جرّبت استغلال وقت الفراغ فذهبت لأفحص معدتي. لحسن الحظ، لم تُظهر النتائج أي أمر خطير. ذهبت إلى طبيب الأسنان، الذي قال إنّ أسناني لا تشكو من أي خلل. تناولت الغداء مجدداً مع زوجتي وأولادي وأحفادي. أخذت قيلولة أخرى، استيقظتُ مجدداً في الثانية بعد الظهر، وأدركت أن لا شيء عندي على الإطلاق ليشغلني.

شعرت بعدم الارتياح: ألا يجدر بي أن أفعل شيئاً؟ حسنٌ، لو أردت اختلاق عمل، فذلك سهل. لكلّ منا ما يقوم به، أن نطوّر مشروعات، نبدّل لمبات الكهرباء، نكنس أوراق الشجر، نرتّب الكتب، ننظّم الملفّات الإلكترونية... لكن ماذا عن مواجهة الفراغ؟ تذكّرت حينها شيئاً بدا لي في غاية الأهمية: كان عليّ التوجه إلى صندوق الرسائل الذي يبعد عن منزلي الريفي أقل من ميل وأضع فيه إحدى بطاقات المعايدة الخاصة بالميلاد التي علاها غبار النسيان على مكتبي.

فوجئتُ: لماذا كان عليّ أن أرسل تلك البطاقة يومها. أكان بالفعل من الصعب جدّاً أن أمكث في مكاني، لا أفعل شيئاً؟

راودتني سلسلة من الأفكار: أصدقاء يقلقون بشأن أمور لم تحصل بعد، معارف يتدبّرون أمر ملء كل دقيقة من حياتهم بمهام تبدو لي سخيفة، أحاديث لا منطقية، محادثات هاتفية طويلة لا يُقال فيها البتة أي شيء ذي أهمية. رأيت مديريّ يختلقون العمل لمجرد تبرير وظائفهم، موظّفين يشعرون بالخوف لأنهم لم يُعطوا عملاً ذا أهمية ذاك اليوم، ما يعني أنهم باتوا بلا نفع؛ زوجتي التي تتعذّب لأن ابننا طلّق زوجته، ابني الذي يتعذّب لأن علامات ابنه

كانت متدنية في المدرسة؛ حفيدنا المرغوب لأنه يجعل والديه تعيسين. على الرغم من أننا جميعاً نعلم بأنّ العلامات ليست على هذا القدر من الأهمية.

غالبتُ نفسي طويلاً لأنهض عن مكتبي. مع ذلك، راح التأمُّل يحلّ تدريجيّاً محل القلق، وأخذت أُصغي إلى روحي، حدسي، مشاعري البدائية، أو مهما يكن ذاك الشيء الذي تؤمن به. سمِّه ما شئت، لطالما كان ذاك الجزء مني يتوق إلى التحدّث معي، لكنني كنت منشغلاً على الدوام.

في حالتي تلك، لم تكن رقصة، بل كان الغياب الكامل للضجيج والحركة، كان الصمت الذي وضعني في وصال مع نفسي. صدّق أو لا تصدّق، علمتُ الكثير الكثير عن المشكلات التي تكدّرني، مع أنها تحلّلت كلياً فيما أنا جليس هناك. لم أرَ الله، لكن زاد فهمي وضوحاً للقرارات التي عليّ اتخاذها».

قبل تسديد الفاتورة، اقترح أن أرسل الموظفة المعنية إلى دبي، حيث كان المصرف يُنشىء فرعاً جديداً، وحيث كانت المخاطر لا يُستهان بها. بصفته خير مدير، أدرك أنني عرفت كل ما احتجت إلى معرفته، وحينها كانت المسألة مجرد مسألة تأمين الاستمرارية. يمكن لموظّفتي أن تشكّل إسهاماً نافعاً في مكان آخر. ومع أنه لم يدرِ بذلك، فقد كان في الواقع يساعدني على الإيفاء بالوعد الذي قطعته.

بعودتي إلى لندن، أخبرت أثينا على الفور بأمر الدعوة، وقبلت تواً. أخبرتني أنها كانت تُجيد العربية (كنت أعرف ذلك لمعرفتي بأبيها)، على الرغم من أن ذلك لن يكون جوهرياً لأننا سنتعامل بشكل أساسي مع أجانب، وليس مع العرب. شكرتها على

مساعدتها، لكنها لم تُظهر أي فضول بشأن حديثي في المؤتمر، وسألت فقط متى عليها حزم أمتعتها.

لا أزال أجهل إن كانت قصة ذاك الحبيب من سكوتلند يارد خيالية أم لا. ولو صحّت، لكان قاتل أثينا قد أُوقف، على ما أعتقد، لأنني لا أصدّق كل ما نشرته الصحف حول الجريمة. بوسعي فهم السياسة المالية، حتى أنني أسمح لنفسي بالقول إنّ الرقص يساعد موظّفيّ على العمل بشكل أفضل، لكنني لن أستوعب أبداً كيف أن أكفأ شرطة في العالم تقبض على قتلة دون سواهم. ليس أن ذلك سيشكل فارقاً الآن.

نبيل الأيهي، العمر غير محدّد، بدوي

سُررت جداً لمّا عرفتُ أن أثينا وضعت صورة لي في مكان مُشرّف في شقتها. لكنني لا أعتقد حقاً أنّ ما علّمتها إياه كان مجدياً حقاً. أتت إلى الصحراء، إلى هنا، ممسكة بيد صبي في الثالثة من العمر. فتحت حقيبتها، سحبت منها مسجّلة محمولة وجلست خارج خيمتي. أعرف أنّ بعض سكان المدينة يرشدون إليّ في العادة الأجانب الذين يودّون تجربة بعض الطبخ المحلّي. ولذلك أخبرتها للتو أن الوقت لم يزل مبكراً لتناول العشاء.

قالت: «جئتُ لسبب آخر. ابن شقيقتك، حميد، زبون في المصرف الذي أعمل فيه، وقد أخبرني أنك رجل حكيم».

«حميد شاب أخرق. قد يقول فعلاً إنني رجل حكيم، لكنه لا يتبع نصيحتي مطلقاً. النبي محمد، صلّى الله عليه وسلّم، هو الحكيم.

أشرتُ إلى سيارتها. «لا يجدر بكِ القيادة وحدك في مكان لا تعرفينه، ولا يجدر بك المجيء إلى هنا من دون مرشد».

بدل أن تجيبني، أدارت مسجّلتها المحمولة. ثم، كل ما رأيته هو المرأة الشابة ترقص على كثبان الرمل وابنها يراقبها باندهاش فَرِح: بدا الصوت وكأنه يملأ الصحراء بأكملها. عندما انتهت، سألتني إن كنتُ قد استمتعت بما رأيتُ.

قلتُ نعم. في ديننا طائفة تتخذ من الرقص طريقة للتقرّب من الله، عزّ وجلّ. [ملاحظة: الصوفيون].

قالت المرأة، التي عرّفت نفسها باسم أثينا: «مُذ كنت طفلة، شعرت بأن عليّ التقرب إلى الله، لكنّ الحياة طالما أبعدتني عنه. الموسيقا هي إحدى الطرق التي اكتشفتها للتقرّب إليه، لكنها لا تكفي. كلما رقصت، أرى نوراً، والنور يطلب إليّ الآن أن أذهب أبعد. لكنني لا أستطيع التعلّم وحدي؛ أحتاج إلى من يعلّمني».

قلت: «كل شيء مفيد، لأنّ الله، الرحيم، قريب دوماً. لتكن حياتك حياة مشرّفة وسيكون ذلك كافياً».

غير أن المرأة بدت غير مقتنعة. قلت لها إنني مشغول، عليّ إعداد العشاء للسيّاح القلائل الذين قد يأتون. قالت إنها ستنتظر لما يلزم من الوقت.

«والولد؟».

«لا تقلق بشأنه».

فيما كنت أقوم بتحضيراتي غير المعتادة، راقبت المرأة وابنها. تخالهما بالعمر نفسه؛ كانا يركضان في الصحراء، يضحكان،

يتراشقان بالرمال، ويتدحرجان على الكثبان. وصل المرشد السياحي مع سائحين ألمان ثلاثة، تناولوا الطعام وطلبوا الجعة، وكان عليّ أن أوضح لهم أنّ ديني يحرّم عليّ الشرب أو تقديم المشروبات الكحولية. دعوت المرأة وابنها للانضمام إلى العشاء معنا. وفي هذا الحضور الأنثوي غير المتوقَّع، غدا أحد الألمان مفعماً بالحيوية. قال إنه يفكّر في شراء أرض، إنه يملك ثروة هائلة مُدَّخرة وهو على ثقة بمستقبل المنطقة.

أجابت: «رائع. أثق بالمنطقة أيضاً».

«سيكون من الجيد تناول العشاء في مكان ما، لكي نتحدّث في إمكانية...».

قالت وهي تناوله بطاقة: «لا، لكن إذا رغبت، يمكنك الاتصال بالمصرف».

عندما رحل السيّاح، جلسنا خارج الخيمة. سرعان ما غفا الطفل في حضنها. أتيتُ بملاءات للجميع. جلسنا ننظر إلى السماء المرصّعة بالنجوم. أخيراً، كسرت الصمت.

«لماذا قال حميد إنكَ رجل حكيم؟».

«ربما لأكون أكثر تصبّراً معه. مضى زمن على محاولتي تعليمه فنّي، لكنه بدا أكثر اهتماماً بحصد المال. لعله الآن مقتنع بأنه أكثر حكمة مني: لديه شقة وقارب، وها أنا ذا، أعيش في وسط الصحراء، أُعدّ الوجبات للسيّاح الذين يأتون بين الحين والحين. هو لا يفهم أنني راضٍ عما أفعله».

«بل يفهم تماماً، ويتحدث عنك دوماً باحترام كبير. ماذا تقصد بـ «فنك»؟».

«راقبتك ترقصين اليوم. أنا أفعل الأمر ذاته، لكنّ الأحرف هي التي ترقص وليس جسمي».

بدت مندهشة.

«إن طريقتي في مقاربة الله، جلّ جلاله، كانت عبر فنّ الخط، والبحث عن المعنى الفاضل لكل كلمة.

كل حرف يستوجب منا أن نستقطر فيه كل الطاقة التي يحويها، كما لو أننا كنا ننقش معناه. عندما تُكتب النصوص المقدّسة، فهي تحمل روح الإنسان الذي شكّل أداة لنشرها عبر العالم. ولا يقتصر ذلك على النصوص المقدسة فقط، بل على كل علامة نخطّها على الورق. لأنّ اليد التي ترسم كل خط، تعكس روح الإنسان الذي يسطّره».

«هلّا علّمتني ما تعرفه؟».

«بداية، لا أخال أن شخصاً بملء الطاقة الذي تملكين، يتمتّع بالصبر لفعل ذلك. وفضلاً عن ذلك هو ليس جزءاً من عالمك، حيث كل شيء مطبوع، من دون، إن سمحت لي القول، أن تفكّري في ما هو منشور».

«أودّ أن أجرّب».

هكذا، وعلى مدى ستة أشهر، كانت هذه المرأة، التي حكمتُ عليها بأنها ملول وحيوية لدرجة تعجز معها عن المكوث بلا حراك ولو لحظة، تزورني كل يوم جمعة. كان ابنها يقبع في إحدى زوايا الخيمة، يمسك بالورقة والريشة، ويكرّس نفسه، هو أيضاً، ليُظهر من خلال رسومه ما حكمت به السموات.

عندما رأيتُ الجهد الهائل الذي تبذله في الجلوس بلا حراك

والحفاظ على وضعية الجلوس السليمة، قلت: «ألا تظنين أن من الأفضل لك القيام بأمر آخر». أجابت: «لا، أحتاج إلى هذا، أحتاج إلى تهدئة روحي، ولم أتعلّم بعدُ كلّ ما يمكنك أن تعلّمني. قال لي نور «الذروة» أن أواظب على ذلك». لم أسألها يوماً ما «الذروة»، على أنني لم أكن مهتماً.

الدرس الأول، والأصعب على الأرجح، كان: «الصبر!». لم تكن الكتابة مجرد التعبير عن الفكر، بل طريقة لعكس معنى كل كلمة. معاً، أخذنا نعمل على نصوص كتبها شاعر عربي، لأنني كنت أشعر بأن القرآن الكريم غير مناسب لشخص نشأ في كنف دين آخر. أمليتُ كل حرف. وبتلك الطريقة أمكنها أن تركّز على ما تفعله، بدلاً من رغبتها في معرفة معنى كل كلمة أو جملة أو سطر.

«مرة، أخبرني أحدهم أن الموسيقا من خَلْق الله، وأن الحركة السريعة كانت ضرورية ليتواصل الناس مع أنفسهم». هذا ما قالته أثينا، عصر يوم من تلك الأيام التي قضيناها معاً. أضافت: «لسنوات، شعرت أن ذلك صحيح، والآن أنا مجبرة على القيام بأصعب الأمور في الدنيا: التمهّل. لمَ الصبر شديد الأهمية؟».

«لأنه يجعلنا يقظين».

«لكن يمكنني الرقص، خاضعة لروحي فقط، ما يُجبرني أن أركّز على شيء أعظم نفسي، ويجعلني في وصال مع الرب، إن كان لي أن أستخدم هذه الكلمة. سبق أن ساعدني الرقص على تغيير الكثير من الأمور في حياتي، بما فيه عملي. أوَليس الروح أهمّ؟».

«بالطبع هي كذلك، لكن إن استطاعت روحك أن تتواصل مع ذهنك، فسوف تتمكّنين بعد من تغيير أمور أكثر».

واصلنا العمل معاً. عرفت أنني، في مرحلة ما، سوف أضطر إلى إطلاعها على أمر قد لا تكون مهيّأة لسماعه. لذلك حاولت استغلال كل دقيقة لتهيئة روحها. شرحتُ أن الخاطرة تسبق الكلمة، والشرارة الإلهية تسبق الخاطرة، وتضعها في مكانها. كل شيء، كل شيء بالمطلق على هذه الأرض له معنى، حتى صغائر الأمور جديرة بأن نأخذها في اعتبارنا.

قالت: «لقد هذّبتُ جسدي بحيث يُظهر كل إحساس في روحي».

«الآن عليك تهذيب أصابعك فقط، بحيث يمكنها أن تظهر كل إحساس في جسدك. هذا سيكثّف قوّته».

«هل أنت معلّم؟».

«ما المعلّم؟ سأخبرك: هو ليس مَن يعلّم أمراً، بل مَن يُلهم تلميذه أو تلميذته لتقديم أفضل ما لديهما لاكتشاف ما سبقت معرفتهما له».

أحسستُ أن أثينا، على الرغم من صباها، قد سبق أن خبرت ذلك. الكتابة تُظهر شخصية الإنسان، واستطعتُ أن أرى أنها تعي بأنها محبوبة، ليس من ابنها فحسب، بل من عائلتها، وربّما من رجل. رأيتُ أيضاً أن بها مواهب غامضة، لكنني حاولت ألّا تكون على دراية بمعرفتي لها، لأن تلك المواهب قد تأتي عليها برؤية الله، كما بهلاكها.

علّمتها تقنيات فن الخط، كما حاولت أن أورّثها فلسفة الخطّاطين.

«إن الريشة التي ترسمين بها هذه الخطوط مجرّد أداة لا إدراك لها. هي تتبع رغبات الشخص الذي يحملها. وهي، بذلك، تشبه إلى حد

بعيد ما نسمّيه «الحياة». الكثير من الناس في هذا العالم يؤدّون دوراً فحسب، غير مدركين بأنّ «يداً خفية» ترشدهم. في هذه اللحظة، بين يديك، في الريشة التي تخطّط كل حرف، تنطوي كلّ نوايا روحك. حاولي فهم أهمية ذلك».

«أنا أفهم، وأرى أن من المهم الحفاظ على درجة من الطلاوة. تقول لي أن أجلس في وضعية محدّدة، أن أُبدي الوقار للمواد التي سأستخدمها، وأن أبدأ بعد فعل ما ذكرته».

تلقائياً، إن هي أظهرت الاحترام للريشة التي كانت تستخدمها، سوف تدرك أنّ عليها أن تصقل السكينة والطلاوة لكي تكتب، والقلب منبع السكينة.

«ليست الطلاوة شيئاً سطحياً، إنها الطريقة التي اكتشفها الناس لتكريم الحياة والعمل. لذلك عندما تشعرين بالانزعاج من وضعية جلوسك، فلا ينبغي لك الظنّ بأنها خاطئة أو مصطنعة: إنها حقيقية وواقعية، تحديداً لأنها صعبة. تلك الوضعية تعني أن كلّاً من الورقة والريشة يشعر بالفخر إزاء الجهد الذي تبذلينه. تكف الورقة عن كونها مسطّحة ولا لون لها، وتلبس عمق الأمور التي تخطّينها عليها. الطلاوة هي الوضعية الصحيحة للكتابة المُثلى. ينطبق الأمر ذاته على الحياة: لدى التخلّص من الكماليات، نكتشف البساطة والعمق.

كلما بسطت وضعية الجلوس واتّزنت، ازدادت جمالاً، مع أنها في البداية، قد تبدو غير مريحة.

أحياناً، كانت تتحدث عن عملها. قالت إنها تستمتع بما تفعله، وإنها تلقّت عرض عمل من أمير نافذ، كان قد ذهب إلى المصرف لمقابلة المدير، الذي كان صديقه (لا يذهب الأمراء إلى المصارف

مطلقاً لسحب المال، لديهم فريق عمل يقوم بذلك عنهم). وفيما كان يتحدّث إلى أثينا، ذكر أنه كان يبحث عمّن يتولّى بيع العقارات، وتساءل إن كانت مهتمة بذلك.

من كان ليهتم بشراء عقار في وسط الصحراء أو في ميناء ناءٍ؟ قررتُ عدم التفوّه بكلمة. والآن، بالنظر إلى الوراء، أنا مسرور لأنني بقيت على صمتي.

ذكرتْ مرة واحدة فقط الرجل الذي أحبّته. مع ذلك، كلما تزامن وجودها بضيافتي مع وصول سيّاح، كان أحد الرجال يشرع في مغازلتها. تلقائيّاً كانت أثينا تتجاهلهم. لكن، ذات يوم، ألمح رجل أنه يعرف حبيبها. علا وجهها الشحوب ورمت بنظرة على ابنها الذي كان لحسن الحظ لا ينصت إلى الحديث.

«كيف عرفته؟».

قال الرجل: «أنا أمازحك. أردت أن أعرف فقط إن كنت غير مرتبطة».

لم تقل شيئاً. لكنني فهمتُ من ذلك الحوار أن الرجل الذي في حياتها لم يكن والد ابنها.

ذات يوم، وصلتْ أبكر من المعتاد. قالت إنها تركت وظيفتها في المصرف، وأصبحت تعمل في بيع العقارات، وسيكون عندها وقت فراغ أكبر. شرحت أنني أعجز عن البدء بالتعليم أبكر من الوقت المعتاد، لما لدي من أمور أنجزها.

«يمكنني الجمع بين أمرين: الحركة والسكون؛ الفرح والتركيز».

توجّهت نحو سيارتها وأخذت مسجلتها المحمولة. منذ ذلك الحين،

راحت أثينا ترقص في الصحراء قبل بدء الصف، والصبي الصغير يحوم حولها، ضاحكاً. مع جلوسها لممارسة فن الخط، كانت يدها أثبت من المعتاد.

شرحت: «ثمة نوعان من الحروف. الأول دقيق لكنه يفتقر إلى الروح. في هذه الحال، وعلى الرغم من أنّ الخطاط يكون قد أجاد التقنية، فإنه يكون قد ركّز على الحِرفة فقط، وهذا ما يعيق تطوّرها، ويجعلها تكرّر نفسها، وهو بالمقابل لا يكون قد تطوّر. وذات يوم يكفّ عن ممارسة الكتابة، لشعوره بأنها مجرد أمر رتيب.

النوع الثاني، يتمّ بآلية كبرى، وبروح أيضاً. ولحصول ذلك، يجب أن تتناغم نيّة الكاتب مع الكلمة. في هذه الحال، تكفّ الأبيات الأتعس عن التحافها المأساوية، وتتحوّل إلى وقائع بسيطة تُصادَف على الدرب».

سأل الصبي بلغة عربية متينة: «ماذا تفعل برسومك؟». هو على الأرجح لا يفهم حديثنا، لكنه كان متحمّساً للمشاركة في عمل والدته.

«أبيعها».

«هل يمكنني بيع رسومي؟».

«عليك بيع رسومك. ذات يوم، ستصبح ثرياً بهذه الطريقة وتتمكّن من مساعدة والدتك».

سَرّه تعليقي وعاود ما كان يفعله، يلوّن فراشة زاهية.

سألت أثينا: «وما عليّ فعله بنصوصي؟».

«تعرفين مدى الجهد الذي استغرقك للجلوس في الوضعية

الصحيحة، لتهدئة روحك، للحفاظ على نيّاتك صافية، واحترام كل حرف من كل كلمة. في هذه الأثناء، ثابري على التمرُّن. بعد وقت مطوّل من الممارسة، نكفّ عن التفكير في كل الحركات اللازمة التي علينا اتخاذها، فهي تصبح جزءاً من وجودنا. مع ذلك، قبل بلوغ هذه المرحلة، عليك بمزيد من التمرُّن».

انظري إلى حدّاد محترف. ترى العين العادية أنه يكرّر ضربات المطرقة ذاتها فحسب. لكن أي متمرّس في فن الخط يعلم أنه في كل مرة يرفع فيها الحدّاد المطرقة ويُخفضها، تكون حدّة الطرقة مختلفة. تقوم اليد بالحركة نفسها، لكن مع اقترابها من المعدن، تفهم أنّ عليها ملامسته بقوة أكبر أو أصغر. ينطبق الأمر ذاته على التكرار: قد يبدو هو هو، لكنه مختلف على الدوام. ستحين اللحظة التي تكفّين فيها عن التفكير في ما تقومين به. إذ تصبحين الحرف، الحبر، الورقة، الكلمة».

حلّت تلك اللحظة بعد سنة من الزمن تقريباً. حينذاك، كانت أثينا قد أصبحت معروفة في دبي وكانت توصي العملاء بتناول العشاء في خيمتي. ومن خلالهم، علمتُ أنّ مهنتها على ما يرام: كانت تبيع أراضيَ صحراوية! ذات ليلة، حضر الأمير شخصياً، تسبقه حاشية عظيمة. انتابني الهلع؛ لم أكن مهيّئاً لذلك، لكنه طمأنني وشكرني على ما كنت أفعله لموظّفيه.

«هي شخص ممتاز وتعزو خصالها إلى ما تعلّمته منكَ. أفكّر في منحها حصة في الشركة. قد تكون خير فكرة أن أوفد باقي فريق عملي في المبيعات لتعلّم فن الخط، خصوصاً وأن أثينا على وشك أن تأخذ إجازة لمدة شهر».

أجبت: «لن يجدي ذلك. فنّ الخطّ مجرد طريقة من الطرق التي

يضعها الله، سبحانه وتعالى، أمامنا. هي تعلّم المرء الموضوعية والصبر، الاحترام والطلاوة، لكن يمكننا تعلّم ذلك كلّه...».

«... عبر الرقص»، قالتها أثينا التي كانت تقف على مقربة.

أضفتُ: «أو عبر بيع العقارات».

عقب رحيلهم جميعاً، وفيما كان الصبي الصغير قابعاً في إحدى زوايا الخيمة، وعيناه مثقلتان بالنعاس، أحضرتُ مواد فن الخط وطلبت إليها أن تكتب شيئاً. عند منتصف كتابتها الكلمة، استللتُ الريشة من يدها. كان الوقت قد حان لقول ما يجب قوله. اقترحتُ الذهاب في نزهة عبر الصحراء.

قلتُ: «تعلّمتِ ما كان عليك تعلّمه. إن فن الخط الذي تزاولينه يتّسم أكثر فأكثر بلمسة من التفرّد والعفوية. لم يعد مجرد تكرار للجمال، بل غدا حركة ذاتية إبداعية. لقد فهمتِ ما يفهمه جميع الرسامين العظماء: لكي تنسى القواعد عليك معرفتها واحترامها.

لستِ في حاجة بعد الآن إلى الأدوات التي ساعدتك على التعلّم. لستِ في حاجة بعد الآن إلى الورق أو الحبر أو الريشة، لأن الدرب أهم مما دفعك إلى الانطلاق عليه. ذات مرة، أخبرتِني أن الشخص الذي علّمك الرقص درج على تخيّل الموسيقا تُعزف في باله، ومع ذلك، كان قادراً على تكرار الإيقاعات الضرورية».

«كان كذلك».

«لو رُصفت الكلمات جميعاً، لن يكون لها معنى، أو على الأقلّ، سيكون من الصعب جداً فك رموزها. لا بُدّ من الفراغات بينها».

أومأتْ بالإيجاب.

«وعلى الرغم من أنكِ أتقنت الكلمات، لم تتقني بعد الفراغات فيما بينها. عندما تركّزين، تكون يدك على أفضل حال، لكن عندما تنتقل من كلمة إلى أخرى، تضيع».

«كيف تعرف ذلك؟».

«هل أنا على صواب؟».

«حتماً. قبل أنْ أركّز على الكلمة التالية، لجزء من الثانية، أفقد نفسي. وتسيطر عليّ أمور لا أريد التفكير فيها».

«وأنت تدركين تماماً ماهية تلك الأمور».

كانت أثينا تدركها، لكنها لم تقل شيئاً إلّا مع رجوعنا إلى الخيمة، وتمكّنها من احتضان ابنها النائم. كان الدمع ملء عينيها، على الرغم من محاولتها جاهدة ضبط نفسها.

«قال الأمير إنك ستأخذين إجازة».

فتحتُ باب السيارة، وضعت مفتاح المحرّك وأدارته. للحظات، كانت ضجة المحرّك تكدّر سكون الصحراء.

قالت أخيراً: «أعلم ما تقصد. عندما أكتب، عندما أرقص، يد القدير التي خلقت كل شيء ترشدني. عندما أنظر إلى فايورل في غفوته، أحسّه يعرف أنه ثمرة حبي لوالده، على الرغم من أنني لم أر والده منذ أكثر من سنة. لكنني...».

سكتت مجدداً. كان سكوتها يشكّل الفراغ بين الكلمات.

«لكنني لا أعرف اليد التي كانت أوّل من هزّت مهدي. اليد التي خطّتني في كتاب الدنيا».

أومأتُ برأسي.

«أتظنّ أن ذلك يهمّ؟».

«ليس بالضرورة. لكن في حالتك، لن يتحسّن فن الخط لديك، ما لم تلمسي تلك اليد».

«لا جدوى من قلق البحث عن شخص لم يزعج نفسه يوماً في حبّي».

أغلقت باب السيارة، ابتسمت ورحلت. على الرغم من أن تلك الكلمات كان آخرها لي، عرفتُ ما ستكون خطوتها التالية.

سميرة ر. خليل، والدة أثينا

بدا نجاحها المهني وقدرتها على جني المال وفرحها في إيجاد حب جديد ومسرّتها لدى اللعب مع ابنها، حفيدي، بدا كله وكأنه يأتي في المرتبة الثانية. انتابني الخوف ببساطة عندما أخبرتني شيرين أنها قرّرت البحث عن والدتها الحقيقية.

بالطبع كان عزائي في البداية التفكير في أنّ مركز التبني لم يعد قائماً، وأن الأوراق ربما فُقدت، وأن المسؤولين الذين كانت لتلاقيهم، لن يكونوا متساهلين، وأن انهيار الحكومة الرومانية سيجعل من سفرها مستحيلاً، وأن البطن الذي حملها سيكون قد انتفى منذ زمن.

لكنّ ذلك كان عزاءً مؤقتاً: كانت ابنتي قادرة على كل شيء، وسوف تتمكّن من تخطّي كل الحواجز التي تبدو مستحيلة.

حتى ذلك الحين، كان الموضوع محرّماً ضمن العائلة. عرفت شيرين أنها طفلتنا بالتبنّي فقط. ذلك أن الطبيب النفسي في

بيروت كان قد نصحني بعدم إطلاعها على الأمر إلى أن تصبح كبيرة كفاية لفهم ما حصل. لكنها لم تُبد يوماً أي رغبة في معرفة أصلها. كانت بيروت موطنها، يوم كانت لا تزال موطننا.

كان ابن صديق للعائلة، وهو ولد بالتبنّي، قد انتحر وهو في السادسة عشرة. لذلك لم يعد يخطر في بالنا حتى إنجاب أطفال من لحمنا ودمنا. وفعلنا كل ما في وسعنا لجعلها تشعر أنها السبب الأوحد لأفراحنا وأحزاننا، أنها حبّنا وآمالنا. مع ذلك، فإن أياً من ذلك لم يكن ليعنيها. يا إلهي كم يمكن للأولاد أن يكونوا جاحدين!

من خلال معرفتي لابنتي، أدركتُ أن لا جدوى من مناقشة الأمر معها. لم يغمض جفن لي ولا لزوجي على مدى أسبوع. وراح السؤال نفسه ينهال علينا كل صباح وكل مساء: «أين بالتحديد ولدتُ في رومانيا؟». ولزيادة الأمر سوءاً، لم ينقطع فايورل عن البكاء. كما لو أنه فهم ما كان يحدث.

قرّرتُ استشارة طبيب نفساني مجدداً. سألتُ كيف لامرأة شابة لديها كل ما في الحياة أن تكون غير راضية إلى هذه الدرجة على الدوام.

قال: «لكن ذلك لا ينفي رغبتنا في معرفة أصولنا. على المستوى الفلسفي، هذا السؤال أساسي لكل البشر. في حالة ابنتك، أعتقد أن من المنطقي تماماً أنْ تنطلق في البحث عن جذورها. ألم يسترعك الفضول لمعرفة ذلك؟».

«لا، لم يسترعني. على العكس، أظن أنّ من الخطير البحث عن شخص تبرّأ مني ونبذني عندما كنت بلا حول ولا قوة للبقاء حية بمفردي».

لكنْ شدّد الطبيب:

«بدلاً من مواجهتها، حاولي مساعدتها. فعندما ترى أن مسعاها لم يعد يمثّل مشكلة لك، قد تعدل عنه. لا بُدّ أن السنة التي قضتها بعيدة عن أصدقائها قد خلّفت حاجة عاطفية تسعى الآن للتعويض عنها باستفزازك على هذا الشكل. إنها تريد ببساطة أن تكون واثقة بأنها محبوبة».

كان من الأفضل لو ذهبت شيرين بنفسها لرؤية الطبيب النفساني، لكانت فهمت أسباب سلوكها.

«أظهري ثقة بنفسك، ولا تفهمي الأمر على أنه خطر يتهدّدك. وإذا انطلقتْ في نهاية المطاف فعلاً وراء هدفها، قدّمي لها المعلومات التي تلزمها. بحسب معرفتي، لطالما كانت طفلة صعبة المراس. لعلها ستخرج من هذا السعي شخصاً أقوى».

سألت الطبيب إن كان لديه أولاد. أجاب بالنفي. وعرفت حينها أنه لم يكن الشخص المناسب لاجتراح النصيحة.

تلك الليلة، فيما كنا جالسين أمام التلفاز، عادت شيرين تتحدّث بالموضوع نفسه:

«ماذا تشاهدان؟».

«الأخبار».

«لماذا؟».

أجاب زوجي: «لمعرفة ما يجري في لبنان».

استشففتُ الفخّ، لكنّ الأوان كان قد فات. وإذا بشيرين تنقضّ علينا من فورها عبر هذه الفتحة.

«أتريان؟ يملؤكما الفضول لمعرفة ما يجري في البلد الذي ولدتما فيه. أنتما مستقرّان في إنجلترا، لديكما أصدقاء، يجني أبي الكثير

من المال، أنتما في أمان. مع ذلك تبتاعان الصحف اللبنانية. تقلّبان القنوات، واحدة واحدة، إلى أن تجدان فُتاتاً من الأخبار له صلة ببيروت. تتخيّلان المستقبل وكأنه ماضٍ، غير مدركين أن الحرب لن تنتهي أبداً. ما أقصده أنكما إذا انقطعتما عن جذوركما، تشعران وكأنكما فقدتما الصلة بالعالم أجمع. هل يصعب عليكما إذاً أن تفهما ما أشعر به؟».

«أنتِ ابنتنا».

«وأنا فخر بذلك. وسأكون ابنتكما دوماً. أرجوكما ألّا تشكّا في حبي لكما أو في امتناني لكل ما فعلتماه من أجلي. كل ما أطلبه هو أن أُعطى الفرصة لزيارة المكان الذي وُلدت فيه وربما سؤال والدتي الحقيقية عن سبب هجرها لي، أو ربما، عندما أنظر إلى عينيها، لن أنبس بكلمة. إذا لم أحاول على الأقل فسوف أشعر أنني جبانة، ولن أفهم الفراغات أبداً».

«الفراغات؟».

«تعلّمتُ فنّ الخطّ عندما كنت في دبي. أرقص متى تسنّى لي، لكن لا وجود للموسيقا بدون فواصل، ولا وجود للجمل من دون الفراغات. عندما أقوم بشيء ما، أشعر بأنني في كامل قواي. لكن ليس في وسع أحد أن يظل نشيطاً طوال اليوم. حالما أتوقف، أشعر بأن حلقة ما مفقودة. غالباً ما قلتما لي إنني شخص ملول بطبعه، لكنني لم أختر أن أكون كذلك. أود الجلوس بسكون هنا، أشاهد التلفاز، لكنني لا أستطيع ذلك. ذهني لن يتوقّف. أحياناً، أشعر بأني أُجَنّ. أحتاج دوماً إلى الرقص، الكتابة، بيع العقارات، الاعتناء بفايورل، أو قراءة ما تقع عليه يداي. أتعتقدان أنّ هذا طبيعي؟».

قال زوجي: «لعله مزاجك فحسب».

انتهى الحديث عند ذاك الحدّ، كما طالما انتهى، ببكاء فايورل، وانسحاب شيرين بصمت. واقتناعي بأنّ الاولاد لا يقدّرون ما يفعله الأهل من أجلهم. مع ذلك، خلال تناولنا الفطور في اليوم التالي، كان زوجي هو الذي فاتحها في الموضوع مجدداً.

«منذ فترة، عندما كنتُ في الشرق الأوسط، درستُ احتمال العودة إلى الوطن، إلى بيروت. ذهبتُ إلى الشارع حيث كنا نقطن. لم يعد المنزل قائماً. لكن، على الرغم من الاحتلال الأجنبي والغارات المتواصلة، ومن أن البلاد في حالة إعمار بطيء، شعرتُ بحسّ من الجذل. لعلها كانت اللحظة المؤاتية للبدء بكل شيء من جديد. وكانت هذه العبارة بالذات «البدء بكل شيء من جديد»، هي ما أعادني إلى الواقع. كان الزمن الذي أمكن لي أن أتنعّم بذلك قد ولّى. اليوم، أريد فقط مواصلة ما أفعله، ولا أحتاج إلى القيام بمغامرات جديدة.

فتّشتُ عن الناس الذين كنت أستمتع بتناول الشراب معهم بعد العمل. رحل معظمهم. ومن بقوا، يتذمّرون على الدوام من شعور ثابت بعدم الأمان. مررتُ ببعض الأماكن التي كنت أتردّد عليها قديماً، وشعرت بالغربة، كما لو أنّ كل شيء بَطُل عن كونه ينتمي إليّ. وأسوأ ما في الأمر أنّ حلمي في العودة يوماً ما، أخذ يتلاشى تدريجاً عندما وجدت نفسي عائداً إلى المدينة التي وُلدت فيها. مع هذا، كان لا بدّ من هذه السفرة. أغنيات الاغتراب لا تزال في قلبي. لكنني أعلم الآن أنني لن أعيش مجدداً في لبنان. بطريقة ما، ساعدتني الأيام التي قضيتها في بيروت على فهم المكان الذي أعيش فيه الآن بشكل أفضل، وعلى تقدير كل ثانية أحياها في لندن».

«ماذا تحاول قوله لي يا أبي».

«أنتِ على حق. لعل من الأفضل فعلاً فهم تلك الفراغات، يمكننا رعاية فايورل في غيابك».

دخل غرفة النوم وعاد حاملاً الملف الأصفر الذي يتضمَّن أوراق التبنّي. قدّمها إلى شيرين، قبّلها، وقال إن الوقت قد حان ليذهب إلى العمل.

هيرون راين، صحافي

ذات صباح من العام ١٩٩٠، كان كلّ ما أمكنني رؤيته من نافذة الطابق السادس للفندق، هو مبنى الحكومة الرئيسي. كان قد تمّ تعليق علم على السطح للتو، مُحدِّداً البقعة بذاتها من حيث فرّ الديكتاتور المصاب بجنون العظمة، في طائرة مروحية، ليلاقي حتفه بعد بضع ساعات على أيدي أولئك الذين اضطهدهم على مدى اثنتين وعشرين سنة.

كان تشاوتشيسكو، في مخطّطه لخلق عاصمة منافسة لواشنطن، قد أَمَرَ بتسوية كل المنازل القديمة بالأرض. فعلاً، كان لبوخارست الشرف المريب في أن توصم بالمدينة التي عانت أسوأ دمار خارج نطاق حرب أو كارثة طبيعية.

يوم وصولي، حاولت التنزّه سيراً على الأقدام برفقة ترجماني. لكن كلّ ما رأيته في الشوارع كان الفقر والحيرة والإحساس بأن المستقبل والماضي والحاضر في جعبة العدم. كان الناس يعيشون في حالة من النسيان، لا فكرة لديهم عمّا كن يحدث في بلدهم أو في باقي العالم. عندما رجعتُ إلى البلد بعد عشر سنوات ورأيته

ينبعث من رماده، أدركتُ قدرة البشر على تخطّي أي صعوبات، وأنّ شعب رومانيا كان مثالاً عظيماً على ذلك.

لكن، في ذاك الصباح الكئيب، وأنا في الردهة الكئيبة لفندق مثير للغمّ، كان كل ما يهمني تمكُّن ترجماني من الحصول على سيارة، وعلى ما يكفي من الوقود ليكون باستطاعتي إجراء بعض الأبحاث النهائية للوثائقي الذي كنت أعدّه لقناة الـ BBC. تأخّر ترجماني في العودة، وأخذت الشكوك تتجاذبني. هل أعود إلى إنجلترا وقد أخفقت في تحقيق هدفي؟ كنت قد وظّفت مبلغاً كبيراً من المال في إبرام العقود مع مؤرّخين، في كتابة النص، في تصوير المقابلات. لكن قبل أن تعمل قناة الـ BBC على توقيع العقد النهائي، أصرّت أن أزور قصر دراكولا لكي أرى ما حاله. كانت الرحلة أكثر كلفة مما توقّعت.

حاولتُ مهاتفة حبيبتي، لكن قيل لي إنّ علي الانتظار حوالى الساعة لأخذ الخط. كان ترجماني سيصل بالسيارة في أي لحظة، ولم يكن لديّ وقت لأهدره. لذلك قرّرت عدم المجازفة في الانتظار.

سألتُ في الجوار أين لي شراء صحيفة إنجليزية، لكن لم يكن من صحف لأشتريها. وبهدف كبح قلقي، أخذتُ أنظر، بما أمكنني من حذر، إلى الناس من حولي يشربون الشاي، وقد نسوا على الأرجح كل ما وقع من أحداث في السنة التي سبقت، تضمّنت انتفاضات شعبية، جريمة قتل المدنيين الشنيعة في تيميشوارا، تبادل إطلاق النار في الشوارع بين الناس والمخابرات السرية المروّعة، التي استماتت في التشبّث بالسلطة المتفلّتة سريعاً من قبضتها. لاحظتُ مجموعة من ثلاثة أميركيين؛ وامرأة بمظهر مشوّق، منكبّة على قراءة مجلة عن الموضة؛ ورجل يجلس إلى طاولة ويتكلّم بنبرة عالية بلغة لم أستطع تحديدها.

كنتُ على وشك النهوض مرة أخرى والتوجّه إلى المدخل لأعرف إن كان ترجماني قد لاح في الأفق، عندما دَخَلَتْ. لا بُدّ أنها كانت تناهز الثانية والعشرين من العمر. جلستْ، طلبتْ فطوراً، ولاحظتُ أنها تتكلّم الإنجليزية. لم يبد أن أياً من الرجال الحاضرين لاحظوا وصولها، غير أنّ المرأة قاطعت مطالعتها المجلة.

بسبب قلقي ربما أو بسبب المكان، الذي كان بدأ يُشعرني بالكآبة، استجمعتُ شجاعتي، ونهضت متوجّهاً نحوها.

«عذراً، أنا لا أفعل هذا في العادة. لطالما فكّرتُ أنّ الفطور هو أكثر وجبات اليوم خصوصية».

ابتسمتْ، عرّفتني باسمها، وشعرتُ على الفور بضرورة الاحتراس. كان الأمر سهلاً جداً، قد تكون مومساً. غير أن لغتها الإنجليزية كانت مُتْقَنة وكانت شديدة الاحتشام في ملبسها. قررتُ عدم طرح أي أسئلة، ورحتُ أتحدث مطوّلاً عن نفسي، ولاحظتُ أثناء ذلك أن المرأة على الطاولة المجاورة لنا قد أخفضت مجلتها وكانت تُنصت إلى حديثنا.

«أنا منتج أعمل بدوام حرّ في قناة الـ BBC بلندن. وحاليّاً أفتش عن وسيلة لبلوغ ترانسلفانيا...».

لاحظتُ بريق عينيها يتبدّل.

«... لكي أتمكّن من إنهاء الوثائقي الذي أُعدّه حول خرافة مصاص الدماء».

انتظرتُ. لطالما استرعى هذا الموضوع فضول الناس، لكنها فقدتْ اهتمامها عندما ذكرتُ سبب زيارتي.

قالت: «ما عليكَ سوى ركوب الحافلة. مع أنني أشكّ في أنك ستعثر على ضالّتك. إن كنت تريد معرفة المزيد عن دراكولا، اقرأ الكتاب. لم يزر مؤلّفه رومانيا قط».

«ماذا عنك، أتعرفين ترانسلفانيا؟».

«لا أدري».

لم يكن ذلك جواباً، ربما لأنّ الإنجليزية، مع أنها كانت تنطقها بلهجة بريطانية، لم تكن لغتها الأم.

تابعتْ: «لكني ذاهبة إلى هناك أيضاً. بالحافلة، طبعاً».

من خلال ثيابها، عرفتُ أنها لم تكن مغامِرة تطوف العالم لتزور أماكن غريبة. عاودتني فكرة أنها قد تكون مومساً، لعلها كانت تحاول التقرّب مني.

«هل أنتِ في حاجة إلى من يوصلك؟».

«لقد ابتعتُ تذكرتي».

كنت مصرّاً، معتقداً أن رفضها الأولي مجرد جزء من اللعبة. رفضتْ ثانية، قائلة إن عليها القيام بتلك السفرة منفردة. سألتها عن مسقط رأسها، لكنّ وقتاً مطوّلاً مضى قبل أن تجيب.

«كما قلتُ، ترانسلفانيا».

«ليس هذا ما قلتِه بالضبط. لكن، إن كان الأمر كذلك، فهلّا ساعدتني على إيجاد مواقع للفيلم و...»، كان عقلي الباطن يقول لي أن أستكشف الميدان قليلاً بعد، فمع أن احتمال كونها مومساً ظلّ يجول خاطري، فإنني كنت أرغب بشدة، أن ترافقني. رفضت عرضي بلباقة. آنذاك شاركتنا المرأة الأخرى الحديث، وكأنها تحاول حماية المرأة التي تصغرها سناً. عندئذ شعرتُ أنني كنت متطفّلاً وقررت الرحيل.

وصل ترجماني بُعَيد ذلك لاهثاً، قائلاً إنه قام بكل التدابير اللازمة. لكن ذلك (كما كان متوقعاً) كلّف الكثير من المال. صعدتُ إلى غرفتي، أخذتُ حقيبتي التي كنت قد حزمتها مسبقاً. ركبت خردة السيارة الروسية، قُدت على الطرقات الطويلة، شبه الخالية. وأدركت أنّ بحوزتي آلة التصوير الصغيرة، مقتنياتي، مشاعر قلقي، بضع عبوات مياه معدنية، شطائر، وصورة شخص أَبَتْ بعنادٍ أن تغادر ذهني.

في الأيام التي تلت، وفيما كنت أحاول للمة نص عن صورة دراكولا التاريخية، وإجراء مقابلات مع أشخاص محليين ومفكّرين حول موضوع خرافة مصّاص الدماء (سُدىً كما توقعت)، أدركتُ تدريجاً أنني كففت عن مجرد محاولة إعداد وثائقي لقناة تلفزيونية بريطانية. أردتُ أن أرى تلك المرأة الشابة المتعجرفة، غير الودودة، المكتفية بذاتها، التي كنتُ قد رأيتها في مقهى بأحد فنادق بوخارست، والتي كان ممكناً أن تكون حينها، على مقربة. لم أعرف عنها شيئاً إلا اسمها، لكنها كمصّاص الدماء في الخرافة، بدت وكأنها تستنزف كل طاقتي.

في عالمي، وفي عالم الذين كنت أعيش معهم، كان ذلك سخيفاً، أحمق، غير مقبول.

ديدر أونيل، تُعرف بـــ «إيدّا»

«لا أعرف ماذا جئت تفعل هنا. لكن مهما يكن، فلا بُدّ لك من المثابرة حتى النهاية».

نظرتْ إليّ مدهوشة.

«مَن أنتِ؟».

أخذتُ أتكلّم عن المجلة التي كنت أقرؤها. وبعد قليل، قرّر الرجل الذي كان يجلس معها النهوض والرحيل. أمكنني عندئذ أن أخبرها من أكون.

إذا كُنتِ تقصدين ما أفعله لكسب العيش، درستُ الطب منذ سنوات. لكنني أعتقد أنه ليس الجواب الذي تريدين سماعه». سكتتْ.

«مع ذلك، ستكون خطوتك التالية محاولة أن تعرفي، عبر استجواب ذكي، ما أفعله هنا بالضبط، في بلدٍ ينتفض لتوّه من سنوات القمع الرهيب».

«سأكون صريحة إذاً. لمَ جئت إلى هنا؟».

أمكنني القول: جئت لحضور جنازة معلّمي لشعوري بأنه جدير بالثناء. لكن كان من الطيش مقاربة الموضوع. قد لا تكون أبدت اهتماماً بمصّاصي الدماء، لكن كان من المؤكد أن تستحوذ كلمة «معلّم» على انتباهها. بما أن قَسَمي يمنعني من الكذب، فقد أجبتها بنصف الحقيقة.

«أردتُ أن أرى أين عاش كاتب اسمه ميرشيا إلياد. ربما لم يسبق لكِ أن سمعتِ به. لكن إلياد، الذي قضى معظم حياته في فرنسا، كان مرجعاً عالمياً في الخرافات».

نظرت المرأة الشابة إلى ساعتها، مدّعية اللامبالاة.

تابعتُ:

«ولست أتكلّم عن مصّاصي الدماء، أنا أتكلّم عن الناس الذين، فلنقل، يتبعون الدرب ذاتها التي تتّبعيها».

كانت على وشك أن تتناول رشفة قهوة، لكنها توقّفت:

«هل أنتِ من الحكومة أم أنك شخص كلّفه والدي اللحاق بي؟».

جاء حينها دوري لأقع في التردُّد حول متابعة الحديث. لم يكن جوابها عدائياً. لكن أمكن لي رؤية هالتها، قلقها. كانت تشبهني إلى حدّ بعيد عندما كنت في سنّها: مليئة بالجروح من الداخل والخارج، مما دفعني إلى علاج الناس جسدياً، ومساعدتهم على إيجاد دربهم روحانياً. أردت أن أقول: جراحك ستساعدك يا عزيزتي، وأن ألتقط مجلّتي وأرحل. لو فعلت ذلك، لكان درب أثينا مختلفاً تماماً، ولكانت لا تزال حيّة تعيش برفقة الرجل الذي أحبّته. لكانت ربّت ابنها وشاهدته وهو يكبر، يتزوج ويرزق بالكثير من الأولاد. كانت تملك كل مقوّمات النجاح والسعادة. كانت قد عانت كفاية لتتمكّن من تسخير ندوبها لصالحها. وما هي إلا مسألة وقت لتتمكّن من السيطرة على قلقها ومتابعة حياتها.

إذاً، ما الذي أبقاني هناك، أحاول مواصلة الحديث؟ الجواب بسيط: الفضول. لم أستطع فهم ما كان ذاك النور الساطع يفعل في ردهة فندق بارد.

تابعتُ:

«وضع ميرشيا إلياد كتباً بعناوين غريبة: «الإيمان بالقوى الخفية»، «السحر»، «التيارات الثقافية» مثلاً. أو «المقدّس والمدّنس». معلّمي (نطقتُ هذه الكلمة وكأنها زلّة لسان. لكنها إما لم تكن مصغية وإما أنها تظاهرت بذلك) أحبّ مؤلّفات ذلك الكاتب. وثمة ما يقول لي إنه موضوع يثير اهتمامك أيضاً».

نظرت إلى ساعتها مجدداً.

قالت:

«أنا ذاهبة إلى سيبيو. تغادر الحافلة بعد ساعة. أنا أبحث عن

والدتي، إن كان هذا ما تريدين معرفته. أعمل سمسارة في بيع العقارات في الشرق الأوسط، لي ابن يقارب الرابعة من العمر، أنا مطلّقة، ووالداي يعيشان في لندن. هما والداي بالتبنّي. طبعاً، لأنني تُركت عندما كنت طفلة».

من الواضح أنها كانت في مرحلة متقدّمة من النباهة، وكانت مثيلتي في ذلك، مع أنها لم تكن على دراية بذلك بعد.

«نعم، هذا ما أردت معرفته».

«أكان عليك اجتياز تلك المسافة كلّها لمجرد إجراء أبحاث عن كاتب؟ أوَليس من مكتبات حيث تعيشين؟».

«الواقع أنّ إلياد عاش في رومانيا وحدها حتى تخرّج من الجامعة. لذلك، إن كنت حقاً أودّ التعمق في معرفة أعماله، حريّ بي أن أذهب إلى باريس أو لندن أو شيكاغو، حيث توفي. ما أفعله ليس البحث بالمعنى العادي للكلمة: أردت أن أرى الأرض التي مشى عليها. أردت أن أشعر بما ألهمه ليكتب عن أمور تؤثّر في حياتي وحياة أشخاص أكنّ لهم الاحترام».

«هل كتب عن الطبّ أيضاً؟».

كان من الأفضل عدم الإجابة عن ذلك. وجدت أنها اصطفَت كلمة «معلّم»، وافترضت أنّ لذلك علاقة بمهنتي.

نهضت المرأة الشابة. علمتُ أنها كانت تعرف عمّا أتكلّم. أمكنني رؤية نورها يسطع بشدّة أكبر. أنا أبلغ هذه الحالة من النباهة عندما أكون قريبة من شخص يشبهني إلى حدّ بعيد.

سألتُ: «ألديك مانع من مرافقتي إلى محطة الحافلات؟».

على الإطلاق. كانت طائرتي ستقلع تلك الليلة في وقت متأخر،

وامتدّ أمامي يوم مملّ، طويل، لا ينتهي. في الحد الأدنى، كان عندي مَنْ أتحدّث إليه لبعض الوقت.

صعدتُ إلى أعلى، وعادت وهي تحمل حقائبها في يدها، وسلسلة من الأسئلة في بالها. بدأتُ استجوابها فور مغادرتنا الفندق.

قالت: «قد لا أراك ثانية أبداً، لكنني أشعر أن لدينا قاسماً مشتركاً ما. بما أنها قد تكون فرصتنا الأخيرة في هذا التجسد للتحدُّث، فهلّا أجبتني بصراحة؟».

أومأتُ لها.

«بالاستناد إلى ما قرأتِه في تلك الكتب كلّها، أتؤمنين أننا نستطيع من خلال الرقص، دخول حالة تشبه الانخطاف تساعدنا على رؤية نور؟ وأنّ النور لا يقول لنا شيئاً باستثناء إن كنا سعداء أو تعساء؟».

سؤال وجيه!

«طبعاً، وهذا لا يحدث عبر الرقص فقط، بل من خلال أي شيء يسمح لنا بتركيز الانتباه وفصل الجسد عن النفس، مثل اليوغا أو الصلاة أو التأمّل البوذي».

«أو فنّ الخطّ».

«لم يخطر لي ذلك، لكنه محتمل. في لحظات مماثلة، عندما يُعتق الجسد النفس، ترتقي النفس إلى السموات أو تنحدر إلى الحضيض. وهذا رهن بحالة المرء النفسية. في الحالتين كلتيهما، هي تتعلّم ما تحتاج إلى تعلّمه: التدمير أو الشفاء. لكنني لم أعد مهتمة بالدروب الفردية، في تقليدي... أحتاج إلى مساعدة... أتصغين إليّ؟».

«لا».

كانت قد توقّفت في وسط الشارع، وأخذت تحدّق إلى فتاة صغيرة بدت وكأنها تُركت عمداً. أدخلت يدها في حقيبتها.

قلت: «لا تفعلي هذا. انظري إلى المرأة في الجهة المقابلة من الشارع بعينيها القاسيتين. هي من وضعت الفتاة هنا لمجرد أن...».

تناولتُ بضع قطع من النقود. أمسكتُ بيدها.

«فلنشتر لها ما تأكله. سيكون ذلك أكثر نفعاً».

طلبتُ إلى الفتاة الصغيرة مرافقتنا إلى حانة. واشتريت لها شطيرة. ابتسمت وشكرتني. بدت عينا المرأة في الجهة المقابلة من الشارع تبرق كراهية. لكن، للمرة الأولى، رمقتني العينان الرماديتان بنظرة احترام، عينا المرأة الشابة التي كانت تمشي بجانبي.

سألتُ: «ماذا كنت تقولين؟».

«لا يهم. أتعلمين ما حصل لك منذ دقائق قليلة؟ دخلتِ في الانخطاف ذاته الذي يحفّزه رقصك».

«لا، أنت على خطأ».

«أنا على حق. أمرٌ ما لامس عقلك الباطن. ربما رأيتِ نفسك على الحال التي كنت ستَخبِرينها لم لو يتم تبنّيك، تتسوّلين في الشارع. في تلك اللحظة، توقّف ذهنك عن ردّ الفعل. نفسك تركتك وانحطّت إلى الحضيض للقاء الشياطين من ماضيك. بسبب ذلك، لم تلاحظي المرأة في الجهة المقابلة من الشارع. كنتِ في انخطافٍ، انخطاف مبعثر متّسم بالفوضى كان يقودك إلى فعل شيء فيه الخير نظرياً، لكنه، بلا فائدة، تطبيقياً. كما لو أنكِ...».

«... في الفراغات بين الحروف. في اللحظة التي تنتهي فيها نوتة موسيقية قبل بدء التالية».

«بالضبط. ويمكن لمثل هذا الانخطاف أن يكون خطيراً».

أوشكتُ على القول: «إنه نوع الانخطاف المُستَحَث من الخوف. هو يعيق المرء، يتركه عاجزاً عن ردّ الفعل؛ يتوقّف الجسد عن الاستجابة، وتكون النفس قد رحلت. أرعبك كلّ ما كان ليحدث لك، لو لم يضع القدر والديك في دربك. لكنها، كانت قد وضعت حقائبها أرضاً وكانت تقف إزائي.

«من أنتِ؟ لماذا تقولين كل هذا؟».

«كطبيبة، أُعرف بـــ «ديدر أونيل». سرّني التعرّف إليك، ما اسمك؟».

«أثينا. مع أنه شيرين خليل بالاستناد إلى جواز سفري».

«من سمّاك أثينا؟».

«ليس شخصاً مهماً. لكنني لم أسألك عن اسمك، سألتك من تكونين، وسبب تحدّثك إليّ. ولماذا شعرتُ بالحاجة ذاتها للتحدّث إليك. هل السبب أننا كنا المرأتين الوحيدتين في المقهى؟ لا أعتقد ذلك. كما أنكِ تقولين لي أشياء منطقية عن حياتي».

حملت حقائبها مجدّداً، ومضت نحو محطة الحافلات.

«أحمل اسماً آخر أيضاً: إدا. لكن لم يتمّ اختياره مصادفة، ولا أعتقد أنّ المصادفة هي التي جمعت بيننا».

كان أمامنا مدخل محطة الحافلات، وأشخاص كثيرون يدخلون ويخرجون: عساكر في بذلاتهم الرسمية، مزارعون، نساء جميلات في حِللٍ توحي وكأنهن لا يزلن يعشن في الخمسينيات.

«إذا لم تكن مصادفة، فما هي إذاً؟».

كان لديها نصف ساعة لتركب الحافلة، وأمكنني القول: إنها «الأم». بعض النفوس المختارة تبعث نوراً خاصاً وتنجذب إحداها إلى الأخرى، وأنت، شيرين أو أثينا، أنتِ إحداها، لكن عليك الكدّ لاستخدام طاقتك لصالحك».

أمكنني أن أشرح أنها كانت تتبع درب الساحرة التقليدية، التي، عبر شخصيتها الفردية، تبحث عن الاتصال مع العالمين العلوي والسفلي، لكن ينتهي بها الأمر دوماً إلى تدمير حياتها؛ فهي تخدم الآخرين، تُعطي الطاقة، من دون ما تتلقّاه في المقابل.

أمكنني أن أشرح أن ثمة نقطة على الدوام يلتقي فيها الناس، يَحْتَفون معاً، يناقشون صعوباتهم، ويهيِّئون أنفسهم لــ «انبعاث الأم»، على الرغم من اختلاف الدروب كلّها. أمكنني القول إن الاتصال مع «النور الإلهي» هو الحقيقة الأعظم التي يمكن لآدمي أن يعيشها. مع ذلك، في التقليد الذي أتّبعه، لا يمكن بلوغ هذا الاتصال على انفراد، لأننا عانينا قروناً من الاضطهاد، وقد علّمنا ذلك الكثير.

«أترغبين في تناول القهوة فيما أنتظر الحافلة؟».

لا، لم أكن أرغب. كان سيفضي بي الأمر إلى قول أشياء قد يُساء فهمها في تلك المرحلة.

تابعتْ: «كان بعض الأشخاص مهمّين جداً في حياتي، مثل مالك الشقة التي كنت أشغلها، والخطّاط الذي تعرّفته في الصحراء قرب دبي. من يدري، قد يكون عندك أشياء تقولينها لي يمكنني أن أشاطرهم إياها، وأفيهم كلّ ما علّموني».

إذاً، سبق أن كان لها معلّمون في حياتها، ممتاز! كانت روحها

مختمرة. لزمها أن تواصل تدرّبها، وإلّا تخسر كلّ ما حققته. لكن، هل كنتُ الشخص المناسب؟

سألتُ «الأم» أن تُلهمني، أن تُملي عليّ ما يجب فعله. لم ألقَ جواباً، الأمر الذي لم يفاجئني. هي تفعل ذلك دوماً حين يكون عليّ اتخاذ مسؤولية قرار. أعطيتُ أثينا بطاقتي وسألتها بطاقتها. زوّدتني بعنوانٍ في دبي، بلد لم أكن لأتمكّن من تحديده على الخريطة. قرّرت أن ألجأ إلى الدعابة لامتحانها قليلاً بعد:

«أليس مصادفة ولو بسيطة أن يلتقي ثلاثة من الإنجليز في فندق ببوخارست؟».

«أرى من بطاقتك أنك اسكوتلندية. من الواضح أن الرجل الذي التقيتُه يعمل في إنجلترا، لكنني لا أعرف عنه أكثر».

أخذتُ نفساً عميقاً:

«وأنا.. رومانية».

اعتذرتُ منها، وقلت إنّ عليّ الإسراع في العودة إلى الفندق، وحزم حقائبي.

عرفتْ أين تجدني، وإن كُتب لنا أن نلتقي مجدداً، فسوف نلتقي. المهم هو أن ندع القَدَرَ يتدخّل في حياتنا ويقرّر ما الأفضل في مصلحة الجميع.

فوشو بوشالو، ٦٥ عاماً، مالك مطعم

يأتي هؤلاء الأوروبيون إلى هنا معتقدين أنهم يعرفون كل شيء؛ معتقدين أنهم يستحقون أفضل معاملة، أنّ لديهم الحق في أن يمطرونا بأسئلة نضطر إلى الإجابة عنها. من ناحية أخرى، هم

يعتقدون أنهم إذا نعتونا بأسماء مراوغة مثل «الرحالة» و«الروم» يمكنهم محو كل الأخطاء التي ارتكبوها بحقّنا ماضياً.

لماذا لا ينعتوننا بـــ «الغجر» فحسب، ويضعون حداً لكل الروايات التي تجعلنا نبدو وكأننا ملعونون في نظر العالم؟ هم يتهموننا بأننا ثمرة جُماع لا شرعي، بين امرأة وإبليس شخصياً. يقولون إن أحدنا صنع المسامير التي انغرزت في جسد المسيح على الصليب؛ وإن على الأمهات توخّي الحذر متى عبرت قوافلنا على مقربة، لأننا نسرق الأولاد ونستعبدهم.

وبسبب ذلك، حصلت مجازر متكرّرة على مرّ التاريخ. في العصور الوسطى، تمّت مطاردتنا على أننا سحرة. وعلى مدى قرون، كانت شهاداتنا مرفوضة في المحاكم الألمانية. وُلدتُ قبل أن تعصف الريح النازية بأوروبا، ورأيت والدي يُقتاد إلى معتقل معسكر اعتقال في بولندا، على ثيابه خِيطَ مثلثٌ أسود مُهين. ومِنَ الغجر الخمسمئة ألف الذين اتُخذوا عبيداً، نجا خمسة آلاف فقط ليخبروا القصة.

ولا أحد، لا أحد على الإطلاق يرغب في سماع ذلك. حتى السنة الفائتة، كانت ثقافتنا وديننا ولغتنا محظورة في هذه البقعة النائية من العالم، حيث قرّرت معظم القبائل الاستقرار.

لو سألتَ أياً من سكان المدينة عن رأيهم في الغجر، تكون إجابتهم الفورية: «جميعهم لصوص». مهما جَهِدنا في محاولة عيش حياة طبيعية بوقف تجوالنا الأبدي والعيش في أماكن يسهل فيها تحديد هويّتنا، تظل العنصرية قائمة. يُجبر أولادنا على الجلوس في المقاعد الأخيرة من صفوف المدرسة، ولا يمرّ أسبوع من دون أن يتلقوا الشتيمة من أحد.

ويتذمّر الناس من أننا مراوغون في إجاباتنا، أننا نحاول التقنّع،

أننا لا نُقرّ علناً بأصلنا. ما الداعي لأن نفعل ذلك؟ الكل يعلمون ما شكل الغجري والكلّ يعلمون «حماية» أنفسهم من «لعناتنا».

عندما تأتيني امرأة شابة، متعالية، مثقّفة، باسمة، زاعمة أنها جزء من ثقافتنا وعِرقنا، أحترز منها على الفور.

قد تكون مبعوثة من جهاز الاستخبارات، تلك الشرطة السرية التي تعمل لصالح ذاك الديكتاتور المجنون «الكوندوكاتور»[1]، عبقري الظلاميين، القائد.

يُقال إنه أُخضع للمحاكمة وأعدم رمياً بالرصاص، لا أصدّق ذلك. ربما توارى عن الأنظار في الوقت الحاضر، لكنه لا يزال شخصية نافذة في هذه البقاع.

تُصرّ المرأة الشابة؛ تبتسم، كما لو أنها تقول شيئاً رائعاً للغاية، وتخبرني أن والدتها غجرية وأنها ترغب في إيجادها. تعرف اسمها الكامل. كيف أمكنها الحصول على معلومات مماثلة من دون مساعدة جهاز الاستخبارات؟

من الأفضل تأييد أولئك الذين لديهم معارف في الحكومة. أخبرتها أنني لا أعرف شيئاً، أنني مجرد غجري قرّر عيش حياة شريفة، لكنها لا تحفل بكلامي؛ تريد إيجاد والدتها. أعلم من تكون والدتها، وأعلم، أيضاً أنها، منذ أكثر من عشرين سنة، رُزقت بطفل تخلّت عنه لدار أيتام، ولم تعرف عنه شيئاً مجدداً. كان علينا إيواء والدتها لأنّ حدّاداً ظنّ أنه سيد الكون أصرّ على ذلك. لكن من يضمن أن تلك المرأة الشابة المثقّفة الماثلة أمامي هي ابنة ليليانا حقاً؟ قبل معرفة هوية والدتها، عليها أن تحترم أولاً بعض

---

(١) Conducator: مصطلح باللغة الرومانية يعني «القائد».

أعرافنا، لا أن تأتي بلباس أحمر ما لم يكن للاحتفال بزفافها. عليها ارتداء تنّورة أطول أيضاً، لئلا تحرّك غرائز الرجال. وعليها أن تكون أكثر احتراماً.

إن كنت أتحدث عنها الآن بصيغة الحاضر، فلأن الزمن ليس موجوداً في نظر الرحّل، الفضاء وحده موجود. جئنا من بعيد، البعض يقول من الهند، آخرون يقولون من مصر. لكن الواقع أننا نحمل الماضي في حنايانا كما لو أنه حدث للتو؛ ومعه الاضطهاد يستمر.

تحاول المرأة الشابة إظهار طيبتها ومعرفتها لثقافتنا، في حين أن ذلك كله لا يهم. في النهاية، من واجبها أن تكون على معرفة لتقاليدنا.

«في البلدة، قيل لي إنك «روم بارو»، زعيمٌ قَبَلي. قبل مجيئي إلى هنا، تعلّمت الكثير عن تاريخنا...».

ليس «تاريخنا» بالجمع، أرجوك، إنه «تاريخي» بالمفرد، تاريخ زوجتي، تاريخ أولادي، تاريخ قبيلتي. أنت أوروبية. لم تُرجمي يوماً بحجر في الشارع، كما حصل لي عندما كنت في الخامسة من عمري».

«أعتقد أن الوضع يتحسّن».

«الوضع في تحسّن دائم، ثم يسوء فجأة».

لكنها تظل تتبسّم. تطلب كأس ويسكي. إن أياً من نسائنا لن تفعل ذلك أبداً.

إن هي أتت إلى هنا لمجرد تناول كأس أو سعياً إلى الرفقة، سأعاملها كأي زبون آخر. تعلّمتُ أن أكون ودوداً، متنبهاً، حصيفاً،

لأنّ عملي وقف على ذلك. عندما يرغب زبائني في معرفة المزيد عن الغجر، أقدّم لهم بعض الوقائع المثيرة للفضول، أقول لهم أن يستمعوا إلى المجموعة التي ستعزف لاحقاً، آتي ببعض الملاحظات حول ثقافتنا، ثم يغادرون ولديهم انطباع أنهم يعرفون كل شيء عنّا.

لكن هذه المرأة الشابة ليست مجرد سائحة أخرى: هي تقول إنها تنتمي إلى عرقنا.

تُريني مجدداً وثيقة الولادة من الحكومة. أثق أن الحكومة تقتل وتنهب وتكذب، لكنها لن تجازف بإعطاء وثائق مزيّفة، وبالتالي، لا بدّ أنها ابنة ليليانا حقاً، لأنّ الوثيقة تذكر اسمها الكامل وعنوانها. علمتُ من خلال التلفاز أنّ عبقري الظلاميين، أن أب الشعب، «الكوندوكاتور»، ذاك الذي تركنا نتضوّر جوعاً فيما كان يصدّر كل طعامنا؛ ذاك الذي سكن قصوراً وأكل في آنية مطعّمة بالذهب، فيما الناس كانوا يموتون جوعاً؛ ذاك الرجل نفسه وزوجته الخسيسة كانا يشيران على جهاز الاستخبارات تصيّد دور الأيتام من أجل انتقاء أطفال لتدريبهم قتلة لصالح الدولة.

غير أنهم كانوا يأخذون الصبية دون الفتيات. لا بدّ إذاً أنها ابنة ليليانا.

أنظر إلى الوثيقة مرة أخرى، وأتساءل ما إذا كان عليّ إخبارها بمكان والدتها. ليليانا جديرة بلقاء هذه المثقّفة، التي تزعم أنها من «ملّتنا». ليليانا جديرة بالنظر إلى عينيّ هذه المرأة. أعتقد أنها عانت ما يكفي عندما خانت شعبها، عاشرت رجلاً «غادجيّاً» [ملاحظة: أجنبياً]، وجلبت العار على والديها. لعل اللحظة حانت لوضع حدّ لجحيمها، لكي ترى أن ابنتها بقيت على قيد الحياة، اغتنت، حتى أنها قد تتمكّن من مساعدتها لدحر الفقر الذي تعيشه.

قد تدفع لي هذه المرأة الشابة مقابل هذه المعلومات، قد يكون ذلك لخير قبيلتنا، لأننا نعيش في زمن مُربك. يقول الجميع إنّ عبقري الظلاميين قد مات، حتى أنهم يعرضون صور إعدامه. لكن من يدري، قد يرجع غداً، وسيتبيّن أن الأمر برمّته حيلة ذكية قام بها لمعرفة مَن في صفّه فعلاً، ومَن على استعداد لخيانته.

سيبدأ العازفون بالعزف قريباً. لذا يُفضّل أن أتكلّم في الأعمال.

أختبئ خلف نبرة أكثر ودّاً قائلاً: «أعرف أين يمكنك إيجاد هذه المرأة. يمكنني أخذك إليها، لكن، أعتقد أن هذه المعلومات تساوي شيئاً».

قالت، وقد شهرت مبلغاً من المال أكثر بكثير مما كنت سأطلب، «كنت مهيّأة لهذا».

«لا يكفي هذا حتى لأجرة سيارة التاكسي».

«سأسدّد لك مثل هذا المبلغ مجدداً عندما أبلغ وجهتي».

أحسستُ، للمرة الأولى، أن ثقتها ضعيفة. تبدو فجأة خائفة مما توشك أن تفعله. تناولتُ المال الذي وضعته على المنضدة.

«سأصطحبك لرؤية ليليانا في الغد».

يداها ترتجفان. تطلب كأس ويسكي آخر. لكن، فجأة، يدخل رجل الحانة. يراها، يحمّر خجلاً، ويتوجه إليها فوراً.

استخلصتُ أنهما التقيا بالأمس فقط، وها هما يتحدّثان كما لو أنهما صديقان قديمان. عيناه مغمورتان بالرغبة، وهي تعي ذلك تماماً، وتشجّعه. يطلب الرجل زجاجة نبيذ، ويجلسان إلى طاولة. تبدو وكأنها نسيت أمّها نهائياً.

أريد الحصة الأخرى من المال. عند تقديم النبيذ لهما، أقول لها إني سأكون في الفندق الذي تنزل فيه عند العاشرة صباحاً.

هيرون راين، صحافي

أخبرتني إثر كأس النبيذ الأولى، وبشكل تلقائي أن لها حبيباً يعمل لصالح سكوتلند يارد. كانت كِذبة، طبعاً. لا بُدّ أنها قرأت النظرة في عينيّ، وكانت تلك طريقتها في إبقائي على مسافة منها.

أخبرتها بالمقابل أن لي حبيبة، ما جعلنا متساويَين. بعد عشر دقائق على بدء الموسيقا، نهضتُ. لم نكن قد تجاذبنا إلا القليل من الأحاديث. لم تطرح أي أسئلة عن أبحاثي حول مصاصي الدماء. تحادثنا في العموميات فقط: انطباعاتنا عن المدينة، التذمُّر من حالة الطرقات. لكن ما رأيته تالياً، أو بالأحرى، ما رآه جميع من كان في المطعم، كان إلهة تُظهر كل ما فيها من مجد، كاهنة تستحضر الملائكة والشياطين.

كانت عيناها مغمضتين. وبدت وكأنها لا تعرف من هي، أين توجد، لم هي موجودة هنا، بدت وكأنها مغمورة، تستحضر ماضيها، تكشف حاضرها وتتنبأ بمستقبلها.

جَمعتِ الشبقَ مع العِفّة، الإباحية مع التجلّي، عبادة الله مع الطبيعة، كلها في آن.

توقف الناس عن تناول الطعام، وأخذوا يُشاهدون ما يحصل. لم تعد تتبع الموسيقا، كان الموسيقيون يحاولون مواكبة خطاها. وتحوّل ذاك المطعم الكائن في الطابق السفلي من مبنى قديم في مدينة سيبيو إلى معبد مصري، حيث تعوّد عَبَدة إيزيس التجمّع

لأداء طقوس الخصوبة. تحوّلت رائحة اللحم المشوي والنبيذ إلى بخُور اقتادنا جميعاً إلى حالة تشبه الانخطاف، إلى التجربة ذاتها في ترك هذا العالم ودخول بُعدٍ مجهول.

كفّت آلات النفخ والآلات الوترية. وحدها آلات النقر كانت تعزف. كانت أثينا ترقص وكأنها لم تعد موجودة هناك، العرق يتصبّب على وجهها، قدماها الحافيتان تضربان الأرض الخشبية. نهضت امرأة ولفّت، بكل رفق، وشاحاً حول عنقها وصدرها، ذلك أنّ بلوزتها ظلّت تهدّد بالانزلاق عن كتفيها. مع ذلك، بدت أثينا وكأنها لم تلاحظ، كانت تستوطن كواكب أخرى، تتعرّف حدود عوالم تلامس عوالمنا، لكنها لا تكشف عن نفسها أبداً.

أخذ الآخرون في المطعم يصفّقون تزامناً مع الموسيقا، وكانت وتيرة رقص أثينا تتسارع، تغذّي تلك الطاقة، تغزل وتغزل. تتوازن في الفراغ، تتلقّف كل شيء أردنا، نحن الفانين، أن نقدّمه إلى الله الأسمى.

فجأة، توقّفت. توقّف الكل، بمن فيهم قارعو آلات النقر. كانت عيناها لا تزالان مغمضتين، لكن الدموع كانت تقطر على وجنتيها. رفعت ذراعيها في الهواء وصرخت:

«عندما أموت، ادفنوني واقفة، لأنني قضيت حياتي كلها راكعة!».

لم ينبس أحد بكلمة. فتحت عينيها كأنها تستيقظ من نوم عميق، ورجعت إلى الطاولة كما لو أن شيئاً لم يكن. استأنفت الفرقة العزف، واتّخذ أكثر من ثنائي حلبة الرقص في محاولة للاستمتاع، لكنّ الجو في المكان تغيّر كلياً. سرعان ما سدّد الناس حساباتهم وهمّوا بالرحيل.

عندما وجدتُ أنها استرجعت قواها بعد الجهد الجسدي الذي بذلته رقصاً، سألتها: «هل كل شيء على ما يرام؟».

«أشعر بالخوف. اكتشفت سبيل الوصول إلى مكان لا أريد الذهاب إليه».

«أتريدينني أن أرافقك؟».

هزّت برأسها.

في الأيام التي تلت، استكملتُ أبحاثي الخاصة بالوثائقي، أعدت ترجماني إلى بوخارست مع السيارة المستأجرة، وأقمت في سيبيو لمجرد أنني أردت لقاءها مجدداً. لطالما كان المنطق مرشدي طوال حياتي، وأعرف أن الحب شيء يُبنى، أكثر من كونه يُكتشف. لكنني أحسستُ أنني لن أراها مجدداً، سوف أدع جزءاً مهمّاً من حياتي في ترانسلفانيا، مع أنني قد لا أدرك ذلك إلّا لاحقاً.

كافحتُ رتابة تلك الساعات التي لا تنتهي؛ ذهبتُ غير مرة إلى محطة الحافلات للاستعلام عن أوقات الحافلات المتوجّهة إلى بوخارست.

أنفقتُ أكثر مما تسمح به ميزانيتي الشحيحة كصانع أفلام حرّ لإجراء اتصالات هاتفية مع قناة الـ BBC ومع حبيبتي. شرحتُ أنني لم أكن قد حصلت على كل المواد التي تلزمني. وأن ثمة أموراً قليلة لم تزل ناقصة، وأنني قد أحتاج إلى يوم إضافي أو أسبوع؛ قلت إن أهل رومانيا كانوا صعاب المراس، وإنهم ينزعجون إذا ربط أحدهم بين مدينتهم ترانسلفانيا الجميلة وقصة دراكولا البشعة. تمكّنت أخيراً من إقناع المنتجين، وسمحوا لي بالبقاء أطول مما أريد.

كنا ننزل في فندق المدينة الأوحد. وذات يوم، رأتني في الردهة

وبدت أنها تذكرت فجأة لقاءنا الأول. هذه المرة، دعتني إلى الخروج، حاولت كبث فرحتي. ربما كنت مهماً في حياتها.

لاحقاً، علمت أن الكلمات التي قالتها في نهاية رقصتها كانت قولاً غجرياً قديماً.

ليليانا، خيّاطة، العمر واسم العائلة غير محدّدين

أتحدّث بصيغة الحاضر لأنّ الزمن بالنسبة إلينا غير موجود، الفضاء فقط موجود. ولأن الأمر يبدو وكأنه حدث أمس.

العُرف القَبَلي الوحيد الذي عصيته هو أنّ رَجُلي كان إلى جانبي عند ولادة أثينا. أتت القابلات إليّ رغم علمهن بأنني عاشرت «غادجي»، أي أجنبي. حَلَلْنَ رباط شعري، قطعن حبل السرّة، عقدن ضفائر عدة وقدّمنها لي. يقتضي التقليد في هذه المرحلة أن يُكلفّ الولد بقطعة من ثياب والده؛ كان قد ترك وشاحاً يذكّرني برائحته، وكنت أقرّبه من أنفي أحياناً لكي أشعر بأنه قربي لكن العطر كان سيختفي إلى الأبد.

لففتُ الطفلة بالوشاح ووضعتها أرضاً، لكي تتلقى الطاقة من الأرض. بقيت معها هناك، لا أستطيع إدارة مشاعري أو أفكاري. كان قراري قد اتُّخِذ.

قالت لي القابلات أن أختار اسماً، وألّا أطلع أحداً عليه ــ يمكن التلفّظ به لدى معمودية الطفلة فقط. أعطينني الزيت المقدّس والحُجب التي عليّ تعليقها برقبتها على مدى الأسبوعين التاليين لولادتها. قالت لي إحداهن ألّا أقلق، القبيلة كلّها مسؤولة عن وليدتي. ومع أنني كنت سأكون محط الكثير من الانتقاد، فسرعان ما ستزول الأزمة. كما نصحنني بعدم الخروج ما بين

ساعات المغرب والفجر، لئلّا تهاجمنا الـ «تسينفاري» [ملاحظة: الأرواح الشريرة] وتسكننا، وقد تتحول حياتنا مأساة إذ ذاك.

بعد أسبوع، ومع طلوع الشمس، ذهبتُ إلى مركز للتبنّي في سيبيو، ووضعت الطفلة على عتبة الباب، آملة أن يؤويها فاعل خير. فيما أنا أفعل ذلك، ضبطتني ممرضة وسحبتني إلى الداخل. شتمتني بكل ما أمكنها من طُرق، وقالت إنهم معتادون على سلوك مماثل. لكن هناك على الدوام من يراقب ولا يمكن أن أفلت بسهولة من مسؤولية وضع ولد في هذا العالم.

«مع أن من الطبيعي ألّا يتوقع المرء من غجرية سوى ذلك! تهجرين طفلتك بهذه البساطة!».

أُجبرت على تعبئة بيانٍ بكل المعلومات التفصيلية عني، وبما أنني كنت أجهل الكتابة، قالت غير مرة: «حسنٌ، ماذا يمكن أن نتوقع من غجرية. ولا تحاولي خداعنا بمعلومات خاطئة. إن فعلت، سيفضي بك الأمر إلى السجن!». وبداعي الخوف الصرف، أخبرتهم الحقيقة.

نظرتُ إلى وليدتي لمرة أخيرة. وكان هذا ما أمكنني أن أُسِرَّ به: «يا ابنة بلا اسم، عسى أن تعرفي الحب، الكثير من الحب في حياتك».

بعد ذلك، مشيتُ في الغابة لساعات. تذكرتُ ليالي كثيرة خلال حملي، عندما اعتمل فيّ الحب والكره معاً للطفلة في أحشائي والرجل الذي وضعها هناك.

كسائر النساء، حلمتُ بلقاء أمير ساحر يوماً ما، سيتزوّجني، يمنحني الكثير من الأولاد، ويغمر عائلتي بلطفه. كالعديد من النساء، أُغرمتُ برجل لم يستطع أن يقدّم لي أياً من ذلك. لكنني

شاطرته لحظات لا تنسى، لحظات لن تفهمها ابنتي أبداً، لأنها ستظل موصومة بأنها طفلة «غادجي» لقيطة. أمكنني تحمّل ذلك، لكن لم أُرِد لها أن تتعذب كما تعذبتُ مذ علمت بأنني حامل. انتحبتُ ومزّقت جلدي، معتقدة أنّ ألم الندوب قد يمنعني من التفكير في العودة إلى الحياة العادية، والتصدي للعار الذي ألحقته بالقبيلة. كان أحدهم سيرعى الطفلة، وسأعلّل نفسي على الدوام بأمل رؤيتها ذات يوم، بعد أن تكون قد كبرت.

لعجزي عن كبح دموعي، جثمتُ أرضاً واحتضنتُ ذراعاي جذع شجرة. مع ذلك، ما إن امتزجت دموعي بالدم السائل من جراحي على جذع الشجرة، حتى استولى عليّ هدوء غريب. بدوتُ أنني أسمع صوتاً يقول لي ألّا أقلق، قائلاً إن دمي ودموعي قد افترشتا درب طفلتي طُهراً، وخفّفت آلامي. مذاك، كلما أخذ مني اليأس مأخذاً، أتذكّر الصوت وأشعر بالهدوء من جديد.

ولهذا السبب لم أُفاجأ عندما رأيتها تصل برفقة زعيم قبيلتنا، الذي طلب فنجان قهوة ومشروباً، ثم ابتسم بخبث ورحل. قال لي الصوت إنها ستعود، وها هي، ماثلة أمامي.

إنها جميلة. تشبه والدها. لا أدري أي مشاعر تكنّها لي؛ لعلها تكرهني لأنني تخلّيتُ عنها. ليس عليّ شرح سبب ما فعلت؛ لن يفهم أحد.

نجلس مطوّلاً من دون أن تتحدّث إحدانا إلى الأخرى، ننظر فقط. لا نبتسم، لا نبكي، لا شيء. ثورة حب تندفع من أعماق روحي، لكنني لا أدري إن كانت مهتمّة بمعرفة شعوري.

«هل أنتِ جائعة؟ أترغبين في تناول الطعام؟».

الغريزة. الغريزة أولاً.

تومئ لي. نذهب إلى الغرفة الصغيرة التي أسكنها، والتي تشكّل غرفة معيشة، غرفة نوم، مطبخاً ومشغل خياطة. تنظر من حولها، مصدومة. لكنني أدّعي عدم الملاحظة. أتوجّه إلى الفرن، وأرجع حاملة طبقَين من اللحم وحساء الخُضَر. كنت أعددت بعض القهوة المركّزة. وفيما أنا على وشك إضافة السكّر إليها، تكلّمتْ للمرة الأولى:

«من دون سكّر، شكراً. لم أكن أعرف أنك تتكلّمين الإنجليزية».

أُوشك على القول إنني تعلّمتها من والدها، لكنني أبلع لساني. نأكل في صمت، ومع مرور الوقت، يعود كل شيء مألوفاً، ها أننا مع ابنتي؛ انطلقتْ في العالم والآن قد عادت؛ سارت في دروب مختلفة عن دروبي وعادت إلى الوطن. أعلم أن هذا وهم، لكنّ الحياة قدّمت إلي الكثير من لحظات الواقع القاسي بحيث لا ضير في أن أحلم قليلاً.

تسأل: «من هذه القدّيسة؟»، مشيرة إلى لوحة على الحائط.

«القديسة سارة، شفيعة الغجر. لطالما أردتُ زيارة كنيستها في فرنسا، لكنني لا أستطيع مغادرة البلاد. لن أحصل أبداً على جواز سفر أو إذن...».

أنا على وشك القول: حتى ولو فعلت، فلن يكون بحوزتي ما يكفي من المال. لكنني أضبط نفسي. قد تعتقد أنني أطلب إليها شيئاً، «... وفضلاً عن ذلك، لديّ الكثير من العمل لأنجزه».

يخيّم الصمت مجدداً. تُنهي حساءها، تُشعل سيجارة، وتبقى عيناها في جمود، لا تبعثان أي عاطفة.

قالت: «هل اعتقدتِ أنك سترينني يوماً؟».

أجبتها أنني اعتقدتُ. وأنني سمعت بالأمس من زوجة زعيم القبيلة أنها زارت مطعمه.

«ثمة عاصفة وشيكة. ألا ترغبين في قسط من النوم؟».

«لا أسمع شيئاً. لا تعصف الريح أقوى أو أخف من قبل. أفضّل التحدث».

«ثقي بي. لدي كلّ ما في العالم من وقت. لدي بقية حياتي أقضيها بقربك».

«لا تقولي ذلك».

«... لكنك تعبة». أواصل كلامي مدّعية أنني لم أسمع ملاحظتها. أرى العاصفة موشكة على الهبوب. كسائر العواصف، تجلب معها الدمار. لكن، في الوقت نفسه، تغمر الحقول، وتَنْزل حكمة السموات مع تساقط المطر. كسائر العواصف، سوف تهدأ. كلما ازدادت عنفاً، تهدأ أسرع.

تعلّمت، ولله الحمد، أن أنجو من العواصف.

وكما لو أنّ جميع قديسات سانت ماري دو لا مير كنّ يصغين إليّ، بدأت أولى حبات المطر تتساقط على سطح القصدير. تنهي المرأة الشابة سيجارتها. آخذها بيدها وأقودها إلى سريري. تستلقي وتغمض أجفانها.

لا أدري كم من الوقت نامت. راقبتها لا أفكّر في شيء آخر، والصوت الذي سمعته يوماً في الغابة كان يقول لي إن كل شيء على ما يرام، ولا داعي لأن أقلق؛ إن الطُرق التي يغيّر القدر فيها الناس صالحة دوماً إن عرفنا فقط كيف نفكّ رموزها. لا أعرف من خلّصها من دار الأيتام ورباها وجعل منها المرأة المستقلة التي تبدو

عليها. رفعتُ صلاة عن تلك العائلة التي سمحت لابنتي أن تبقى على قيد الحياة وتعيش حياة أفضل. في منتصف صلاتي، انتابتني الغيرة، اليأس، الندم، وتوقّفت عن الكلام إلى القديسة سارة. أكان من المهم إرجاعها؟ أمامي يرقد كلّ ما فقدته وأعجز عن استعادته.

لكن، أمامي أيضاً، كان تجسيد حبّي. لم أعرف شيئاً، مع ذلك، انكشف كل شيء لي: عاودتني ذكرى الأوقات التي فكّرت خلالها في الانتحار، ثم، في الإجهاض، عندما تصوّرت ترك ذاك الجزء من العالم والانطلاق مشياً، إلى حيث تقودني قوّتي؛ عاودتني ذكرى دمي ودموعي على جذع الشجرة، الحوار مع الطبيعة الذي اشتدّ مذاك ولم يفارقني، مع أن قلّة من أفراد قبيلتي ملمّون بذلك. حامي، الذي التقيته خلال طوافي في الغابة، فهمني، لكنه فارق الحياة مؤخراً.

تعوّد القول: «النور غير ثابت، الريح تلفحه في مهبّها، البرق يجعله متوهجاً. هو ببساطة غير موجود، يسطع مثل الشمس، لكنه جدير بالكفاح».

كان الوحيد الذي تقبّلني وأقنع القبيلة بأن في استطاعتي، مجدداً، أن أكون جزءاً من عالمها. كان الوحيد الذي يتمتّع بالسلطة الأخلاقية ليضمن عدم نبذي.

وللأسف، هو الوحيد الذي لن يتعرّف ابنتي مطلقاً. بكيتُ لأجله، فيما هي مستلقية على سريري، هي التي لا بدّ أنها تعوّدت كل وسائل الراحة في الدنيا. ملأتْ رأسي آلاف التساؤلات: من كان والداها بالتبنّي؟ أين عاشت؟ هل ارتادت الجامعة؟ هل مِن رجل أحبّته؟ ما مخطّطاتها؟ لكنني لم أكن مَن سافر حول العالم بحثاً عنها، بل العكس. لم أكن لأسأل بل لأُجيب.

فتحت عينيها. أردتُ ملامسة شعرها، لأمنحها الحنان الذي أبقيت عليه محجوزاً كل تلك السنوات. لكنني لم أكن واثقة بردّة فعلها. وفضّلت ألّا أفعل ذلك.

«جئتِ إلى هنا لمعرفة سبب...».

«لا. لا أريد معرفة السبب الذي يدعو أمّاً إلى التخلّي عن ابنتها. لا سبب يدعو أياً يكن لفعل ذلك».

تجرح كلماتها قلبي، لكنني لا أعرف بما أجيب.

«من أنا؟ أيّ دمٍ يجري في عروقي؟ بالأمس، عندما عرفتُ أين أجدك، شعرتُ بالخوف المطلق. من أين أبدأ؟ أفترض، أنكِ كسائر الغجر، يمكنك قراءة الطالع في الورق».

«لا. هذا غير صحيح. نفعل هذا مع «الغادجي» فقط، كوسيلة لكسب العيش. لا نعمد مطلقاً إلى قراءة الطالع بالورق أو الكف أو إلى التنبؤ بالمستقبل ضمن قبيلتنا. وأنت...».

«... أنا جزء من القبيلة. مع أنّ المرأة التي وضعتني في هذا العالم، أقصتني بعيداً».

«نعم».

«إذاً، ما الذي أفعله هنا؟ الآن بعد أن رأيت وجهك، يمكنني العودة إلى لندن. إجازتي على وشك الانتهاء».

«أتودين معرفة معلومات عن والدك؟».

«لا. لا يعنيني أمره البتة».

فجأة، أدركتُ أن بإمكاني مساعدتها. كان الأمر وكأنّ صوتاً غير صوتي ينبعث من شفتي:

«حاولي فهم الدم الذي يجري في عروقي وفي قلبك».

كان معلّمي ذاك الذي تكلّم من خلالي. أغمضتُ عينيها مجدداً، وغطّت في نوم اثنتي عشرة ساعة تقريباً.

في اليوم التالي، اصطحبتها إلى ضواحي سيبيو حيث يقوم متحف مشكّل من منازل متنوّعة في المنطقة. للمرة الأولى، سُررت لإعداد الفطور لها. كانت أكثر ارتياحاً، أقل توتراً. وطرحت عليّ أسئلة عن ثقافة الغجر، ولم تتطرّق إليّ. أخبرتني متفرّقات من حياتها. علمتُ أنني جدّة! لم تذكر زوجها أو والديها بالتبنّي. قالت إنها تعمل في بيع الأراضي في بلد بعيد عن هنا، وإنها ستعاود عملها عن قريب.

أوضحتُ لها أن بإمكاني تعليمها إعداد تمائم لإبعاد الشر، لكنها لم تبدُ مهتمة بذلك. مع ذلك، عندما حدّثتها عن خصائص الأعشاب العلاجية، سألتني أن أعلّمها كيفية تعرّفها. في المتنزّه حين مشينا، حاولتُ أن أنقل إليها كل المعرفة التي امتلكتها، مع أنني كنت واثقة أنها ستنسى كل شيء عندما تعود إلى موطنها، الذي علمت أنه كان لندن في حينها.

«نحن لا نملك الأرض، الأرض تملكنا. دَرَجنا على الترحال باستمرار، ممتلكين كلّ ما حولنا: النبات، الماء، الطبيعة التي عبرتها قوافلنا. كانت قوانينا من قوانين الطبيعة: البقاء للأقوى. ونحن، الضعفاء، المنفيين الأبديين، تعلّمنا إخفاء قوّتنا واستخدامها عند الضرورة فقط. لا نؤمن بأن الله خالق الكون، بل نؤمن بأن الله هو الكون وأنه يحتوينا، وأنه فينا. على الرغم...».

«... في رأيي، ينبغي أن نسمّيه «الإلهة»، أو «الأم». ليس الأم التي تتخلى عن ابنتها في دار أيتام، بل الأم التي في داخل كلّ منا، التي

تحمينا متى كنا في خطر. ستكون معنا دوماً، ونحن نؤدي مهامنا اليومية بحب وفرح، ونحن ندرك أن لا شيء سلبيّ، بأن كل شيء هو وسيلة لتمجيد الخَلْق».

نظرت أثينا، التي أعرف اسمها الآن، إلى أحد المنازل في المتنزّه.

«ما هذا؟ كنيسة؟».

إن الساعات التي قضيتها إلى جانبها أتاحت لي أن أستعيد قوّتي. سألتُ إن كانت تحاول تغيير الموضوع. فكرتُ للحظة قبل أن تجيب.

«لا. أريد متابعة الإصغاء إلى ما ينبغي أن تقوليه لي. مع أنه، بالاستناد إلى كل ما قرأته قبل مجيئي إلى هنا، فإن ما تقولينه ليس جزءاً من التقليد الغجري».

«علّمني حاميّ تلك الأمور. عرف أموراً يجهلها الغجر، وجعل القبيلة تضمّني إليها مجدداً. وفيما تعلّمت منه، أخذت أدرك تدريجاً قدرة الأم، أنا التي رفضت نعمة أن تكون أماً».

أشرتُ إلى شجيرات صغيرة.

«إن عانى ابنك يوماً من حرارة مرتفعة، ضعيه بقرب نبتة نضرة كهذه، وهزّي أوراقها. ستنتقل الحرارة إلى النبتة. وإن شعرت يوماً بالقلق، فقومي بالمثل».

«أفضّل أن تخبريني المزيد عن حاميك».

«علّمني حاميّ أن الخَلْق كان في البدء يعاني وحشة شديدة لدرجة أنه خلق شخصاً آخر يتحدث إليه. ذانك المخلوقان، بفعل حب، أوجدا شخصاً ثالثاً، وهكذا دواليك. تكاثروا بالآلاف والملايين. سألتِ عن الكنيسة التي رأيتها للتو: لا أدري تاريخ بنائها ولست

مهتمة. معبدي هو المتنزّه، السماء والماء في البحيرة والينبوع الذي يغذّيها. شعبي هو الذي يشاطرني أفكاري، وليس الذين تربطني بهم صلة الدم. طقسي هو أن أكون مع هؤلاء الناس وأحتفل بكل ما حولي. متى تنوين العودة إلى الديار؟».

«ربما غداً. لا أريد إزعاجك».

جُرْحٌ آخر نَدَبَ قلبي، لكنني لم أتمكّن من قول شيء.

«لا. أرجوك، ابقي قدْر ما يحلو لك. سألتُ لمجرد أنني أرغب في الاحتفال بمجيئك مع الآخرين. إن وافقتِ، يمكنني فعل ذلك الليلة».

لا تقول شيئاً، وأفهم من ذلك رداً بالإيجاب.

في المنزل، أقدّم لها مزيداً من الطعام، وتوضح أن عليها الذهاب إلى الفندق الذي تنزل فيه في سيبيو لإحضار بعض الثياب. وإلى أن تعود، أكون قد رتّبت كل شيء. نذهب إلى تلة في جنوب البلدة، نتحلّق حول نار أُوقدت لتوّها، نعزف آلات موسيقية، نغنّي، نرقص، نخبر روايات. تشاهد، لكن لا تشارك، مع أنّ زعيم القَبيلة أخبرني أنها راقصة ممتازة. للمرة الأولى منذ سنوات، أشعر بالسعادة، لأني أُعطيت فرصة تحضير طقس لابنتي، والاحتفال معها بأعجوبة لمّ شملنا، ونحن، بصحة سليمة، مغمورتَين بحب الأم الكبرى.

بعد ذلك تقول إنها ستنام في الفندق لليلة. أسألها إن كان هذا وداعاً، لكنها تجيب نفياً. ستعود في الغد.

على مدى أسبوع، تشاركني ابنتي عبادة الكون. ذات ليلة، أحضرتْ صديقاً، موضحة أنه لم يكن حبيبها أو والد طفلها. سأل الرجل، الذي لا بُدّ أنه كان يكبرها بعشر سنوات، مَن نعبد في طقوسنا. أوضحتُ أنّ عبادة شخص تعني، بالاستناد إلى حاميَ، وضع

ذاك الشخص خارج إطار عالمنا. لا نعبد أي شخص أو شيء، إننا ببساطة نناجي الخَلْق.

«لكن هل تصلّون؟».

«شخصياً، أصلّي للقديسة سارة. لكننا هنا جزء من كل شيء وإننا نحتفل أكثر من كوننا نصلّي».

شعرتُ أنّ أثينا فخورة بجوابي. غير أنني كنت في الواقع أردّد كلام حاميَ فحسب.

«لكن ما الداعي لفعل ذلك في مجموعة، في حين أننا نستطيع الاحتفال بالكون كلٌّ على حدة؟».

«لأن الآخرين أنا. وأنا الآخرون».

حينئذٍ، نظرت إليّ أثينا، وشعرتُ أن دوري قد حان لجرح قلبها.

قالت: «سأرحل غداً».

«قبل أن تفعلي، تعالي لوداع والدتك».

كانت المرة الأولى، خلال كل تلك الأيام، التي أتلفّظ بها بهذه الكلمة. خلا صوتي من الرجفة، كانت نظراتي ثابتة، وعرفتُ، على الرغم من كل شيء، أن أمامي تقف ثمرة أحشائي، مَنْ يسري دمي في دمها؛ في تلك اللحظة كنت أتصرّف كفتاة صغيرة اكتشفت لتوّها أن العالم غير مليء بالأشباح واللعنات كما علّمنا الراشدون. هو مليء بالحب، بغض النظر عن كيفية تجلّي الحب، حب يسامحنا على هفواتنا، ويخلّصنا من الخطيئة، ويغفر لنا خطايانا.

عانقتني طويلاً. ثمّ ضبطت الوشاح الذي أرتديه لأغطي شعري؛ قد لا أكون متزوّجة، لكن بالاستناد إلى التقليد الغجري، عليّ

ارتداء وشاح لأنني لم أعد عذراء. ماذا سيحمل لي الغد، مع رحيل الكائن الذي طالما أحببته وهالني عن بعد؟ كنت أنا الكلّ، والكلّ كان أنا، والوحدة.

في اليوم التالي، وصلتْ أثينا تحمل باقة زهر. رتّبتْ غرفتي وقالت إنّ عليّ وضع نظّارة لأنني أرهق عيني في مزاولة الخياطة بإفراط. سألتْ إن كان الأصدقاء الذين أحتفل معهم، عانوا مشكلات مع القبيلة، أجبتُ نفياً. وقلتُ إن حاميّ كان رجلاً وقوراً جداً، وعلّمنا العديد من الأمور، وأن له أتباعاً في كل العالم. ذكرتُ أنه فارق الحياة قبل وصولها بفترة وجيزة.

«ذات يوم، مسّته قطة. هذا في نظرنا، يعني الموت. وانتابنا القلق جميعاً. لكن، على الرغم من وجود طقس يرفع لعنة مماثلة، فإن حاميّ قال إن ساعته قد أزفت، وإنه في حاجة إلى ارتياد تلك العوالم الأخرى التي عَلِمَ بوجودها، لكي ينبعث ولداً مجدداً، وأن يرقد لبعض الوقت في ذراعي «الأم». أُقيمت جنازته في غابة قريبة. كان مأتماً بسيطاً، لكن أتى الناس من كل حدب وصوب».

«أكان بين أولئك، امرأة في الخامسة والثلاثين تقريباً، شعرها أسود؟».

«لست واثقة. ربما. لمَ تسألين؟».

«التقيتُ امرأة في فندق ببوخارست قالت إنها أتت لحضور مأتم صديق. أعتقدُ أنها ذكرتْ شيئاً عن «معلّمها».»

سألتني أن أخبرها المزيد عن الغجر. لكن معرفتها لهم كانت كبيرة، بحيث لم تُبقِ الكثير لإطلاعها عليه، ناهيك بأنه، إلى جانب العادات والتقاليد، نعرف القليل عن تاريخنا. اقترحتُ أن تذهب إلى فرنسا ذات يوم، وتأخذ نيابة عني وشاحاً وتقدّمه إلى

أيقونة القديسة سارة في قرية «سانت ماري دو لامير» الفرنسية الصغيرة.

قالت: «جئتُ إلى هنا لأن حياتي تفتقر إلى شيء. كان عليّ ملء الفراغات. وخِلتُ أن مجرد رؤية وجهك سيكون كافياً. لكن لم يكن الأمر كذلك. احتجت أيضاً أن أفهم أنني... كنت محبوبة».

«أنت بالفعل محبوبة».

لم أُضف شيئاً، وظللت ساكتة لوقت طويل. أخيراً، سَبَكْتُ كلمات لطالما أردتُ قولها مذ تخلّيتُ عنها. ولئلا تصبح ابنتي جيّاشة العاطفة، تابعتُ:

«أودّ سؤالك شيئاً».

«سلي ما يحلو لك».

«أسألك السماح».

عضّت شفتها.

«لطالما كنت طائشة. أعمل بجهد، أقضي الكثير من الوقت في رعاية ابني، أرقص كمجنونة، تعلّمت فنّ الخطّ، أحضر صفوفاً عن البيع، أقرأ الكتاب تلو الآخر. لكن هذا كله كان لكي أتجنّب تلك اللحظات الخاوية من الفِعْل، لأن تلك الفراغات تُشعرني بالفراغ المطلق، وينتفي فيها وجود ولو كسرة حب. لطالما قام والداي ما في وسعهما من أجلي، ولطالما خيّبت آمالهما. لكن، خلال ذاك الوقت الذي قضيناه معاً نحتفل بالطبيعة و«الأم الكبرى»، أدركتُ أن تلك الفراغات قد بدأت تمتلىء. تحوّلت إلى إطالات ــ لحظة يرفع فيها الرجل يده عن الطبل قبل خفضها مجدداً ليضرب بقوة مجدداً.

أعتقد أن بإمكاني الرحيل الآن. لا أقول أنني سأرحل بسلام، لأن

على حياتي أن تتبع الإيقاع الذي تعوّدَتْهُ. لكنني لن أرحل شاعرة بالمرارة. هل يؤمن جميع الغجر بـــ «الأم الكبرى»؟».

«إن سألتِهم، فإن أياً منهم لن يجيب بـــ «نعم». لقد تبنّوا معتقدات الأماكن التي استقرّوا فيها وعاداتها. والأمر الوحيد الذي يوحّدنا بالمفهوم الديني، هو عبادة القدّيسة سارة والحج، على الأقل مرة في حياتنا، لزيارة ضريحها في سانت ماري دولامير. تسميها بعض القبائل: كالي سارة، أو سارة السمراء. أو عذراء الغجر، كما هي معروفة في لورد».

قالت أثينا بعد فترة وجيزة: «عليّ الرحيل. والصديق الذي تعرّفته ذاك اليوم سيرحل معي».

«يبدو رجلاً طيباً».

«تتكلّمين كأم».

«أنا أمك».

«وأنا ابنتك».

عانقتني. وهذه المرة، عيناها مغرورقتان بالدموع. داعبتُ شعرها وأنا أضمُّها بين ذراعيّ، كما كنت أحلم أن أفعل، منذ اليوم الذي فرّقنا فيه القَدَر ــ أو خوفي. طلبتُ إليها الاعتناء بنفسها جيداً، وقالت لي إنها تعلّمت الكثير.

«ستتعلّمين أكثر، لأننا، وإن أصبحنا اليوم نتعلّق ببيوتنا ومدننا وأشغالنا، فلا يزال ينبض في عروقنا زمن القوافل والترحال والتعاليم التي وضعتها «الأم الكبرى» على دربنا لكي نبقى أحياء. تعلّمي، لكن تعلّمي دوماً والآخرون إلى جانبك. وينبغي ألّا يكون بحثك على انفراد. لأنك إن تعثّرت، لن يكون أحد إلى جانبك ليسدِّد خطاك».

كانت لا تزال تتشبّث بي دامعة، تكاد تتوسلني أن أطلب إليها البقاء. استحلفْتُ حاميّ ألا يدع دمعة تُذرف من عيني، لأنني أردت الأفضل لأثينا، وقَدَرها أن تمضي قدماً. هنا في ترانسلفانيا، بمعزل عن حبّي، لن تجد شيئاً آخر. وعلى الرغم من إيماني بأن الحب يكفي ليبرّر وجوداً بأكمله، فإنني كنت واثقة تماماً بعدم تمكُّني من الطلب إليها التضحية بمستقبلها لكي تبقى إلى جانبي.

طبعت أثينا قبلة على جبهتي ورحلت من دون قول وداعاً، معتقدة على الأرجح بأنها سترجع يوماً. كانت ترسل إليّ مع حلول عيد الميلاد، ما يكفي من المال لسنة كاملة لا أُضطر معها إلى العمل بالخياطة. لكنني لم أذهب يوماً إلى المصرف لصرف حوالاتها، مع أن كلَّ مَنْ في القبيلة اعتبر تصرّفي أحمق.

توقفتْ عن إرسال المال منذ ستة أشهر. لا بُدّ أنها أدركت أنني أحتاج إلى الخياطة لملء ما أسمته «الفراغات».

أرغب في رؤيتها بشدة، لكنني أعرف أنها لن تعود أبداً. لا بُدّ أنها تشغل مركزاً تنفيذياً كبيراً الآن، متزوجة الرجل الذي تحب. ويُحتمل أنني جَدّة للكثير من الأحفاد. ما يعني أن دمي سيظل يسري على هذه الأرض، وأن هفواتي ستلقى السماح.

سميرة ر. خليل، ربّة منزل

ما إن عادت شيرين إلى المنزل، تفيض فرحاً، آخذة ابنها المندهش في عناق، حتى عرفت أن كل شيء سار أفضل بكثير مما تصوّرتُ. شعرتُ أن الله استجاب إلى صلواتي، وأنها لم تعد تفتقر إلى ما تكتشفه عن هويّتها. سوف تتكيّف أخيراً مع الحياة العادية،

تُربي ابنها، تتزوّج ثانية وتنسى أمر كلّ الطيش الغريب الذي أودى بها إلى حالة من الانشراح والاكتئاب في آن.

«أحبك، ماما».

كان دوري أن أعانقها وأضمّها إلى صدري. أعترف أنني خلال فترة غيابها، شعرت بالخوف من أنها قد تبعث بمن يأخذ فايورل إليها، وألا يرجعا أبداً.

بعد أن أكلتْ واستحمّتْ وأخبرتنا عن لقائها والدتها الحقيقية ووصفت ريف ترانسلفانيا (لا أكاد أذكره، فآنذاك كان جلّ اهتمامي إيجاد دار أيتام)، سألتُها متى تنوي العودة إلى دبي.

«الأسبوع المقبل، لكن، عليّ الذهاب إلى اسكوتلندا أولاً للقاء أحدهم».

رجل!

قالت على الفور وكأنها تجيب عن ابتسامة العارف التي رسمتُها: «للقاء امرأة. أشعر أنني منوطة بمَهَمّة. فيما كنا نحتفل بالحياة والطبيعة، اكتشفت أشياءً كنت أجهل وجودها حتى. فالأمر الذي خِلتُ أن من الممكن إيجاده عبر الرقص فقط، موجود في كل مكان. وله وجه امرأة. رأيت في...».

انتابني الفزع. قلتُ لها إن مهمّتها تربية ابنها، إجادة عملها، كسب المزيد من المال، الزواج ثانية، احترام الله على قدر معرفتنا له.

لكن شيرين لم تكن مصغية.

«حدث ذلك ليلة تحلّقنا حول النار، شربنا، روينا روايات مشوّقة واستمعنا إلى الموسيقا. ما عدا المطعم، لم أشعر بحاجتي إلى الرقص

طوال الوقت الذي قضيته هناك، كما لو أنني كنت أُخزّن الطاقة في أشياء أخرى. فجأة، شعرت أن كل شيء من حولي حيّ نابض. كما لو أنني مع الخَلق واحد، ولنا الكيان نفسه. بكيتُ فرحاً عندما بدت النار تتّخذ شكل وجه امرأة، ملؤه العطف، يبتسم لي».

انتفضتُ. لعلها كانت إحدى الشعوذات الغجرية. وفي الوقت نفسه، استحضرتُ صورة الفتاة الصغيرة في المدرسة التي قالت إنها رأت «امرأة في حلّة بيضاء».

«لا تؤخذي بأمور كهذه، فهي من أعمال الشيطان. لطالما كنا خير قدوة لك، لماذا تعجزين أن تعيشي حياة عاديّة؟».

من الواضح أنني كنت متسرّعة عندما خِلت أن رحلة البحث عن والدتها الحقيقية قد أتت عليها بالخير. مع ذلك، وبدلاً من أن يصدر عنها رد فعل عدائي، ابتسمت كعادتها وتابعت:

«ما العادي؟ لماذا يرزح أبي تحت ثقل العمل وما لدينا من مال يكفي لدعم ثلاثة أجيال؟ هو رجل نزيه ويستحق المال الذي يجنيه. لكنه على الدوام يقول، بشيء من عزّة النفس، إن لديه الكثير من العمل. لماذا؟ ما الداعي؟».

«هو رجل يحيا حياة من الوقار والجهد».

«عندما كنت أعيش تحت سقف هذا المنزل، كان لدى عودته كل مساء يبادرني بالسؤال عن فروضي المدرسية، ويقدّم لي بعض الأمثلة موضحاً أهمية عمله للعالم. ثم يدير التلفاز، يطلق بعض التعليقات على الوضع السياسي في لبنان، ويقرأ بعض الكتب المتخصصة قبل يخلد إلى النوم. لكنه كان منشغلاً على الدوام. والأمر عندكِ سيّان. كنت الفتاة الأكثر أناقة في المدرسة، اصطحبتِني إلى الحفلات، أبقيتِ على المنزل مرتباً، كنتِ دائمة

الطيبة والحب، أحسنتِ تربيتي. لكن ماذا يحدث الآن مع تقدّمك في العمر؟ ماذا ستفعلين بحياتك بعد أن كبرتُ وأصبحتُ مستقلّة؟».

«سوف نجوب العالم ونستمتع براحة جديرين بها».

«لكن، لماذا لا تفعلين ذلك الآن، وأنت موفورة الصحة؟».

كنت قد سألت نفسي السؤال ذاته، لكنني شعرت أن زوجي يحتاج إلى العمل، ليس من أجل المال، بل ليحس بجدواه، ليُظهر أنّ بلد الاغتراب أيضاً يكرّم التزاماته. كان متى أخذ إجازة، يمكث في البلدة، لكنه سرعان ما يجد الذريعة ليتسلّل إلى المكتب، للتحدّث إلى زملائه، واتخاذ قرار أمكن أن ينتظر بكل سهولة. حاولت دفعه إلى ارتياد المسرح، السينما، المتاحف، وكان يلبّي. لكن لطالما انتابني الشعور بأنّ ذلك كان يُضجره، فما انصب اهتمامه إلّا على الشركة، الوظيفة، العمل.

للمرة الأولى، تحدّثتُ إليها وكأنها صديقة وليس ابنة. لكنني اخترت كلماتي بعناية، وتكلّمت بطريقة تتمكّن من استيعابها.

«أتحاولين القول إن والدك هو أيضاً يسعى إلى ملء ما تسمّينه «الفراغات»؟».

«يوم يتقاعد، مع أنني لا أعتقد فعلاً أن هذا اليوم آتٍ، سوف يقع في اكتئاب عميق. أنا واثقة بذلك. ماذا سيفعل بهذه الحرية الصعبة. سوف يُهنئه الجميع على سيرة مهنية لامعة، على الإرث الذي يتركه، بفعل النزاهة التي أدار بها شركته. لكن لن يكون لدى أحد وقت ليخصّصه له، ذلك أن تدفق الحياة يستمر، والكلّ مأخوذ به. سيشعر أبي بالمنفى من جديد، لكن هذه المرة، لن يكون أمامه بلد يلتجئ إليه».

«الديكِ فكرة أفضل؟».

«واحدة فقط: لا أريد أن يحصل الأمر نفسه لي. أنا متهوّرة جداً. أرجوك لا تفهمي ذلك بطريقة خاطئة. لا ألومك ولا ألوم أبي بالمطلق على أنكما قدوتي. أحتاج أن أتغيّر، أن أتغيّر بسرعة».

ديدر أونيل، تُعرف بـ «إذا»

تجلس في الظلّ.

بالطبع، غادر الصبي الغرفة في الحال. الليل مملكة الرعب، مملكة وحوش الماضي، أيام هِمنا كالغجر، كمعلّمي الراحل. رحمة «الأم» على روحه، عساه يُحبّ ويُعزّ إلى أن يحين وقت عودته. لم تدرِ أثينا ما تفعل إذ أطفأت النور. تسأل عن ابنها، وأخبرها ألّا تقلق، أن تدعني أهتم بالأمر. أخرج، أدير التلفاز، أجد قناة للرسوم المتحركة وأكتم الصوت؛ يجلس الولد هناك. حُلّت المشكلة. أتساءل كيف كانت الحال في الماضي. ذلك أن النسوة اللائي كنّ يحضرن لأداء الطقس الذي توشك أثينا أن تشارك فيه، لا بُدّ أنهن جلبن أولادهن، ولم يكن من تلفاز. ماذا كان يفعل المعلمون حينها؟

لحسن الحظ، لستُ مضطرة إلى أن أقلق بهذا الشأن.

ما يختبره الصبي أمام شاشة التلفاز، وهو مَعْبَر إلى واقع مختلف، يشبه تماماً الحالة التي سأُدخل أثينا فيها. كل شيء شديد البساطة والتعقيد في آن! هو بسيط لأن كل ما يتطلّبه هو تغيير الموقف بالقول: لن أسعى إلى البحث عن السعادة بعد الآن. من الآن فصاعداً، أنا مستقلّة؛ أرى الحياة من ناظريّ وليس من ناظري ناس آخرين. سوف أسعى إلى البحث عن مغامرة كوني حيّة.

وهو معقّد: لماذا لا أبحث عن السعادة وقد علّمني الجميع أن السعادة هي الهدف الوحيد الجدير بأن نصبو إليه؟ لماذا أسعى إلى المجازفة في اتباع طريق لم يتّبعها آخر؟

في النهاية، ما السعادة؟

الحب، يقولون لي. لكنّ الحب لا يجلب السعادة ولم يجلبها يوماً. فالحب، على العكس من ذلك! إنه حالة مستمرة من القلق، بل ساحة معركة، ليالٍ هجرها النوم، نتساءل فيها إن كان ما نفعله صواباً. الحب الحقيقي مزيج من الانتشاء والغُصّة.

حسنٌ إذاً، السلام. السلام؟ إن نظرنا إلى «الأم»، لرأينا أنها ليست في سلام أبداً. الشتاء يُقاتل الصيف، الشمس تُعاكس القمر، النمر يطارد الإنسان، والإنسان يخشى الكلب، والكلب يطارد القطة، والقطة تطارد الفأر، والفأر يُفزع الإنسان.

المال يجلب السعادة. حسنٌ. في هذه الحال، فإن كل الذين يجنون مالاً يكفيهم لبلوغ مستوى معيشة راقياً، فسوف يتوقفون عن العمل. لكن، آنذاك، يمسون أكثر كدراً من ذي قبل، كما لو أنهم خائفون من فقدان كل شيء. المال يجذب المال، هذا صحيح. قد يجلب الفقر التعاسة، لكن ليس بالضرورة أن يجلب المال السعادة.

قضيت ردحاً من حياتي بحثاً عن السعادة. الآن ما أريده هو الفرح. الفرح مثل الجنس، يبدأ وينتهي. أريد المتعة. أريد أن أكون راضية، لكن السعادة؟ لم أعد أقع في هذا الفخ. عندما أكون مع مجموعة من الناس، وأريد استفزازهم، أطرح جملة من الأسئلة أهمها: «هل أنتم سعداء؟»، يجيب كلٌّ منهم: «نعم، أنا كذلك».

ثم أسأل: «لكن ألا تريدون المزيد؟ ألا تريدون أن تكبروا بعد؟». يجيبون كلّهم: «بالطبع».

ثم أقول: «إذاً أنتم لستم سعداء». ويبدّلون الموضوع.

عليّ العودة إلى الغرفة حيث أثينا جالسة. الغرفة مظلمة. تسمع أثينا وقع خطواتي؛ يُشعل عود ثقاب وتُضاء شمعة.

«نحن محاطون بـــ «الرغبة الكونية». هي ليست سعادة، إنها رغبة. والرغباتُ لا تُشبع مطلقاً. إن أُشبعت، فسوف تكفّ عن كونها رغبات».

«أين ابني؟».

«ابنك بخير. يشاهد التلفاز. أريدك أن تنظري إلى الشمعة فحسب. لا تتكلّمي. لا تقولي شيئاً. آمني فقط».

«بماذا أؤمن؟».

«سألتك عدم قول أي شيء. آمني فقط. لا تشكّي في شيء. أنت حيّة، وهذه الشمعة هي نقطتك الوحيدة في الكون. آمني بذلك. تخلّي عن فكرة أن الطريق ستقودك إلى هدفك. الحقيقة أننا مع كل خطوة نخطوها، نصل. كرّري هذا لنفسك كل صباح: «لقد وصلت». بهذه الطريقة سوف تجدين أن من الأسهل البقاء على اتصال بكل ثانية من يومك».

سكتُّ قليلاً.

«شعلة الشمعة تُضيء عالمك. سلي الشمعة: «من أكون؟»».

سكتُّ قليلاً، ثم تابعت:

«يمكنني تصوُّر جوابك. أنا كذا وكذا، مررت بهذه التجارب

وتلك. لديّ ابن. أعمل في دُبي. الآن، اسألي الشمعة مجدداً: «من لا أكون؟».

انتظرتُ مجدَّداً، ومجدَّداً تابعت:

«قلتِ على الأرجح: لست راضية. لست أماً نموذجية تهتم بابنها وزوجها، تهتم بامتلاك منزل وحديقة ومكان تقضي فيه العطلة الصيفية. أهذا ما قلتِه؟ يمكنك الكلام الآن».

«نعم، هذا ما قلته».

«حسناً. إننا على الطريق الصحيحة. أنتِ، مثلي، شخص غير راضٍ. «واقعك» لا يتماشى مع «واقع» آخرين. وأنت خائفة من أن يسير ابنك على الطريق ذاتها، هل هذا صحيح؟».

«نعم».

«مع ذلك، فأنت تعلمين أن باستطاعتك التوقّف. تكافحين، لكنك تعجزين عن التحكّم في شكوكك. حدّقي إلى الشمعة. في هذه اللحظة، الشمعة كونك. هي تركّز انتباهك؛ هي تُضيء الغرفة من حولك قليلاً. خذي نفساً عميقاً، احبسي الهواء في رئتيك أطول فترة ممكنة، ثم ازفري. كرّري ذلك خمس مرات».

أطاعت.

«ينبغي أن يكون هذا التمرين قد هدّأ روحك. الآن، تذكّري ما قلته: آمني. آمني بقدراتك؛ آمني بأنك سبق أن وصلتِ إلى حيث تريدين الوصول. في لحظة معينة من حياتك، كما أخبرتني لدى تناول الشاي عصر اليوم، قلتِ إنّك بدّلت سلوك الناس في المصرف حيث كنت تعملين، لأنك علّمتهم الرقص. هذا ليس صحيحاً. غيّرت كل شيء لأنك، من خلال الرقص، غيّرت واقعهم. آمنتِ

بقصة «الذروة»، التي على الرغم من أنني لم أسمع بها من قبل، فإنها تبدو مثيرة للاهتمام. الرقص يحلو لك، وقد آمنت بما كنت تفعلينه. لا يمكنك الإيمان بشيء لا يروق لك، أليس كذلك؟».
هزّت أثينا رأسها، مُبقية عينيها مثبَّتتين على شعلة الشمعة.

«الإيمان ليس الرغبة. الإيمان إرادة. الرغبات أشياء تحتاج إلى الإشباع، في حين أن الإرادة قوة. الإرادة تغيّر الحيّز من حولنا، كما فعلتِ بعملك في المصرف. لكنّنا، من أجل هذا، نحتاج إلى الرغبة أيضاً. أرجوك! ركّزي على الشمعة!

غادر ابنك الغرفة وذهب لمشاهدة التلفاز، ومعه خوفه من الظلمة. لكن لماذا؟ يمكننا إسقاط أي شيء على الظلمة، وفي العادة نُسقط عليها أشباحنا. يصحّ هذا على الأولاد وعلى الراشدين. ارفعي ذراعك اليمنى ببطء».

رفعت ذراعها. طلبت إليها فعل الأمر ذاته بذراعها اليسرى، نظرتُ إلى نهديها، أجمل كثيراً من نهديّ.

«الآن أخفضيهما ببطء مجدداً. أغمضي عينيك وتنفّسي بعمق. سوف أضيء النور. صحيح، إنها نهاية الطقس. فلنذهب إلى غرفة الجلوس».

نهضتْ بصعوبة نوعاً ما. تخدَّرت رجلاها بسبب وضعية الجلوس التي طلبت إليها أن تتّخذها.

كان فايورل قد غفا. أطفأت التلفاز، وتوجهنا إلى المطبخ.

سألتْ: «ما كان الهدف من ذلك كله؟».

«مجرد انتزاعك من الواقع اليومي. طلبتُ إليك التركيز على أي شيء، وأنا أحب الظلمة وشعلة الشمعة. لكنك تريدين أن تعرفي إلى ماذا أرمي، أليس صحيحاً؟».

عندئذٍ، أشارت أثينا إلى أنها سافرت خمس ساعات في القطار وابنها على حضنها، في الوقت الذي كان ينبغي فيه أن تحزم حقائبها للعودة إلى عملها. أمكنها الجلوس محدّقة إلى شمعة في غرفتها من دون الحاجة إلى المجيء إلى اسكوتلندا على الإطلاق.

أجبتُ: «بلى، كان ثمة حاجة. احتجتِ أن تعرفي أنك لست وحيدة، أن هناك آخرين على اتصال مثلك بالشيء نفسه. مجرد معرفة ذلك، تدفعك أن تؤمني».

«أؤمن بماذا؟».

«أنك على الطريق الصحيح. وأنك، كما سبق أن قلت، تصلين مع كل خطوة».

«أي طريق؟ خِلتُ أنني، بالذهاب بحثاً عن والدتي في رومانيا، سوف أجد على الأقل راحة البال التي أحتاج إليها بشدة. لكنني لم أجدها. أي طريق هذه التي تتكلمين عنها؟».

«لا أملك ولو فكرة. سوف تكتشفين ذلك عندما تبدأين بالتعليم فقط. عندما ترجعين إلى دبي، جِدي لك تلميذاً».

«أتعنين تعليم الرقص أو فنّ الخطّ؟».

«هذه أشياء تعرفينها. ينبغي لك تعليم ما تجهلينه، ما تريد «الأم» أن تُظهره عبركِ».

نظرتْ إليّ وكأنني جُننت.

قلت: «هذا صحيح. لماذا في رأيك طلبت أن تتنفّسي بعمق وأن ترفعي ذراعيك؟ لكي تؤمني بأن معرفتي تفوق معرفتك، لكن هذا غير صحيح. كانت ذلك مجرد طريقة لانتزاعك من العالم الذي أَلِفته. لم أسألك تقديم الشكر إلى «الأم»، والقول كم هي

رائعة، ولم أسألك إن كنت قد رأيت وجهها يسطع في ألسنة نار. طلبت منك مجرد تلك الحركة السخيفة التي لا جدوى منها، وهي رفع ذراعيك وتركيز انتباهك على شمعة. حسبك المحاولة، متى كان بالإمكان، والقيام بأمر خارج عن الواقع حوالينا.

عندما تبدأين بإيجاد طقوس لتلميذك كي ينفّذها، تكونين في موضع التلقّي، تلقّي الإرشاد. هنا يبدأ التدرّج، أو هذا ما قاله لي حاميّ. إذا كنتِ تريدين الأخذ بكلماتي، فلا بأس. لكن إذا توقّفت عن ذلك وواصلت حياتك كما هي في هذه اللحظة، فسوف ينتهي بك الأمر إلى الارتطام بحائط يُدعى «اللارضا».»

أرسلتُ بطلب سيارة أجرة، وتكلّمنا قليلاً عن الموضة والرجال، ثم رحلت أثينا. كنت واثقة بأنها ستصغي إليّ، لأنها، بالدرجة الأولى، كانت من النوع الذي لا يرفض تحدياً قط. صرخت لها مع انطلاق سيارة الأجرة: «علّمي الناس أن يكونوا مختلفين».

ذا الفرح. قد تكون السعادة في الشعور بالرضى إزاء كل ما كان لها: حبيب، ابن، وظيفة. وأثينا، على شاكلتي، لم تولد لتحيا هذا النمط من الحياة.

هيرون راين، صحافي

بالطبع، لم أستطع الإقرار بأنني مغرم. كان لي حبيبة أحبّتني وشاطرتني أحزاني وأفراحي.

كانت اللقاءات والأحداث المختلفة التي حصلت في سيبيو جزءاً من رحلة. ولم تكن المرة الأولى التي يحدث فيها هذا النوع من الأمور في اغترابي. عندما نخطو خارج عالمنا العادي ونخلّف وراءنا كل الحواجز والموروثات، يكبر فينا حسّ المغامرة.

عندما عدت إلى إنجلترا، كان أول ما قمت به إخبار المنتجين أنّ إعداد وثائقي عن شخصية دراكولا التاريخية كان هراء؛ وأن كتاباً وضعه إيرلندي مجنون قد رسم صورة فظيعة فعلاً من ترانسلفانيا، التي كانت في الواقع، أحد أروع الأماكن على الأرض. بديهياً، لم يكن المنتجون مسرورين. لكن، في تلك المرحلة، لم آبه لما جال في خاطرهم. تركت العمل في التلفزيون وذهبت كي أعمل لصالح إحدى أكثر الصحف اعتباراً.

آنذاك أدركت أنني أردت لقاء أثينا مجدّداً. هاتفتها ورتّبنا التنزّه معاً، قبل أن تعود إلى دبي. اقترحتُ عليها أن ترشدني في نزهة سياحية حول لندن.

أقلّتنا أول حافلة توقّفت، لم نسأل عن وجهتها. ثم اخترنا راكبة عشوائياً، وقرّرنا أن نترجّل متى هي ترجّلت. نزلتْ في «تيمبل»، ونحن كذلك.

مررنا بمتسوّل طلب مالاً لكننا لم نعطه شيئاً. واصلنا سيرنا، نستمع إلى الشتائم التي رشقنا بها، متقبّلين الأمر على أنه طريقته الوحيدة للتواصل معنا.

رأينا شخصاً يُخرّب حجرة الهاتف. أردت الاتصال بالشرطة، لكن أثينا أثنتني عن ذلك؛ لعل ذاك الشخص قد فسخ لتوه علاقته بحب حياته وكان في حاجة إلى التنفيس عن مشاعره. من يدري؟ ربما لم يكن عنده أحد يتحدّث إليه، ولم يتحمّل أن يرى الآخرين يُهينونه باستخدام ذلك الهاتف، لمناقشة صفقات عمل أو لأحاديث الحب.

طلبتْ إليّ أن أغمض عينيّ، وأن أصف تماماً الملابس التي كان يرتديها كلّ منا. ولعجبي، أخطأتُ في معظم التفاصيل.

سألتني عمّا كان على مكتبي في العمل، وقلت إن بعض الأوراق مترامية فوقه لأنني كنت كسولاً جداً للعمل على ترتيبها.

«هل فكّرت يوماً في أن قصاصات الورق تلك لها حياة ومشاعر، لها مستلزمات تطلبها وقصص ترويها؟ أعتقد أنك لا تولي الحياة الانتباه الذي تستحقه».

وعدتها أن أراجع الأوراق واحدة واحدة، لدى عودتي إلى العمل في اليوم التالي.

قام ثنائي من أجنبيين يحملان خريطة، بسؤال أثينا عن كيفية الوصول إلى بقعة سياحية محدّدة. زوّدتهما باتجاهات محدَّدة جدّاً لكنها غير صحيحة البتة.

«كل ما أخبرتهما به خاطىء!».

«لا يهم. سوف يضيعان، وهي الطريقة الفضلى لاكتشاف أماكن مشوّقة. حاول أن تملأ حياتك مجدداً ببعض الخيال؛ فوق رؤوسنا سماء أعطتها الإنسانية جمعاء تفسيرات منطقية ظاهرياً، بعد آلاف من السنوات التي قضاها البشر في رصدها. انسَ أمر كلّ ما تعلّمته عن النجوم وسوف تتحوّل من جديد ملائكة، أو أولاداً، أو أي شيء تودّ أن تؤمن به في تلك اللحظة. هي في النهاية مجرد لعبة. لن تزيدك بلاهة لكن بإمكانها أن تُغني حياتك».

في اليوم التالي، عندما رجعتُ إلى العمل، عاملت كل ورقة من الأوراق كما لو أنها رسالة موجّهة إليّ شخصياً وليس إلى المنظمة التي أمثّل. عند الظهر، تحدّثت إلى نائب رئيس التحرير، واقترحتُ كتابة مقال عن الإلهة التي يعبدها الغجر. استحسن الفكرة وتمّ تكليفي بالذهاب إلى الاحتفالات التي تقام في محجّ الغجر، سانت ماري دو لامير.

ومما لا يصدَّق أن أثينا لم تُبد أي رغبة في مرافقتي. قالت إن حبيبها، ذاك الشرطي الوهمي الذي كانت تستخدمه لإبقائي على بُعد منها، لن يحبّذ فكرة سفرها بصحبة رجل آخر.

«ألَمْ تقطعي وعداً لأمك بأن تقدّمي إلى القديسة وشاحاً جديداً؟».

«بلى، فعلت. إن حدث وكانت البلدة على طريقي، وهي ليست كذلك. إن حصل ومررت بها يوماً، فسوف أفي بوعدي».

كانت سترجع إلى دبي الأحد التالي، لكنها سافرت أوّلاً إلى اسكوتلندا مع ابنها، لترى المرأة التي التقيناها في بوخارست. لم أتمكن من تذكّر أحد من هناك. لكن، لعل «المرأة الطيف في اسكوتلندا»، مثل «الحبيب الطيف»، كانت عذراً آخر. وقررت ألّا أكون ملحاحاً. لكنني شعرت بالغيرة، كما لو أنها كانت تخبرني بأنها تفضّل أن تكون مع أشخاص آخرين.

استهجنتُ غيرتي. وقلت في نفسي لو أوكلت بالذهاب إلى الشرق الأوسط لكتابة مقالة حول فورة العقارات التي أوردها أحد الأشخاص في إحدى صفحات الأعمال، لالتهمتُ كل ما أمكنني مطالعته عن العقارات، الاقتصاد، السياسة، النفط، ليكون ذلك ببساطة طريقة للتقرب من أثينا.

أثمرتْ زيارتي إلى سانت ماري دو لا مير عن مقال ممتاز. بالاستناد إلى التقليد، كانت سارة الغجرية تعيش في البلدة الساحلية الصغيرة عندما وصلتها سالومة، خالة يسوع الناصري، ومريم المجدلية ومريم أم يعقوب برفقة لاجئين آخرين، هرباً من اضطهاد الرومان. مدّت لهم سارة يد العون. وأفضى بها الأمر إلى اعتناق المسيحية. خلال الاحتفالات، تؤخذ عظام من الرفات الموجود تحت المذبح، وتُرفع إلى أعلى، لمباركة حشد الغجر الواصلين

بقوافلهم من جميع أنحاء أوروبا، بملابسهم الزاهية الألوان وموسيقاهم. ثمّ تُجلب صورة سارة، مُزدانة بأجمل حلّة، من مكان بقرب الكنيسة حيث يحفظونها ــ ذلك أنّ الفاتيكان لم يطوّب سارة مطلقاً ــ وتُنقل من ثَمَّ في الموكب إلى البحر، عبر طرقات ضيقة تفترشها بتلات الورد.

يضع أربعة غجر بلباسهم التقليدي الذخائر على متن مركب تملؤه الزهور ويخوض البحر، في تمثيلية تعبّر عن وصول الهاربين ولقائهم سارة. وإذاك، تطغى الموسيقا والاحتفال والأغاني وسباق الثيران.

ساعدني مؤرّخ هو أنطوان لوكادور في إغناء المقال بوقائع مشوّقة عن الألوهة الأنثوية. أرسلتُ إلى أثينا الصفحتين اللتين كتبتهما لقسم الرحلات في الجريدة. كل ما تلقّيته في المقابل كان رداً ودوداً، تشكرني فيه على إرسالي المقال إليها، من دون أي تعليق آخر.

على الأقل، تأكّدتُ من أن عنوانها في دبي موجود حقاً.

أنطوان لوكادور، ٧٤، مؤرّخ، ICP، فرنسا

من السهل وصف سارة بأنها مجرد عذراء من العذراوات السمراوات الكثيرات في العالم.

بالاستناد إلى التقاليد، كانت سارة السمراء من سلالة نبيلة، وقد عرفت أسرار العالم. أعتقد أنها تجلٍّ إضافي لما يسمّيه الناس «الأم الكبرى»، إلهة الخَلق.

ولا يفاجئني البتة أن المزيد والمزيد من الناس يتّجهون إلى

الاهتمام بالتقاليد الوثنية. لماذا؟ لأن الله الآب مرتبط في أذهان الناس بتشدّد العبادة وانضباطها. بينما تُظهر الأم الإلهة أهمية الحب فوق جميع المحظورات والمحرّمات المألوفة.

لا تكاد الظاهرة تكون جديدة. فكلما أحكم دين من الأديان الخناق على أتباعه من خلال أحكامه، يتفلّت عدد ملحوظ منهم ويذهبون في البحث عن حرية أكبر في بحثهم عن الاتصال الروحاني. حدث ذلك في القرون الوسطى، حينما لم تقم الكنيسة الكاثوليكية بما يزيد عن فرض الضرائب وتشييد الأديرة والرهبانيات الرائعة البناء؛ فجاءت الظاهرة المعروفة بـ «الشعوذة» ردّ فعل على ذلك. ومع أنها قُمعت بالنظر إلى طبيعتها الثورية، فإنها خلّفت ذيولاً من الموروثات والتقاليد تمكّنت من البقاء على مرّ العصور.

بالاستناد إلى التقليد الوثني، تكون عبادة الطبيعة أكثر أهمية من تبجيل الكتب المقدّسة. الإلهة الأنثى في كل شيء وكل شيء جزء منها. العالم مجرد تعبير عن خيرها. ثمة تيارات فلسفية كثيرة، مثل الطاوية والبوذية، لا تميّز بين مخلوق وخالقه. لم يعد الناس يحاولون حلّ لغز الحياة، بل اختاروا أن يكونوا جزءاً منها. ما من أنثى في الطاوية أو البوذية، ذلك أن فيهما فكرة أن «كل شيء واحد».

في عبادة «الأم الكبرى»، ينتفي ما نسمّيه «الخطيئة»، وهو في العادة انتهاك لبعض القوانين الأخلاقية الاعتباطية. الجنس والأعراف هما، بشكل عام، أكثر تفلّتاً من القيود لأنهما جزء من الطبيعة ولا يمكن اعتبارهما من ثمار الشيطان.

تُظهر الوثنية الجديدة أن الإنسان قادر على العيش من دون دين

مؤسساتي فيما يواصل بحثه الروحاني بغية تبرير وجوده. لو كان الرب أنثى، فكل ما نحتاج إليه هو التجمّع مع غيرنا من الناس، وعبادتها عبر طقوس تهدف إلى إشباع الروح الأنثوية. طقوس تنطوي على الرقص والنار والماء والهواء والأرض، والأغنيات والموسيقا والزهور والجمال.

هذا تيار متعاظم منذ السنوات الأخيرة القليلة. قد نكون شهوداً على لحظة شديدة الأهمية في تاريخ العالم، حينما تنصهر «الروح» أخيراً مع «المادة»، وتتّحدان وتتحوّلان. في الوقت نفسه، أتصوّر أنه سينشأ ردّ فعل عنيف جداً من مؤسسات دينية منظّمة، بدأت تفقد أتباعها. سوف يزداد التزمّت.

بصفتي مؤرّخاً، أحسُّ بالسرور لموازنة المعطيات وتحليل هذه المواجهة بين حرية العبادة وواجب الطاعة، بين الله الذي يتحكّم في العالم والإلهة الأنثى التي هي جزء من العالم، بين الناس الذين يتكتّلون في مجموعات حيث يكون الاحتفال فعلاً عفوياً وبين أولئك الذين يوحّدون الصفوف ويتعلّمون فقط ما عليهم فعله أو عدم فعله.

أود أن أكون متفائلاً، واثقاً بأن البشر قد وجدوا على الأقل الطريق إلى العالم الروحاني، لكنّ الإشارات غير إيجابية كثيراً. على غرار ما كان يحدث غالباً في الماضي، اليوم أيضاً قد تقمع حركة رجعية محافظة جديدة، مرة أخرى، عبادة «الأم».

أندريا ماك كاين، ممثّلة مسرحية

من العسير أن يكون المرء مُتجرداً، وأن يروي قصة بدأت بالإعجاب وانتهت بالضغينة. لكنني سأحاول، نعم، سأحاول فعلاً أن أصف أثينا التي التقيتها للمرة الأولى في شقة بشارع فيكتوريا.

كانت قد رجعت لتوّها من دبي مع كومة من المال ورغبة في مشاطرة كل ما عرفته عن غوامض السحر. تلك المرة، كانت قد قضت أربعة أشهر فقط في الشرق الأوسط: باعت بعض العقارات لبناء متجرين من المتاجر الكبرى، كسبت عمولة هائلة، وقرّرت أنها جنت ما يكفي لإعالة نفسها وابنها على مدى السنوات الثلاث التالية، وأن بإمكانها استئناف عملها لاحقاً إن أرادت. كان قد آن أوان الاستفادة من الحاضر إلى أقصى حد، وعيش ما تبقى لها من شباب، وتعليم آخرين كلّ ما تعلّمته.

استقبلتني بشيء من البرودة:

«ماذا تريدين؟».

«أعمل في المسرح، ونحن في صدد الإعداد لمسرحية عن وجه الله الأنثوي. سمعت من صحافي صديق أنك قضيت وقتاً في جبال البلقان مع بعض الغجر، وان لديك استعداداً لتخبريني عن تجاربك هناك».

«أتعنين أنك جئت إلى هنا لمجرد الاستعلام عن «الأم» من أجل مسرحية؟».

«لماذا تعلّمتِ عنها؟».

سكتتْ أثينا، نظرت إليّ من الرأس إلى القدم، وابتسمت:

«أنتِ على حق. هذا درسي الأول كمعلّمة: علّم أولئك الذين يبتغون العلم. السبب لا يهمّ».

«العفو؟».

«لا عليكِ».

تابعتْ: «إن أصول المسرح مقدّسة. بدأت في بلاد الإغريق مع أناشيد ديونيسوس، إله الخمرة والانبعاث والخصوبة. لكن يُعتقد أن الناس في أزمنة موغلة جدّاً في القدم قد أدّوا طقوساً كانوا يدّعون من خلالها أنهم أشخاص أُخر، كطريقة للتواصل مع المقدَّس».

«الدرس الثاني، شكراً لك».

«لا أفهم. جئتكِ لأتعلم وليس لأُعلّم».

كانت هذه المرأة قد بدأت تُغيظني. يرجّح أنها كانت تسخر مني.

«حاميتي...»

«حاميتُكِ؟»

«سأشرح مرة أخرى. قالت حاميّتي أنني سأتعلّم ما يلزمني تعلّمه إذا تمّ تحريضي على ذلك فقط. ومنذ عودتي من دبي، كنت الأولى التي تُظهر ذلك لي. ما قالته حاميّتي منطقي».

شرحت أنني، في بحثي حول المسرحية، تنقّلت من معلم إلى آخر، لكنني لم أجد قط أن تعاليمهم كانت استثنائية في أي شكل من الأشكال. لكن على الرغم من ذلك، فإن اهتمامي بالمسألة أخذ يتعاظم فيما ثابرت. كما ذكرت أنّ هؤلاء الناس قد بدوا مرتبكين لا يثقون بما يريدون.

«مثلاً؟».

الجنس. في بعض الأماكن التي ذهبت إليها، كان الجنس حراماً تماماً. في أماكن أخرى، لم تُعطَ ممارسة الجنس حرية مطلقة فحسب، بل إنها شجّعت الجنس الجَماعي. طلبتُ تفاصيل أكثر، ولم أتمكّن من معرفة ما إذا كانت تقوم بذلك لامتحاني أو لأنها لم تعرف ما كان يدور في خلد الآخرين. تكلّمت أثينا قبل أن أتمكّن من الإجابة عن سؤالها.

«أَوَ تشعرين بالرغبة عندما ترقصين؟ أَوَ تشعرين وكأنك تستحضرين طاقة أعظم؟ أَوَ تمرّين، وأنت ترقصين، بلحظات تشعرين فيها أنك كففت عن كونك أنتِ؟».

لم أدر ما أقول. في الملاهي الليلية أو في الحفلات التي أقيمت في بيوت أصدقاء، كانت الشهوانية بكل تأكيد جزءاً مما شعرت به وأنا أرقص. كنت أغازل الرجال وأستمتع بالرغبة تشتعل في عيونهم. لكن مع انقضاء الليل، كنت ألامس روحي أكثر، ولا يعود يهمني إغواء أحدهم.

تابعت أثينا:

«إن كان المسرح طقساً، فالرقص طقس أيضاً. وفضلاً عن ذلك هو طريقة قديمة جداً للتقرّب من شريك، كما لو أن الخيوط التي تربطنا بباقي العالم قد طُهّرت من المفاهيم المُسبقة والمخاوف. عندما ترقصين، يمكنك الاستمتاع بكونك أنتِ».

أخذتُ أصغي إليها باحترام أكبر.

«نرجع، من ثمّ، لنكون من كُنّا: أشخاصاً خائفين يحاولون أن يكونوا أكثر أهمية مما يعتقدون أنهم عليه».

هذا بالضبط ما شعرتُ به. أو ربما الجميع يشعرون كذلك!؟

«ألديكِ حبيب؟».

تذكّرت أحد الأماكن التي قصدتها للاستعلام عن تقاليد الـ «غايا»، حين طلب إليّ «درويد»[1] أن أمارس الحب أمامه. إنه أمر سخيف ومخيف. كيف يجرؤ أولئك الناس على استخدام الروحانيات بحثاً عن غاياتهم الأكثر شراً؟

سألت مجدداً: «ألديكِ حبيب؟».

«لديّ».

لم تُضف أثينا شيئاً. وضعت إصبعها على شفتيها فحسب، مشيرة إلى ضرورة أن ألزم الصمت.

وفجأة أدركتُ أن من الصعوبة بمكانٍ التزام الصمت في حضور شخص كنت قد التقيته لتوي. تقضي العادة بالتحدث عن شيء، أي شيء: الطقس، زحمة السير، أفضل المطاعم التي يمكن ارتيادها. كنا جالستين على الأريكة في غرفة جلوسها، التامّة البياض، فيها جهاز لتشغيل الأقراص المدمجة ورفّ صغير عليه أقراص CD موسيقية. لم يكن مِنْ كتب في أي مكان، ولا لوحات على الحائط. ولما كانت قد سافرت إلى الشرق الأوسط، فقد توقّعتُ أن أجد سلعاً وتذكارات من ذاك الجزء من العالم.

لكن الغرفة كانت فارغة، والتفّت حينها بذاك السكون.

كانت عيناها الرماديتان تحدّقان إلي، لكنني حافظتُ على ثباتي ولم يرفّ لي جفن. لعلها «الغريزة» لعلها طريقة للتعبير عن عدم خوفي، والمضيّ في التحدّي. بدا كل شيء، الصمت والغرفة

(١) كاهن سلتي. و«السلت» أو «الكلت» هم عرق هندو ـ أوروبي سكن قديماً أجزاءً من أوروبا الغربية والجزر البريطانية.

البيضاء وضجيج الزحمة في الشارع، أشياء غير حقيقية. كم سيطول بقاؤنا هناك، لا نأتي بصوت؟

رحت أتعقّب أفكاري. هل جئتها بحثاً عن مادة لمسرحيّتي أم طلباً للمعرفة والحكمة والقوة؟ لم أستطع أن أضع إصبعي على ما دفعني إلى المجيء ورؤية... ماذا؟ ساحرة؟

طَفَتْ أحلامي مراهقة. مَن منّا لا يرغب في لقاء ساحرة حقيقية، أن يتعلّم تأدية السحر، ويكسب احترام أصدقائه ومهابتهم؟ أي امرأة شابة لم تشعر بالإهانة من أزمنة القمع التي عانتها النسوة، وشعرت أنّ تحوّلها إلى ساحرة سيكون أفضل سبيل لاستعادة هويتها المفقودة؟ لقد مررت بهذه المرحلة، كنت مستقلة، وكنت أفعل ما يحلو لي في عالم المسرح التنافسي بامتياز. لكن لماذا لم أكن يوماً مسرورة؟ لماذا كنت أمتحن فضولي على الدوام؟

لا بُدّ أننا كنا في العمر نفسه... أم أنني كنت أكبرها سناً؟ هل كان لديها، هي أيضاً، حبيب؟

اقتربت أثينا. أصبحنا على بعد أقل من ذراع من الأخرى، وبدأتُ أشعر بالخوف. هل هي سحاقية؟

لم أحوّل نظري، لكنني سجّلت ملاحظة في ذهني عن مكان الباب، بحيث يمكنني الرحيل متى أردت. لم يرغمني أحد على الذهاب إلى ذلك المنزل لألتقي شخصاً لم أره في حياتي من قبل، ولأجلس هناك أهدر الوقت لا أقول شيئاً، ولا أتعلّم شيئاً على السواء. ما الذي أرادته مني؟

ذاك الصمت ربما. أخذت عضلاتي تتشنّج. كنت وحيدة لا حول ولا قوة لي. شعرتُ أنني في حاجة ماسة إلى الكلام، أو إلى إسكات ذهني عن القول إنني في خطر. أنّى لها أن تعرف من أكون؟ نحن ما نقوله من كلام!

هل سألتني أي شيء عن حياتي؟ أرادتْ أن تعرف إن كان لدي حبيب. حاولتُ الكلام أكثرَ عن المسرح، لكنني لم أستطع. ثم ماذا عن القصص التي كنت قد سمعتها عن أصل الغجر، عن إقامتها في ترانسلفانيا، أرض مصّاصي الدماء؟

كانت أفكاري تتدافع: كم تبلغ كلفة هذه الاستشارة؟ شعرت بالفزع. كان عليّ أن أسأل مسبقاً. ثروة؟ وإذا لم أدفع، فهل ستُلقي عليّ تعويذة تنتهي بتدميري؟

شعرتُ برغبة جامحة للنهوض، لشكرها، للقول إنني لم آتِ لمجرد الجلوس في صمت. إن ذهبتَ إلى طبيب نفساني، عليكَ أن تتكلّم. إن ذهبتَ إلى كنيسة، تستمعُ إلى وعظة.

إن ذهبتَ سعياً إلى السحر، تجد معلماً يريد أن يفسّر العالم لك، ويزوّدك بسلسلة من الطقوس لاتّباعها. لكن الصمت؟ لماذا جعلني أشعر بعدم الارتياح؟

راحت الأسئلة، السؤال تلو الآخر، تتوالد في ذهني، ولم أكفّ عن التفكير في سببٍ لجلوسنا هنا، لا نتفوّه بشيء. فجأة، وبعد خمس دقائق طويلة أو عشر دقائق على الأرجح، من السكون التام، ابتسمتْ.

ابتسمتُ أيضاً واسترخيت.

«حاولي أن تكوني مختلفة. هذا كلّ ما في الأمر».

«هذا كل ما في الأمر؟ هل الجلوس في صمت هو مختلف؟ أتصوّر أن، في هذه اللحظة بالذات، آلافاً من الناس في لندن متعطّشون لكي يتحدّثوا إلى أحد. وكل ما يمكنكِ قوله لي أنّ الجلوس في صمت يشكّل فارقاً!».

«بما أنك تتحدثين وتُعيدين تنظيم الكون، سينتهي بك الأمر

إلى إقناع نفسك بأنك على حق، وبأنني على خطأ. لكنك اختبرت بنفسك أن الجلوس في صمت هو بالفعل مختلف».

«إنه أمر مزعج. لا يعلّمك أي شيء».

بدتْ لا مبالية تجاه ردّ فعلي.

«في أي مسرح تعملين؟».

أخيراً، راحت تُبدي اهتماماً بحياتي!

أُعيد إليّ كياني، بمهنة وكل شيء! دعوتها إلى حضور المسرحية التي كنا نعدّها. كانت هذه طريقتي الوحيدة للانتقام: أن أُظهر قدرتي على أمور لم تكن تملكها أثينا. كان ذاك الصمت قد خلّف طعم الذُلّ فيّ.

سألتُ إن كان باستطاعتها إحضار ابنها، وقلت: لا، المسرحية للراشدين فقط.

«حسناً، يمكنني تركه مع والدتي. لم أرْتَد المسرح منذ زمن طويل».

لم تتقاض أتعاباً عن الاستشارة. عندما اجتمعت بأعضاء آخرين من فريق الممثّلين. أخبرتهم عن لقائي تلك المخلوقة الغامضة. كانوا جميعاً متحمّسين للقاء امرأة تسألك، لدى لقائها للمرة الأولى، أن تجلس في صمت.

وصلت أثينا في اليوم المحدّد. شاهدت المسرحية، بعد ذلك دخلت؛ حجرة الملابس الخاصة بي لإلقاء التحية، لكنها لم تقل إن استمتعت بوقتها أم لا. اقترح زملائي أن ندعوها إلى الحانة حيث كنا نذهب عادة بعد الأداء. هناك، بدلاً من التزام الهدوء، أخذت تجيب عن سؤال ظلّ معلّقاً منذ لقائنا الأول.

«لا أحد، ولا حتى «الأم»، يرغب في أن يُمارس الجنس لمجرد أن يكون احتفالاً. يجب أن يكون الحب موجوداً دائماً. أَوَ لم تقولي إنكِ التقيت أشخاصاً هكذا؟ إذاً، حذارِ».

لم يملك أصدقائي فكرة عمّا كانت تقوله، لكنّ الموضوع اجتذبهم، وراحوا ينهالون عليها بالأسئلة. شيء ما كدّرني. كانت إجاباتها أكاديمية جداً، كما لو أنها لم تكن على خبرة كافية في ما كانت تتكلم عنه. تحدّثت عن لعبة الإغواء، عن شعائر الخصوبة، وختمت بخرافة إغريقية، وأرجّح أنها فعلت ذلك، لأنني ذكرت في لقائنا الأول أن المسرح انطلق من بلاد الإغريق. لا بُدّ أنها قضت الأسبوع بأكمله تقرأ عن الموضوع.

«بعد أَلْفيات من السنين على الهيمنة الذكورية، نرجع الآن إلى عبادة «الأم الكبرى»، التي أطلق عليها الإغريق اسم «غايا»؛ وبالاستناد إلى الخرافة وُلدت عن «اللّا تكوُّن»، الفراغ الذي وُجد قبل الكون. جاء معها «إيروس»، إله الحب، من ثم وَلَدَتْ البحر والسماء».

سأل أحد أصدقائي «مَن كان الوالد؟».

«لا أحد. ثمة مصطلح تقني هو التوالد العذري، وهو عملية التكاثر الذي لا يستوجب إخصاب البويضة من ذكر. ثمة مصطلح روحاني أيضاً، نحن أكثر أُلفة معه، هو: «الحبل بلا دنس».

«انبثق من غايا كلّ الآلهة الذين سكنوا لاحقاً الفردوس الإغريقي، بمن فيهم عزيزنا ديونيسوس، الذي تجلّون. لكن، مع استقرار السلطة السياسية الأساسية على البشر في المدن الإغريقية، حدث نسيان «غايا»، وحلّ محلّها زوس وآريس وأبوللو وسواهم، الذين كانوا جميعاً على قدر كافٍ من الكفاءة. لكنهم افتقروا إلى فتنة «الأم» التي منها كان البدء».

ثم سألتنا عن عملنا. سألها المدير إن كانت تودّ تلقيننا بعض الدروس.

«عمّ؟».

«عمّا تعرفينه».

«أقول صراحة إنني تعلّمت عن أصول المسرح هذا الأسبوع. أتعلّم كل شيء متى احتجتُ إلى تعلّمه. هذا ما قالت لي «إدّا» أن أفعله».

إذاً كنتُ على حق!

«لكنني لا أستطيع مشاطرة كلّ ما علّمتني الحياة إياه».

وافقوها جميعاً. ولم يسأل أحد مَن إدّا.

ديدر أونيل، تُعرف بـ «إدّا»

قلتُ لأثينا: ليس عليك المجيء إلى هنا طوال الوقت لطرح أسئلة سخيفة. إن كان ثمة جماعة قررت أن تُنصّبك معلّمة، فلمَ لا تنتهزين الفرصة لتحويل نفسك إلى معلّمة؟

افعلي ما تعوّدتُ فعله.

حاولي أن تشعري بحال جيدة تجاه نفسك، حتى وإن كنت تشعرين بأنك المخلوقة الأقل جدارة على وجه الأرض. ارفضي كلّ تلك الأفكار السلبية، ودعي «الأم» تستحوذ على جسدك وروحك؛ سلّمي نفسك للرقص أو للصمت أو للأنشطة اليومية العادية، كأن تصطحبي ابنك إلى المدرسة، تعدّي العشاء، تتأكدي من أن المنزل مرتّب ونظيف. في كل شيء عبادة إن ركّزت ذهنك على اللحظة الحاضرة.

لا تحاولي إقناع أحداً بأي شيء. إذا كنت تجهلين أمراً، اسألي عنه أو ابحثي عنه لمعرفته. لكن عندما تقومين بالفعل، كوني كالنهر الدافق الصامت، وشرّعي نفسك لطاقة أعظم. آمني ـــ هذا ما قلته في لقائنا الأول ـــ آمني ببساطة أن لديك الإمكانية.

في البداية، ستكونين مرتبكة وفاقدة الثقة. بعد ذلك يبدأ إيمانك بأن الجميع قد حُفظوا في الذكرة. هذا غير صحيح. أنتِ تملكين المعرفة، المسألة مسألة وعي. من السهل أن تكون الأذهان على الأرض في إحباط؛ فهي تخشى المرض والغزو والهجوم والموت. حاولي أن تعيدي فرحها المفقود إليها.

كوني واضحة.

أعيدي برمجة نفسك كل دقيقة من اليوم، بأفكار تسهم في نموّك. عندما تشعرين بالغيظ أو الارتباك، حاولي الضحك على نفسك. اضحكي عالياً على المرأة التي ترزح تحت عذابات الشكوك والقلق، المرأة المقتنعة أنّ مشكلاتها أهم ما في العالم. اضحكي على سخافة الوضع المجرّدة، على واقع أنك على الرغم من تجسيدك «الأم»، لا تزالين تؤمنين بأن الله رجل يضع القوانين. معظم مشكلاتنا تنبع من هذا بالضبط، من اتّباع القوانين.

ركّزي.

إن كنت تعجزين عن إيجاد ما تركّزين ذهنك عليه، فركّزي على تنفّسك. إنّ نهر نور «الأم» يتدفّق عبر أنفك. أصغي إلى نبض قلبك، اتّبعي الأفكار التي يمكنك التحكّم فيها، تحكّمي في رغبتك في النهوض فوراً، والقيام بشيء «مفيد». اجلسي لدقائق قليلة كل يوم، لا تفعلي شيئاً خلالها، استخلصي ما أمكنك من هذا الوقت.

عندما تغسلين الأطباق، صلّي. قدّمي الشكر لوجود أطباق تغسلينها؛ ذلك يعني وجود الطعام، الذي أطعم أحدهم، يعني أنك غمرت شخصاً أو أكثر برعايتك، أنك طهوت وأعددت المائدة. تخيّلي ملايين الناس في هذه اللحظة ممّن لا يملكون شيئاً على الإطلاق لغسله، وما من أحد على الإطلاق ليعدّوا له المائدة.

ثمة نساء يقلن: لن أغسل الأطباق، فليقم الرجال بذلك. حسناً، فليقم الرجال بذلك إن أرادوه، لكن هذا لا يمت بصلة إلى المساواة. لا ضير البتة في أداء الأمور البسيطة، مع أنني إذا نشرت مقالة في الغد مُصرّحة بأفكاري، فسوف أُتّهم بالعمل ضدّ قضية المرأة. هذا هراء! كما لو أنّ غسل الأطباق أو ارتداء صدرية، أو أن يكون هناك من يفتح لي الباب أو يغلقه، إذلالٌ لي كامرأة. الواقع أنني أعشق أن يفتح رجل لي الباب. بالاستناد إلى آداب السلوك، هذا يعني: «هي تحتاج لأن أفعل ذلك لأنها هشّة». لكن مكتوب في روحي: «أنا أعامل كإلهة. أنا ملكة». لست هنا لأعمل لصالح قضية المرأة، لأن كلاّ من الرجال والنساء بمثابة تجلٍّ لــ «الأم»، لــ «الوحدة الإلهية». لا يمكن لأحد أن يكون أعظم من هذا.

أحبّذ أن أراكِ تعطين دروساً عمّا تعلّمتِه. التجلّي هدف الحياة الأوحد! أنت تنقلين نفسك، تُصغين إلى نفسك وتندهشين من مدى قدرتك. أتذكرين وظيفتك في المصرف؟ ربما لم تفهمي جيداً أن ما حدث كان نتيجة الطاقة التي تتدفق من جسدك وعينيك ويديك.

ستقولين: «لا، كان الرقص هو السبب».

الرقص كان مجرد طقس. ما الطقس؟ إنه يعني تحويل شيء رتيب إلى شيء مختلف، متواتر، قادر على نقل «الوَحدة». لهذا أقول مجدداً: كوني مختلفة حتى عندما تغسلين الأطباق. حرّكي يديك

لئلا تكرّرا الحركة ذاتها مرّتين، مع أنهما تحافظان على الإيقاع ذاته.

إن وجدت أنّ تخيّل زهور، طيور، أشجار في الغابة، أمراً مساعداً، فحاوليه. لا تتخيّلي أشياء منفردة، مثل الشمعة التي ركّزت عليها عندما جئتني للمرة الأولى. حاولي التفكير في شيء جَماعي. أَوتعرفين ما ستجدين؟ أنكِ لم تختاري فكرتك.

سأعطيك مثلاً: تخيّلي سرباً من الطيور. كم طيراً رأيتِ؟ أحد عشر، تسعة عشر، خمسة؟ فكرك مُبهم، لكنك لا تعرفين عددها بدقة. إذاً من أين أتتك الفكرة؟ هي وضعتها هناك. هي التي تعرف العدد الدقيق للطيور والأشجار والأحجار والزهور، هي، في ذاك الجزء من الثانية، استحوذت عليكِ وأرتك قدرتها.

أنتِ ما تؤمنين بأنك عليه.

لا تكوني كأولئك الذين يؤمنون بـــ «التفكير الإيجابي»، ويقولون لأنفسهم إنهم محبوبون وأقوياء ومقتدرون. لست في حاجة إلى فعل ذلك، لأنك تعرفينه. وعندما يساورك الشك، الذي أعتقد أنه يحصل غالباً في هذه المرحلة من التطوّر، افعلي كما اقترحتُ عليك. بدل أن تحاولي إثبات أنك أفضل مما تخالين، اضحكي فحسب. اضحكي على قلقك وعدم ثقتك. انظري إلى قلقك بروح النكتة. سيكون ذلك صعباً في البداية، لكنك ستتعوّدينه تدريجاً.

عودي الآن والتقي كل أولئك الناس الذين يعتقدون أنك تعرفين كل شيء. اقتنعي بأنك على حق، لأننا جميعاً نعرف كلّ شيء، إنها مجرد مسألة إيمان.

آمني.

كما قلت لك في بوخارست أول ما التقينا، الجماعات مهمة جداً، لأنها تدفعنا إلى التقدّم. إذا كنت وحدك، فكل ما تستطيعين فعله هو الضحك على نفسك. لكن إذا كنت مع آخرين، ستضحكين وتتصرفين على الفور.

الجماعات تتحدّانا. الجماعات تسمح لنا باختيار انجذاباتنا. الجماعات تُوجِد الطاقة الجَماعية. ويحصل حينها الانتشاء بسهولة أكبر، لأنّ الجميع ينقلون العدوى إلى الجميع.

وبالطبع، يمكن للجماعات أن تدمّرنا أيضاً. لكنّ التعايش مع الآخرين جزء واحد فقط من الحياة ومن حال البشر. وكلّ من أخفق في تطوير غريزة البقاء، لم يفهم شيئاً مما تقوله «الأم».

أنتِ محظوظة. فقد سألتك جماعة للتو أن تعلّميها شيئاً، وهذا يجعل منك معلّمة.

هيرون راين، صحافي

قبل لقائها الأول بالممثّلين، أتت أثينا إلى منزلي. منذ أن نشرت مقالتي حول القديسة سارة، اقتنعتُ بأنني فهمتُ عالمها، وهو أمر غير صحيح البتة. أردت أن ألفت انتباهها فحسب. كنت أحاول أن أغيّر وجهة نظري، وأصدّق أن من الممكن وجود حقيقة غير مرئية قادرة على التدخّل في حياتنا. لكن السبب الوحيد الذي دفعني إلى ذلك كان حباً لم أشأ تصديق إحساسي به؛ وكان يكبر مع ذلك بطريقة سَلِسَة مدمّرة.

كنت مسروراً بعالمي، ولم أرغب في تغييره مطلقاً، مع أنني كنت مُسيّراً في ذلك الاتجاه.

قالت فور وصولها: «أنا خائفة. لكن عليّ المضي وفعل ما يطلبونه إليّ. عليّ الإيمان».

«مررتِ بتجارب كثيرة في الحياة. تعلّمتِ من الغجر، من الدراويش في الصحراء، من....».

«حسناً، ليس ذلك صحيحاً تماماً. ما معنى التعلّم: تكديس المعرفة أم تحويل حياتك؟».

اقترحتُ أن نخرج لتناول العشاء، والرقص قليلاً. وافقتْ على العشاء، لكن رفضتْ الرقص.

قالت، وهي تجول بنظرها في شقتي: «أجبني: هل التعلّم هو وضع الأشياء على الرف، أم أنه التخلّص من كلّ ما لم يعد مفيداً، ومتابعة الحياة من ثَمَّ، ونحن نشعر بأننا أخفّ؟».

على الرفوف كانت كلّ الكتب التي صرفت على شرائها وقراءتها والتعليق عليها بالحواشي، الكثير من المال والوقت. فيها كانت شخصيتي وتربيتي والمعلّمون الحقيقيون لي.

«كم من الكتب لديك؟ قد أقول إنها تفوق الألف. لكن لن تَفتح معظمها أبداً على الأرجح. أنت متشبّث بها لأنك لا تؤمن».

«لا أؤمن؟».

«لا. لا تؤمن وانتهى الأمر. أي شخص يؤمن، سيمضي ويقرأ عن المسرح، كما فعلتُ عندما سألتني أندريا عنه. لكن، بعد هذا تصبح المسألة مسألة أن تدع «الأم» تتكلّم من خلالك، وأن تقوم بالاكتشافات فيما هي تتكلّم. وخلال قيامك بهذه الاكتشافات، سوف تتمكّن من مَلء الفراغات التي تركها كل أولئك الكتّاب عن قصد، لحثّ خيال القارئ. وعندما تملأ الفراغات، يبدأ إيمانك بقدراتك.

كم من الناس يودّون مطالعة تلك الكتب، لكنهم لا يملكون المال لشرائها!؟ وأنت هنا تجلس محاطاً بكل هذه الطاقة الراكدة، لمجرد التأثير في من يزورك من أصدقاء. أو لشعورك بأنها لم تعلّمك شيئاً، وأنك في حاجة إلى استشارتها مجدداً!».

فكّرتُ في أنها كانت تقسو عليّ نوعاً ما، فأثار ذلك فضولي. «إذاً، تعتقدين أنني لستُ في حاجة إلى هذه المكتبة؟».

«أعتقد أن عليك القراءة. لكن لمَ التشبث بكل هذه الكتب؟ هل سيكون من المبالغة أن نغادر على الفور؛ وأن نوزّع معظم الكتب، قبل ارتيادنا المطعم، على كل من صادف عبوره الشارع في ذلك الوقت؟».

«لن تتّسع سيارتي لها كلها».

«يمكننا استئجار شاحنة».

«لكننا آنذاك لن نصل إلى المطعم في الوقت المحدَّد. إلى هنا، جئتِ إلى هنا لأنك كنت تشعرين بعدم الثقة، وليس لتخبريني ما عليّ فعله بكتبي. من دونها، سأشعر بالعريّ».

«تقصد، بالجهل».

«بأنني غير مثقّف، هي العبارة الصحيحة».

«إذاً، ليست الثقافة ما في قلبك، بل ما على الرفوف».

كفى يعني كفى. رفعت سماعة الهاتف لحجز طاولة. وقلت لإدارة المطعم أننا سنحضر في غضون ربع ساعة. كانت أثينا تحاول تجنّب المشكلة التي أتت بها إلى هنا.

إن إحساسها العميق بعدم الثقة جعلها تقف في موقف الهجوم؟ بدلاً من النظر إلى نفسها. احتاجت إلى رجل يساندها، ومن يدري،

ربما كانت سبر فكري ونيّاتي، لترى إلى أي حدّ يمكنني الذهاب، مستخدمة حِيَلها الأنثوية، لاكتشاف ما كنت مستعداً للقيام به من أجلها.

أن أكون بحضورها فحسب، بدا لي مبرّر وجودي. أهذا ما أرادت سماعه؟ حسناً سوف أخبرها بذلك عند العشاء. كنت قادراً على فعل أي شيء تقريباً، حتى هجر المرأة التي كنت أعيش معها، لكنني وضعت حداً، بالطبع، لوهب كتبي.

في سيارة الأجرة، عاودنا الحديث بموضوع جماعة المسرح. مع أنني في تلك اللحظة كنت مستعداً لمناقشة أمر لا أتحدّث عنه بحال من الأحوال، هو الحب. وجدته موضوعاً أكثر تعقيداً من ماركس، أو كارل يونغ أو حزب العمّال البريطاني، أو المشكلات اليومية في مكتب الصحيفة.

قلت، وأنا أرغب في الإمساك بيدها: «لا داعي للقلق. سيكون كل شيء على ما يرام. تحدّثي عن فنّ الخطّ. تحدّثي عن الرقص. تحدّثي عن الأشياء التي تعرفينها».

«إن فعلتُ ذلك، لن أكتشف أبداً ما أجهله. عندما أكون هناك، سيكون عليّ أن أسمح لذهني بالسكون، وأن أدع قلبي يتكلّم. لكنها المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك، وأنا خائفة».

«أتودين أن أرافقكِ؟».

قبلت على الفور. وصلنا إلى المطعم. طلبنا بعض النبيذ وبدأنا نشرب. كنت أشرب لكي أتحلّى بالشجاعة، لأقول ما اعتقدتُ أنني أشعر به. مع أن من السخافة، كما بدا لي، أن أُعلن حبي لشخص أكاد لا أعرفه. كانت تشرب لأنها كانت خائفة من التحدّث عمّا كانت تجهله.

بعد كأس النبيذ الثانية، أدركتُ كم أنها على الشفير. حاولتُ الإمساك بيدها، لكنها أبعدتها بلطف.

«لا ينبغي أن أكون خائفة».

«من الطبيعي أن ينتابك الخوف يا أثينا. غالباً ما أشعر بالخوف من جهتي. ومع هذا، متى كان لا بُدّ من ذلك، أمضي وأواجه ما يخيفني».

كنتُ على الشفير أيضاً. أعدتُ ملء كأسينا. ظلّ النادل يأتينا للسؤال عما نودّ تناوله من طعام، وظللتُ أقول له إننا سنطلب لاحقاً.

كنت أتحدث عن كل ما عَبَر ذهني. كانت أثينا تصغي بلباقة، لكنها بدت بعيدة، في عالم مظلم مليء بالأشباح. في لحظة من اللحظات أخبرتني مجدداً عن امرأة اسكوتلندا وما قالته. سألتُ إن كان من المنطقي تعليم ما نجهله.

أجابت: «هل علّمك أحدهم يوماً كيف تحبّ؟».

أيُعقل أنها كانت تقرأ أفكاري؟

تابعتْ: «مع ذلك، أنتَ قادر على الحب كأيّ إنسان آخر. كيف تعلّمت؟ لم تتعلّم، أنت تؤمن ببساطة. أنت تؤمن إذاً أنت تحبّ».

«أثينا...».

تردّدتُ ثم تمكّنت من إنهاء جملتي، لكن ليس بالطريقة التي كنت أنويها أبداً.

«... ربما علينا طلب بعض الطعام».

أدركتُ أنني لم أكن مهيّئاً بعدُ لذكر الأشياء التي كانت تكدّر عالمي. أشرتُ إلى النادل، وطلبت بعض المقبّلات، أتبعتها

بمقبّلات أيضاً، ثم بطبق أساسي من البودنغ وزجاجة نبيذ أخرى. كلما كسبت مزيداً من الوقت، كان أفضل.

«أنت تتصرّف بغرابة. هل السبب تعليقي على كتبك؟ افعل ما يحلو لك. ليس من شأني أن أغيّر عالمك. من الواضح أنني كنت أحشر أنفي حيث لم يجدر ذلك».

كانت قد راودتني فكرة «تغيير العالم» قبل ثوانٍ من ذكرها له.

«أثينا. أنتِ تخبرينني دوماً عن... لا، يلزمني التحدّث بأمر حصل في الحانة في سيبيو، مع الموسيقا الغجرية».

«تقصد في المطعم؟».

«نعم، في المطعم. اليوم كنا نناقش أمر الكتب، الأشياء التي نكدّسها وتتّخذ حيّزاً. لعلّكِ على حق. ثمة أمر أردتُ فعله مُذ رأيتك ترقصين تلك الليلة. هو يُثقل قلبي أكثر فأكثر».

«لا أعرف ما تعني».

«بالطبع تعرفين. أتكلّم عن الحب الذي أستكشفه الآن، وأبذل ما في وسعي لتدميره قبل أن يتكشّف عن نفسه. أودّك أن تقبليه. إنه القليل مما في نفسي، لكنه ليس ملكي. هو ليس حكراً عليكِ، لأن ثمة امرأة أخرى في حياتي. لكنني سأسعد إن قبلتِه. على أي حال. يقول جبران خليل جبران، شاعر لبناني من بلدك: «جميلٌ أن تعطي مَنْ يسألك ما هو في حاجة إليه، ولكن أجمل من ذلك أن تعطي من لا يسألك وأنت تعرف حاجته». إن لم أقل كلّ ما يلزمني قوله الليلة، سأكون مجرد مشاهد يشاهد الأحداث تتكشّف بدلاً من أن أكون الشخص الذي يختبرها في الحقيقة».

أخذتُ نفساً عميقاً. كان النبيذ قد ساعدني على الانعتاق.

اشتفّت كأسها، وفعلتُ بالمثل. ظهر النادل بالطعام، وأتى ببعض التعليقات حول الأطباق المختلفة، شارحاً عن المكوّنات والأسلوب الذي طُهيت به. ظلّت عيناي وعينا أثينا تتبادل النظرات. كانت أندريا قد أخبرتني أن هذا ما فعلته أثينا عندما التقيتا للمرة الأولى، وكانت على اقتناع بأن ذلك مجرد طريقة للتهويل على الآخرين.

كان الصمت مرعباً. تخيّلتها تنهض عن الطاولة، وهي تذكر حبيبها الشهير الوهمي من سكوتلند يارد، أو تقول إنها شعرت بالإطراء الشديد، لكن كان عليها أن تفكّر في الصف الذي كانت ستعطيه في اليوم التالي.

«وهل في ثروتك شيء تقدر أن تستبقيه لنفسك؟ فإنّ كلّ ما تملكه اليوم سيتفرّق ولا شك يوماً ما... فهل نسيتَ أنّ الأشجار في بستانك... تعطي لكي تحيا، لأنها إذا لم تعطِ عرّضتْ حياتها للتهلكة».

كانت تتكلّم بهدوء وحذر، بفعل ما شربته من نبيذ. غير أنّ صوتها أسكت كلّ ما من حولنا.

أي صحراء أعظم من الصحراء ذات الجرأة والجسارة على قبول العطية بما فيها الفضل والمنّة؟ ... إنّك إذا أعطيتَ، فإنما تعطي القليل من ثروتك».

قالت كل ذلك من دون أن تبتسم. شعرتُ وكأنني أحادث كائناً خرافياً.

«إنها كلمات كتبها الشاعر نفسه الذي استشهدتَ به، وقد تعلّمتها في المدرسة. لكنني لا أحتاج إلى الكتاب حيث أوردها الشاعر، فقد حفظت كلماته في قلبي».

شربَتِ القليل من النبيذ، وأنا أيضاً. لم أستطع أن أحمل نفسي على سؤالها إن قبلت حبّي أم لا، لكنني شعرت بأنني أخفّ حملاً.

«قد تكونين على حق. سوف أهب كتبي لمكتبة عامة وأحتفظ بالكتب التي سأقرؤها مجدَّداً يوماً ما».

«أهذا ما تريد التحدّث عنه الآن؟».

«لا. لكنني لا أدري كيف أتابع الحديث».

«فلنأكل إذاً، ونستمتع بالطعام. أيبدو ذلك فكرة جيدة؟».

لا. لم تبدُ فكرة جيدة. أردت سماع شيء مختلف، لكنني خشيتُ السؤال. لذلك رحت أثرثر عن المكتبات، الكتب والشعراء، نادماً على طلب هذا العدد الكبير من الأطباق. كنت أنا من أراد الهروب الآن، لأنني لم أعرف كيف أتابع.

في النهاية، جعلتني أقطع لها وعداً بأن أحضر إلى المسرح لأتابع درسها الأول. أمّا أنا، فكان ذلك إشارة لي. احتاجت إليّ؛ قبِلَتْ ما كنت أحلم بأن أقدّمه إليها مذ رأيتها ترقص في مطعم في ترانسلفانيا، وهو ما عجزتُ عن فهمه قبل تلك الليلة، أو، كما قالت أثينا، عن الإيمان به.

أندريا ماك كاين، ممثّلة

من حقّي أن ألقي اللامة. لولاي، لما أمكن أثينا أن تأتي المسرح ذاك الصباح، وتجمعنا كلنا، وتسألنا أن نتمدّد على خشبة المسرح ونبدأ بتمرين الاسترخاء الذي ينطوي على التنفّس وإدراك كل جزء من الجسد.

«ارخوا أفخاذكم...».

كنا طوع بنانها، كما لو أننا أمام إلهة، أمام شخص فاقنا معرفة، مع أننا أجرينا هذا التمرين مئات المرات من قبل. كنا جميعاً فضوليين لمعرفة ما التالي، «... الآن، ارخوا وجهكم، وتنفسوا بعمق».

هل اعتقدتُ حقاً أنها كانت تُعلّمنا أمراً جديداً؟ كنا نتوقع محاضرة، حديثاً! عليّ ضبط نفسي. فلنرجع إلى ما حدث حينها. استرخينا وتَبِعَ الاسترخاء صمتٌ أربكنا تماماً. عندما ناقشتُ الأمر مع زملائي لاحقاً، أجمعنا على أننا شعرنا بأن التمرين قد انتهى، وأن النهوض والنظر من حولنا آتيان. غير أن أحداً منا لم يفعل ذلك. بقينا ممدّدين، في نوع من التأمّل القسري لربع ساعة بدت طويلة حتى السأم. ثم، تكلّمت ثانية.

«كان لديكم متّسع من الوقت للشك بي الآن. بدا واحد منكم أو اثنان فارغي الصبر. لكنني سوف أطلب إليكم الآن أمراً واحداً: عندما أعدّ حتى الثلاثة، كونوا مختلفين. لا أقصد أن يكون واحدكم شخصاً آخر، أن يتصوّر نفسه حيواناً أو منزلاً. حاولوا نسيان كلّ ما تعلّمتموه عن دروس الدراما. لا أطلب إليكم أن تكونوا ممثّلين وأن تبرهنوا عن قدراتكم. أطلب إليكم التوقّف عن كونكم بشراً وأن تتحوّلوا شيئاً تجهلونه».

كنا لا نزال مستلقين جميعاً على الأرض، أعيننا مغمضة، وبالتالي لم يستطع أيّ منا أن يرى رد فعل الآخر. كانت أثينا تلعب على هذا الشك.

«سوف أقول بضع كلمات، وسوف تربطونها فوراً ببعض التصوّرات. تذكّروا أنكم جميعاً ممتلئون بالسمّ النافث من الأفكار المسبقة. إذا قلت «قدَر»، أرجّح أن تبدأوا بتخيّل حياتكم المستقبلية. وإذا قلت «أحمر»، أرجّح أن تبدأوا بإعطاء تفسير من

التحليل النفسي. ليس هذا ما أريده. أريدكم، كما ذكرت، أن تكونوا مختلفين».

لم تستطع شرح ما أرادته فعلاً. ولمّا لم يتذمّر أحد، كنت واثقة أنهم كانوا يتصرّفون بلباقة فحسب، وأنهم مع انتهاء «المحاضرة» لن يقوموا بدعوة أثينا مجدداً. وسوف يقولون لي حتى إنهم كانوا ساذجين في طلبها في المقام الأول.

قالت:

«الكلمة الأولى «مقدّس».

وهكذا، لئلا أموت ضجراً، قرّرت الانضمام إلى اللعبة. تصوّرت أمي، حبيبي، أولادي المستقبليين، مهنة لامعة.

«قوموا بحركة تعني «مقدّساً».

طويتُ ذراعيّ فوق صدري وكأنني أعانق جميع أحبائي. عَلِمتُ لاحقاً أن مُعظم الموجودين فتحوا أيديهم راسمين علامة صليب، وأنّ امرأة فتحت ساقيها، كما لو أنها كانت تمارس الحب.

«استرخوا مجدداً. وانسوا مجدداً كل شيء، وأبقوا عيونكم مغمضة. لا أنتقدكم، لكن ما رأيته، أَظْهَرَ أنكم كنتم تعطون شكلاً لما ترونه مقدّساً. ليس هذا ما أريده. عندما أردّد الكلمة الثانية، لا تحاولوا تعريفها بالطريقة التي تتجلّى بها في العالم. افتحوا كلّ المسارات، ودعوا سمّ الواقع ينضب. كونوا تجريديين، وحينها ستدخلون العالم الذي أحاول إرشادكم إليه».

كان للجملة الأخيرة سلطة حقّة، وشعرتُ بالطاقة في المسرح تتغيّر. عرف الصوت إلى أين أراد أخذنا. كانت معلّمة حينها، وليست مُحاضِرة.

قالت: «الأرض».

فجأة، فهمتُ ما قَصَدَتْه. لم يعد خيالي هو المهم، بل جسدي في اتصاله مع التربة. كنت الأرض.

«قوموا بحركة تمثّل الأرض».

لم أتحرك. كنت أرض المسرح.

قالت: «ممتاز. لم يتحرك أيّاً منكم. للمرة الأولى، خَبِرتم جميعاً الشعور ذاته، بدل وصف شيء، حوّلتم نفوسكم فكرة».

سكتتْ مجدداً، خلتْ فترة سكوتها خمس دقائق طوال. جعلنا السكوت في ضياع، عاجزين عن معرفة ما إذا كانت تجهل كيف تتابع، أو أنها لم تكن في ألفة مع إيقاع عملنا المكثّف عادة.

«سأقول كلمة ثالثة».

توقّفت قليلاً عن الكلام.

«مَرْكَز».

شعرتُ، وكان ذلك عن غير وعي تماماً، أن طاقتي الحيوية كلّها قد تمحورت على سُرّتي، حيث برقت صفاراً. أفزعني ذلك. فلو لمسها أحدهم، لفارقتُ الحياة.

«قوموا بحركة تمثّل «مركزاً»!».

بدت كلماتها كأمرٍ. وضعتُ يديّ فوراً على بطني لأحمي نفسي.

قالت أثينا: «ممتاز. يمكنكم الجلوس الآن».

فتحتُ عينيّ ورأيت أضواء خشبة المسرح الخامدة تُضاء فوقي، بعيدة وباهتة. دلّكتُ وجهي ونهضت. لاحظتُ الدهشة على زملائي.

سأل المدير: «أكان ذلك محاضرة؟».

«يمكنك تسميته محاضرة إن شئت».

«حسناً. أشكركِ على المجيء. الآن هلّا عذرتنا، علينا البدء بتمارين الأداء للمسرحية التالية».

«لكنني لم أنته بعد».

«ربما في وقت آخر».

بدا الجميع مرتبكين من ردّ فعل المدير. ساورتني الشكوك في البداية، لكن أعتقد أننا استمتعنا بالجلسة. كانت مختلفة، لا ندّعي فيها أننا أشياء أو أشخاص. لا نتصوّر تفاحاً أو شموعاً. لا نجلس في حلقة يمسك أحدنا بيد الآخر كما لو أننا نمارس طقساً مقدّساً. كانت الجلسة ببساطة أمراً تافهاً، وأردنا أن نرى إلى أين يمكنه أخذنا.

من دون ومضة انفعال، انحنت أثينا لالتقاط حقيبتها. في تلك اللحظة، سمعنا صوتاً آتياً من المقاعد.

«مذهل!».

كان هيرون قد أتى للانضمام إليها. كان المدير يخشاه، لأن هيرون كان على معرفة بنقّاد المسرح في الصحيفة التي يعمل فيها، وكانت لديه روابط مقرّبة مع وسائل الإعلام عامة.

«كففتم عن كونكم أفراداً وتحوّلتم أفكاراً. أتحسّر على أنكم مشغولون، لكن لا تقلقي يا أثينا، سوف نجد جماعة أخرى نعمل معها. آنذاك سأرى كيف يكون ختام «محاضرتك». لدي معارف».

كنتُ لا أزال أفكّر في النور الذي يعبر جسدي إلى سرّتي. مَن كانت تلك المرأة؟ هل خَبِرَ زملائي الأمر نفسه؟

قال المدير، مدركاً نظرات العجب على وجوه الجميع:

«لحظة. أفترض أن بإمكاننا تأجيل تمارين الأداء اليوم...».

«لا، ليس عليك فعل ذلك. فضلاً عن ذلك، ينبغي أن أعود إلى الصحيفة وكتابة شيء عن هذه المرأة. تابعوا ما تفعلوه دوماً. لقد وجدتُ قصة ممتازة لتوّي».

إن كانت أثينا شعرت بالضياع في خضم هذا الجدال بين الرجلين، فهي لم تظهره. ترجّلتْ عن خشبة المسرح وذهبت برفقة هيرون. استدرنا ناحية المدير، وسألناه لماذا أتى ببردة الفعل تلك.

«مع كل احترامي يا أندريا، اعتقدتُ أن الحديث في الحانة حول الجنس كان أكثر تشويقاً من الهراء الذي قمنا به للتو. هل لاحظت كيف أنها كانت تصمت بين الحين والحين؟ لم تدرِ ما الخطوة التالية التي وَجَبَ أن تتّخذها!».

قال أحد الممثّلين الأكبر سناً: «لكنني شعرت بشيء غريب. عندما قالت «مَرْكَز»، شعرتُ وكأن كلّ طاقتي الحيوية تتمحور حول سرّتي. لم أختبر هذا من قبل مطلقاً».

سألت ممثلة أخرى: «أفعلتَ؟ هل أنتَ واثق؟».

ويستشف من كلماتها أنها خبرت الأمر ذاته.

قال المدير مقاطعاً: «فيها شيء من الساحرة المشعوذة، تلك المرأة. فلنعد إلى العمل».

أجرينا تمارين المرونة المعتادة، والتحمية والتأمّل، نفّذناها حرفياً. ثم ارتجلنا بعض الحوارات، لننتقل مباشرة إلى قراءة النص الجديد. تدريجاً، بدا حضور أثينا يتلاشى، وأخذ كل شيء يرجع إلى ما

كان عليه: مسرح، طقس أوجده الإغريق منذ آلاف السنين، حيث تعوّدنا الادّعاء أن نكون أشخاصاً مختلفين.

لكنّ ذلك كان تمثيلاً مسرحياً بحتاً. لم تكن أثينا كذلك، وكنت عازمة على رؤيتها مجدداً، خصوصاً بعد ما قاله المدير عنها.

هيرون راين، صحافي

من دون علم أثينا، تَبِعْتُ الخطوات ذاتها التي كان الممثّلون يتبعونها، منفّذاً كل شيء طلبت إلينا فعله. الفارق بيننا أنني أبقيت على عينيّ مفتوحتين لكي أتمكّن من متابعة ما يحصل على خشبة المسرح. لحظة قالت «قوموا بحركة تمثّل «مَرْكَز»، وضعتُ يدي على سرّتي. ولعجبي، رأيت الكلّ يفعل ذلك، بمن فيهم المدير. ما الذي كان يحدث؟

عصر ذاك اليوم، كان عليّ كتابة مقال مملّ عن زيارة رئيس دولة؛ أمر مضجر فعلاً. ولكي أتسلّى ما بين إجراء الاتصالات الهاتفية، قرّرتُ أن أسأل زملائي في المكتب عن الحركة التي قد يقومون بها إن قلت كلمة «مَرْكَز». أتى معظمهم بتعليقات ساخرة عن الأحزاب السياسية. أشار أحدهم إلى مركز الأرض. وضع آخر يده على قلبه. لكن لا أحد، لا أحد على الإطلاق، فكّر في سرّته على أنها مركز أي شيء. مع ذلك، في النهاية، تمكّنتُ من التحدث إلى شخص كان لديه بعض المعلومات المشوّقة حول الموضوع.

عندما وصلتُ المنزل، كانت أندريا قد استحمّت، أعدّت المائدة وكانت تنتظرني لتناول العشاء. فتحتُ زجاجة من النبيذ الباهظ الثمن، ملأتُ كأسين وقدّمت إلي إحداهما.

«كيف كان عشاء الليلة الماضية؟».

لِكَمْ من الوقت يمكن لرجل أن يعيش مع كذبة؟ لم يكن عليّ فقدان المرأة الواقفة أمامي، التي لازمتني في السرّاء والضرّاء، التي كانت إلى جانبي على الدوام عندما شعرتُ أن حياتي قد فقدتْ معناها واتّجاهها. أحببتها، لكن في العالم المجنون الذي كنت أنغمس فيه بتهوّر، كان قلبي يطوف في البعيد، يحاول التكيّف مع شيء يحتمل أنه عرفه، لكنه عجز عن تقبّله: أن يكون كبيراً كفاية بحيث يتّسع لشخصين.

وبما أنني لن أجازف أبداً بالتخلّي عن المؤكّد لصالح المحتمل البسيط، فقد حاولتُ التقليل من أهمية ما حدث في المطعم، لعدم حدوث شيء، باستثناء تبادل أبيات لشاعر عانى الكثير لأجل الحب.

«أثينا شخص يصعب تعرّفه».

ضحكت أندريا.

«لهذا السبب بالذات لا بدّ أن الرجال يجدونها مذهلة جداً. هي توقظ غريزتكم الحامية تلك المتلاشية بسرعة».

من الأفضل تغيير الموضوع. لطالما اقتنعتُ أن للنساء قدرة خارقة على معرفة ما يجول في خلد رجل. كلّهن ساحرات.

«كنت أنظر إلى ما حدث في المسرح اليوم. لا تعلمين هذا، لكنني كنت مفتوح العينين طوال فترة التمارين».

«لطالما كانت عيناك مفتوحتين. أفترض أن ذلك جزء من كونك صحافياً. وسوف تخبرني الآن عن اللحظة التي فعلنا فيها جميعاً الشيء نفسه بالضبط. تحدّثنا كثيراً عن الأمر في الحانة بعد تمارين الأداء».

«أخبرني مؤرّخ عن معبد إغريقي حيث درجوا على التنبّؤ

بالمستقبل [ملاحظة: معبد أبوللو في دلفي]، والذي احتوى على حجر من الرخام يدعى «السُرّة». تصف روايات من ذاك الزمن دلفي أنها مركز الكوكب. قصدتُ أرشيف الصحيفة للقيام ببعض التحقيقات: في البتراء بالأردن، «سرّة مخروطية» أخرى، ترمز إلى مركز الأرض كما إلى الكون بأكمله. تحاول «السُرّتان» إظهار المحور الذي تعبره طاقة الكون، مُحدِّدة بشكل مرئي شيئاً يقع على الخريطة «غير المرئية» فقط. تدعى القدس أيضاً «سُرّة العالم»، كما هي حال جزيرة وسط المحيط الهادئ، ومكان آخر نسيت اسمه الآن، لأنني لم أربط بين الأمرين قط».

«مثل الرقص!».

«ماذا؟».

«لا شيء».

«لا بل أعلم ما تعنيه: الرقص الشرقي، أقدم أشكال الرقص المدوّنة في السجّلات التاريخية، وفيه يتمحور كل شيء حول البطن. كنت أحاول تحاشي الموضوع لأنني أخبرتك من قبل عن رؤيتي أثينا ترقص في ترانسلفانيا. كانت ترتدي ملابسها. بالطبع، لكن...».

«... بدأت الحركة كلّها من سُرّتها. وتدريجاً، انتشرت إلى باقي جسدها».

كانت على حقّ.

من الأفضل تغيير الموضوع مجدداً، والتحدّث عن المسرح، عن أمور صحفية مضجرة، ثم احتساء القليل من النبيذ، وانتهاء الأمر بنا في السرير، نمارس الحب؛ في حين أن المطر في الخارج بدأ بالانهمار. لاحظتُ، لدى بلوغ النشوة، أن جسد أندريا كان مُرَكّزاً كلّه على

بطنها. رأيتُ ذلك مرّات عدة من قبل؛ لكنني لم أعره أهمية في فكري.

أنطوان لوكادور، مؤرّخ

راح هيرون ينفق ثروة على إجراء اتصالات هاتفية إلى فرنسا، طالباً إليّ جمع ما أمكنني من المعلومات مع حلول عطلة نهاية الأسبوع. وظلّ يتحدث عن السرّة، ما بدا لي أقلّ الأمور تشويقاً ورومانسية في العالم. لكن، لا يرى الإنجليز الأمور بالطريقة التي يراها بها الفرنسيون. وهكذا، بدل طرح الأسئلة، حاولتُ إيجاد ما يقوله العالم في هذا الموضوع.

سرعان ما أدركتُ أنّ المعرفة التاريخية لم تكن كافية. أمكنني أن أحدّد مكان مَعْلَم أثري هنا، ضريح من ما قبل التاريخ هناك؛ لكن الغريب في الأمر أن الثقافات القديمة كلها بدت في إجماع على الموضوع، حتى أنها تستخدم الكلمة نفسها لتحديد الأماكن التي اعتبرتها مقدّسة. لم أكن قد لاحظت هذا من قبل، وأخذ يثير اهتمامي. عندما رأيت عدد المصادفات، رُحت أبحث عن شيء يُكمّلها، وهو: السلوك البشري والمعتقدات.

كانَ عليّ أن أرفض على الفور التفسير الأول والأكثر منطقية، وهو أننا نتغذّى من حبل السُرّة، ما يدعونا إلى اعتبار السُرّة مركز الحياة. أشار عالم نفساني على الفور أنّ النظرية غير منطقية البتّة: إنّ فكرة الإنسان المحورية هي «قطع» حبل السُرّة. ومن ذلك فصاعداً، يصبح الذهن أو القلب أكثر الرموز أهمية.

عندما نكون مهتمّين بأمر، يبدو كل شيء من حولنا عائداً إليه (يطلق المتصوّفون على هذه الظواهر مصطلح «إشارات»،

والشكّاكون يدعونها «مصادف»، وعلماء النفس «البؤرة المركزة». يبقى لي أن أجد أي مصطلح على المؤرّخين استخدامه). ذات ليلة، عادت ابنتي المراهقة إلى المنزل وسرّتها مخرومة بحلقة.

«لماذا فعلت هذا؟».

«لأنني شعرت برغبة في فعله».

تفسير طبيعي وصريح بامتياز، حتى في نظر المؤرّخ الذي يحتاج إلى إيجاد مبرّر لكل شيء. عندما دخلتُ غرفتها، وجدتُ ملصقاً لمغنية البوب المفضّلة لديها. كانت عارية الوسط، وفي تلك الصورة على الحائط، بدت سرّتها بالفعل مركزاً للعالم.

هاتفتُ هيرون، وسألته لماذا كان مهتماً جداً بالأمر. للمرة الأولى، أخبرني عمّا حدث في المسرح، وكيف استجاب جميع الموجودين هناك للأمر بالطريقة العفوية غير المتوقّعة ذاتها. كان من المستحيل أن أحصل على مزيد من المعلومات من ابنتي. ولذلك قرّرت استشارة بعض الأخصائيين.

لم يَبدُ أحد منهم مهتماً، إلى أن عثرت على فرنسوا شيبكا، العالِم النفساني الهندي [ملاحظة: طلب العالِم تغيير اسمه وجنسيته]، الذي كان بدأ بتشريب العلاجات المستخدمة حالياً بأفكار ثورية.

يفيد شيبكا أن حلّ الصدمات النفسية بعزوها إلى الطفولة لم يسبق أن أفضى بأحد إلى أي مكان. والكثير من المشكلات التي تمّ تخطّيها في سن الرشد، طفت مجدداً، وأخذ الكبار يلقون باللوم على أهاليهم لوقوعهم في فشل أو هزيمة. كان شيبكا في معركة مع مؤسسات التحليل النفسي الفرنسية، وبدت محادثة حول موضوعات تافهة، مثل السُرّة، تُهدّئ روعه.

اجتذبه الموضوع، لكنه لم يتطرق إليه مباشرة في البداية. قال إننا، بحسب أحد أكثر المحلّلين النفسيين اعتباراً في التاريخ، وهو المحلّل النفسي السويسري كارل غوستاف يونغ، قد شربنا جميعاً من الينبوع نفسه: «روح العالم». مهما حاولنا جاهدين أن نكون أفراداً مستقلّين، يظل جزءاً من ذاكرتنا على حاله. نسعى جميعاً إلى مُثل الجمال والرقص والألوهية والموسيقا.

وفي الوقت نفسه، يحاول المجتمع أن يحدِّد كيف يجب أن تتجلّى هذه المُثل في الواقع.

في الوقت الحاضر، ينطوي مثال الجمال على النحافة، مع أنه، منذ آلاف السنين المنصرمة، كانت كلّ الإلهات في الصور بدينات. وينسحب الأمر نفسه على السعادة: توجد سلسلة من الأحكام إن فشلت في اتباعها، فسوف يرفض عقلك الواعي تقبّل فكرة أنك سعيد.

تعوَّد يونغ تقسيم التقدّم الفردي إلى أربع مراحل: الأولى هي «الشخصية»، وهي القناع الذي نستخدمه كل يوم، مدّعين أننا ما عليه. نؤمن بأن العالم وقف علينا، أن أرباب عملنا ظالمون، أن حلم كل بشري هو عدم العمل مطلقاً والسفر باستمرار. يدرك الكثير من الناس أنّ ثمة خطباً في القصة. لكن بما أنهم لا يريدون تغيير أي شيء، يبدّدون الفكرة توّاً من أذهانهم. تحاول قلّة أن تفهم ما الخطب وينتهي بها الأمر إلى إيجاد «الظلّ».

«الظلّ» هو الجانب المظلم منا، والذي يُملي علينا سلوكنا وتصرّفنا. عندما نحاول إعتاق نفوسنا من «الشخصية»، نشعل نوراً داخلنا، ونرى عندئذ الفوضى والجُبن والدناءة. «الظلّ» موجود لوقف تقدّمنا، وهو ينجح في ذلك عادةً. ونرجع نحن إلى ما كنّا عليه قبل أن يساورنا الشك. مع ذلك، يتخطّى البعض هذا الصِدام مع

فوضاه، قائلاً: «نعم، لديّ بعض الشوائب، لكنني صالح بما يكفي وأريد المضيّ».

في هذه اللحظة، يختفي «الظلّ» ونصبح في تلامس مع «الروح».

ولم يَرِد يونغ بكلمة «روح» معناها الديني؛ كان يتكلّم عن العودة إلى «روح العالم»، مصدر كل المعارف. تصبح الغرائز أكثر حدّة، العواطف أكثر تأصّلاً. يصبح تفسير الإشارات أكثر أهمية من المنطق، وتصبح مداركنا الواقع أكثر مرونة. نبدأ بمكافحة الأشياء التي لسنا معتادين عليها وتتّخذ ردود فعلنا سُبلاً نجد أنها لم تكن في الحسبان.

نكتشف أننا إن استطعنا نقل دفق الطاقة الدائم ذاك، فيمكننا أن نصبّه في قالب مركزي شديد الصلابة، يدعوه يونغ «الحكيم» للرجال، و«الأم الكبرى» للنساء.

من الخطورة السماح لذلك بالتجلّي. بشكل عام، كلّ من يبلغ هذه المرحلة، ينزع إلى اعتبار نفسه قديساً، مروِّضاً للنفوس، نبياً. يتطلّب الأمر قسطاً كبيراً من النضوج، إن حدث أن اتصل المرء مع طاقة «الحكيم» أو «الأم الكبرى».

قال صديقي، وهو يشرح المراحل الأربع التي وصفها المحلّل النفساني السويسري: «أصاب يونغ الجنون عندما اتصل بطاقة «الحكيم» وراح يقول إن روحاً تدعى فيلمون ترشده».

«وأخيراً...».

«... نصل إلى رمز السُرّة. يندرج الناس، كما المجتمعات، في هذه المراحل الأربع. للحضارة الغربية «شخصية»، تتمثّل في الأفكار التي ترشدنا. وفي محاولة للتكيّف مع التغيُّرات، هي تأتي على اتصال مع «الظلّ»، ونرى عروضاً عامة شاملة، حيث يمكن التلاعب

بالطاقة الجَماعية في سبيل الخير كما الشرّ. فجأة، لسبب من الأسباب، تُمسي «الشخصية» أو «الظل» غير كافيين للبشر. عندئذ تحين القفزة، الاتصال اللاواعي مع «الروح». وتبدأ قيم جديدة بالانبثاق».

«لاحظتُ ذلك. لاحظتُ انبثاقاً في عبادة وجه الله الأنثوي».

«مثل ممتاز. وفي نهاية هذه العملية، وفي حال ترسُّخ هذه القيم يصبح الجنس البشري بأكمله على اتصال مع الرموز، اللغة المشفّرة التي تتواصل بها أجيال اليوم مع معارف أسلافها. إن أحد رموز الولادة من جديد هو السُرّة. في سُرّة فيشنو، الخَلق والتدمير في التقليد الهندي، يقبع الإله الذي سيحكم كل دورة. يعتبر أهل اليوغا أن السُرّة هي إحدى نقاط «التشاكرا» التي تسري من خلالها الطاقة؛ النقاط السبع المقدّسة في جسم الإنسان. درجت القبائل البدائية على نحت الأصنام في المكان الذي اعتقدوا أنه سُرّة العالم. في جنوب أميركا، يقول مَن يدخلون في انخطاف أنّ شكل الإنسان الحقيقي هو بيضة مُضيئة تتّصل مع غيرها من الناس عبر خيوط تنبثق من البيضة. والمندالة، التي ترمز إلى ذلك، هي تصميم كوني يحثّ على التأمّل».

مرّرتُ كل هذه المعلومات إلى هيرون في إنجلترا قبل الموعد المتّفق عليه. قلت له إنّ المرأة التي نجحت في استثارة ردّ الفعل السخيف ذاته لدى مجموعة من الناس، لا بُدّ أنها تتمتّع بقوة هائلة، وأنني لن أفاجأ إن لم تكن نوعاً ما خارقة للمألوف. اقترحتُ أن يدرسها عن كثب أكبر.

لم أكن قد فكّرت في الموضوع من قبل، وحاولت نسيانه على الفور. لكن قالت لي ابنتي إنني كنت أتصرّف بغرابة، لا أفكّر إلّا في نفسي إنني كنت، باختصار أحدّق إلى المركز.

ديدر أونيل، تعرف بـ «إذا»

«كان الأمر كارثة تامة. كيف أمكنكِ أن تولّدي في ذهني أن بمقدوري التعليم؟ لمَ إهانتي أمام آخرين؟ عليّ أن أنسى حتى أنكِ موجودة. عندما لُقّنتُ الرقص، رقصت. عندما لُقّنتُ فنّ الخط، مارستُ فنّ الخطّ. لكنّ الطلب إليّ الذهاب أبعد بكثير من حدودي، فهذا هو الخُبث بعينه. لذلك ركبت القطار إلى اسكوتلندا. جئتُك، لأريك مدى كُرهي لكِ!».

واسترسلتْ بالبكاء. لحسن الحظ كانت قد تركت ابنها مع والديها، لأنها كانت تتكلّم بصوتٍ مرتفع إلى حد ما وكان أثر النبيذ يفوح خفيفاً من نَفَسِها. طلبتُ إليها الدخول. كان إحداث هذه الضجة كلّها على عتبة بابي ليزيد سوءاً ما انتشر لي في الناس من سمعة ملطّخة، إذ تناقلوا أنني كنت أستقبل رجالاً ونساءً، وأنظّم ممارسة الجنس الجَماعي باسم إبليس.

لكنها لازمت مكانها، وهي تصرخ:

«الذنب ذنبك! لقد أهنتني!».

فُتحت نافذة، ثم أخرى. إن أيّ امرىء يعمل على تغيير محور العالم، لا بدّ أن يكون مهيّأ لواقع أن جيرانه لن يكونوا مسرورين منه على الدوام. اتّجهتُ نحو أثينا، وقمتُ تماماً بما أرادتني أن أفعل: أن ألفّها بذراعيّ.

ظلّت تبكي بمرارة، وقد أحنت رأسها على كتفي. ساعدتها بلطف كبير على صعود الدرج ودخول المنزل. أعددتُ الشاي، الذي لا أفصح عن وصفة تحضيره لأحد، لأنني تعلّمتها من حاميّ. وضعتُ الكوب أمامها وشربته جرعة واحدة. بفعلها هذا، أثبتتْ أن ثقتها بي لا تزال بلا شائبة.

سألتُ: «لمَ أنا هكذا؟».

علمتُ حينها أن تأثيرات الكحول كانت قد تلاشت.

«ثمة رجال مغرمون بي. لي ابنٌ يعشقني ويعتبرني مثله الأعلى في الحياة. لي والدان بالتبنّي أعتبرهما عائلتي الحقيقية وهما على استعداد للتضحية بحياتهما من أجلي. ملأتُ كلّ الفراغات في ماضيّ عندما انطلقتُ في البحث عن والدتي الحقيقية. أملك ما يكفي من المال لثلاث سنوات آتية، أنفقه دون أن أفعل شيئاً سوى الاستمتاع بالحياة. ومع ذلك، لستُ مسرورة!

أشعر باليأس والذنب، لأنّ الله أوقعني بمآسٍ تمكّنتُ من تجاوزها، وأنعم علي بمعجزات كان لها عندي اعتبار. لكنني لست راضية أبداً. أريد المزيد دوماً. آخر ما كان يلزمني هو الذهاب إلى ذلك المسرح وإضافة إخفاق إلى لائحة انتصاراتي».

«أتعتقدين أنكِ ارتكبتِ خطأ؟».

نظرتْ إليّ باندهاش:

«لمَ تسألين هذا؟».

لم أقلْ شيئاً، وانتظرتُ جوابها.

«لا. لقد فعلتُ الصواب. ذهبتُ إلى المسرح برفقة صحافي صديق، ولم يكن لدي أدنى فكرة عمّا كنت سأفعله. لكن فجأة، أخذت الأشياء تنبثق، وكأنها خارجة من العدم. شعرتُ بوجود «الأم الكبرى» إلى جانبي، ترشدني، تملأ صوتي بالثقة التي لم أشعر بها فعلاً».

«إذاً لمَ تتذمّرين؟».

«لأنّ أحداً لم يفهم!».

«هل هذا مهم؟ مهم لدرجة يجعلك تأتين إلى اسكوتلندا وتُهينيني أمام الجميع؟».

«بالطبع مهم! إذا كنت أستطيع القيام بأي شيء وأعرف أن أيّاً مما أقوم به صائباً، فكيف إذاً لا أكون محبوبة، ومثار إعجاب على الأقل؟».

إذاً، تلك كانت المشكلة. أخذتها بيدها وأرشدتها إلى الغرفة ذاتها حيث جلستُ، منذ أسابيع، تتأمل شمعة. طلبتُ إليها أن تجلس وتحاول تهدئة نفسها قليلاً، مع أنني كنت واثقة أن الشاي قد سبق أن فعل فِعْلَه. ذهبتُ إلى غرفتي، تناولتُ مرآة مستديرة ووضعتها أمامها.

«تملكين كل شيء وقد ناضلتِ في سبيل كل ذرّة من أرضك. انظري الآن إلى دموعك. انظري إلى وجهك والمرارة التي تنحته. انظري إلى المرأة في المرآة، لكن لا تضحكي هذه المرة. حاولي فِهمها».

أتحتُ لها الوقت لكي تتبع تعليماتي. عندما وجدتُ أنها كانت، كما قصدتُ، تدخلُ في حالة انخطاف، واصلتُ:

«ما سرّ الحياة؟ ندعوه «النعمة» أو «البركة». الجميع يكافحون ليكونوا راضين بما لديهم، باستثنائنا، أنا وأنت وقلة، نحن الذين سيكون علينا للأسف أن نقدّم أضحية صغيرة باسم شيء أعظم.

خيالنا أوسع من العالم حولنا، نحن نذهب أبعد من حدودنا. كان يُسمّى ذلك بـ «السحر»، لكن لحسن الحظ، تبدّلت الأمور، وإلّا لكنّا احترقنا كلتانا. عندما توقف العالم عن حرق النساء، وجد العلم تفسيراً لسلوكنا، يُشار إليها عادة بـ «الهستيريا الأنثوية». لم نعد نُحرق. لكن الأمر يسبّب مشكلات، خصوصاً في مكان

العمل. لا تقلقي، في نهاية المطاف، سوف يسمونها «الحكمة». تابعي النظر إلى المرآة. مَن ترين؟».

«امرأة».

«وما خلف المرآة؟».

ترددتْ. سألتها مجدداً، قالت:

«امرأة أخرى، أكثر صدقية وذكاء مني. يبدو وكأنها روح لا تنتمي إليّ، مع ذلك هي جزء مني».

«بالضبط. الآن سوف أطلب إليك تخيُّل أحد أهم رموز الخيمياء: أفعى تكوّن حلقة من نفسها، وتبتلع ذيلها. أيمكنك تخيّل هذا؟».

أومأتْ.

«هذه ماهية الحياة لأشخاص مثلي ومثلك. نحن ندمّر ذواتنا ونبنيها باستمرار. كل ما في حياتك قد تَبِعَ النمط نفسه: من مفقود إلى مولود؛ من طلاق إلى حب جديد؛ من وظيفة في مصرف إلى بيع عقارات في الصحراء. يبقى أمر واحد غير ممسوس هو ابنك، صلة الوصل، وعليكِ احترام ذلك».

أخذتْ تبكي مجدداً، لكنّ دموعها كانت مختلفة هذه المرة.

«جئتِ إلى هنا لأنك رأيتِ وجهاً أنثوياً في ألسنة النار. هذا الوجه هو الوجه الذي ترينه في المرآة الآن، لذلك حاولي أن توقّريه. لا تدعي نفسك تُقهر بآراء الناس، لأن طريقة التفكير هذه سوف تتغير في غضون بضع سنوات، بضعة عقود، أو بضعة قرون. عيشي الآن ما سيعيشه الآخرون في المستقبل فحسب.

ما مرادك؟ لا يمكن أن ترومي السعادة، لأنها أمر سهل جداً ومضجر جداً. لا يمكن أن ترومي الحب فقط، لأنه مستحيل. ما

مرادك؟ تريدين تبرير حياتك، عَيْشها بأشدّ ما يمكنك. هذا فخ ومصدر انتشاء في آن. حاولي أن تكوني متيقّظة لذاك الخطر، واختبري الفرح، ومغامرة أن تكوني تلك المرأة التي هي أبعد من الصورة التي تعكسها المرآة».

أغمضتْ عيناها، لكن علمتُ أنّ كلماتي اخترقت روحها وستبقى فيها.

«إذا كنت تريدين المجازفة ومتابعة التعليم، فلتفعلي ذلك. إذا كنت لا تريدين ذلك، فاعلمي أنك سبق أن ذهبتِ إلى أبعد مما يذهب معظم الناس».

أخذ جسدها يسترخي. ضممتها بين ذراعي إلى أن غفتْ ورأسها على صدري.

حاولت أن أهمس لها ببضعة أشياء أخرى، لأنني كنت قد مررت بالمراحل نفسها، وأعلم مدى صعوبتها، تماماً كما كان حاميّ يقول لي، وكما اكتشفتُ ذلك بنفسي من خلال تجربة مؤلمة. مع ذلك، فإن الصعوبة جعلتها أكثر تشويقاً.

أي تجربة؟ هي تجربة العيش كآدمية وإلهة في آن. الانتقال من التوتّر إلى الاسترخاء. من الاسترخاء إلى الانخطاف. من الانخطاف إلى اتصال أشدّ مع آخرين. من ذاك الاتصال رجوعاً إلى التوتّر وهكذا، تماماً كالأفعى التي تبتلع ذيلها.

لم تكن مسألة سهلة، لأنها بشكل أساسي تنطوي على الحب غير المشروط، الذي لا يخشى المعاناة والنبذ، والفَقد.

وأي امرأة تشرب من هذا الماء مرة، يستحيل أن ترتوي من ينبوع آخر ثانية.

«ذكرتِ «غايا» ذاك اليوم، التي خلقت نفسها ورزقت بمولود من دون رجل. قلت، وقولك صحيح تماماً، إن الآلهة الذكور حلّوا محلّ «الأم الكبرى» في نهاية المطاف. لكنك نسيتِ أمر «هيرا»، وهي متحدّرة من إلهتك المفضّلة. هيرا أكثر أهمية لأنها كانت أكثر عملية. هي تحكم السموات والأرض، فصول السنة والعواصف. وبالاستناد إلى الإغريق ذاتهم الذين جئت على ذكرهم، تكوَّنت مجرّة «درب التبّانة» التي نراها في السماء، من الحليب الذي انبجس من ثدي هيرا. ثدي جميل، **لا بُدّ من قول ذلك**، لأنّ «زوس» الكلّي القدرة حوّل نفسه عصفوراً لمجرد أن يحصل على مراده منها، لئلا ترفضه».

كنا نمشي في متجر تسوّق كبير في نايتسبريدج. كنتُ قد هاتفتها وقلت لها إنني أرغب في التحدّث إليها، فدعتني للاستفادة من تنزيلات الأسعار على بضائع الشتاء. ألم يكن أكثر متعة أن نجلس لتناول الشاي أو الغداء في مطعم هادئ؟

«يمكن أن يضيع ابنك في هذا الحشد».

«لا تقلقي عليه. تابعي ما كنت تقولينه».

«اكتشفتْ هيرا الخدعة، وأرغمت زوس على الزواج بها. بعد الحفل مباشرة، عاد ملك الأولبوس العظيم إلى أسلوب حياته والانغماس في الملذّات، ليغوي كل امرأة صادفها، خالدة كانت أم فانية. مع ذلك، ظلّت هيرا مخلصة. وبدل أن تُلقي اللوم على زوجها، لامت النسوة على سلوكهن الخليع».

«أوليس هذا ما نفعله جميعاً؟».

لم أدرِ ما الذي قَصَدَتْهُ. وهكذا تابعتُ الكلام كما لو أنني لم أسمع ما قالته.

«ثم قرّرتْ أن تنتقم منه، بسلاحه، وإيجاد إله أو رجل يطارحها الفراش. ألا يمكننا التوقّف لبعض الوقت وتناول القهوة؟».

لكن، كانت أثينا قد دخلت متجر ملابس داخلية.

سألتني وهي تحمل بيدها صدرية وسروالاً داخلياً مثيرين، لونهما بلون الجلد: «هما جميلان برأيك؟».

«نعم. جداً. هل سيراهما أحد إن ارتديتهما؟».

«بالطبع، أَوَتظنين أنني قدّيسة؟ تابعي ما كنت تقولينه عن هيرا».

«ارتعب زوس من سلوكها، لكن هيرا كانت تنعم بالاستقلالية، ولم تأبه لزواجها البتة. هل كان لديكِ حبيب حقاً؟».

«نعم».

«لم أره يوماً».

توجّهت نحو أمينة الصندوق، دفعت ثمن الملابس الداخلية، ووضعتها في حقيبتها.

«فايورل يشعر بالجوع، وأنا واثقة أنه لا يهتم ولو قليلاً بالخرافات الإغريقية، سارعي إلى إنهاء قصة هيرا».

«نهايتها سخيفة نوعاً ما. ادّعى زوس، مخافةَ أن يخسر زوجته، أنه كان سيتزوج من جديد. عندما اكتشفت هيرا ذلك، رأت أن الكيل قد طفح. كان أمر العشيقات أمراً مقبولاً على مضض، لكنّ الطلاق، مخططٌ أحمر».

«إذاً ما من جديد».

«قرّرتْ أن تذهب إلى حفل الزفاف وتفتعل هرجاً ومرجاً. آنذاك تحديداً أدركت أن زوس يتزوّج تمثالاً».

«وماذا فعلت هيرا؟».

«استغرقت في الضحك. كسر ذلك الجليد بينهما، واستعادت مكانتها ملكة السموات».

«عظيم. إذاً، إن حدث وحصل ذلك معك يوماً...».

«ماذا؟».

«إن حصل رَجُلك على امرأة أخرى، فتذكّري أن تضحكي».

«لستُ إلهة. سأكون أكثر ثأراً. على أي حال، لماذا لم أر حبيبك إلى الآن؟».

«لأنه دائم الانشغال».

«متى التقيته؟».

«في المصرف حين كنت أعمل. كان لديه حساب هناك. والآن، إن كنت لا تمانعين، عليّ اللحاق بولدي فهو في انتظاري. وأنتِ على حق، إن لم أُبقي عيني عليه، فقد يضيع بين كل هؤلاء الناس. على فكرة، سنعقد لقاءً في شقتي الأسبوع المقبل. أنت مدعوّة بالطبع».

«نعم، وأعرف مَن المنظّم».

طبعت أثينا قبلة خفيفة على خدّيَ ورحلت. على الأقل، وصلتها الرسالة.

عصر ذلك اليوم، في المسرح، أخبرني المدير أنه منزعج لأنني، كما قال، رتّبت لمجموعة من الممثلين زيارة «تلك المرأة». برّرت قائلة

إن الفكرة لم تكن فكرتي. كان هيرون قد أصبح مهووساً بموضوع السَّرّ. وسألني إن كان بعض الممثلين الآخرين على استعداد لإكمال «المحاضرة» التي لم تُستكمل.

أضفتُ: «قال هذا إنّ الخيار في سؤالهم يعود لي».

بالطبع كان الخيار خياري. لكن آخر ما أردت كان ذهابه إلى منزل أثينا بمفرده.

أتى الممثّلون جميعاً. لكن، بدلاً من القيام بقراءة أخرى لنص مسرحية جديدة، قرّر المدير أن يغيّر البرنامج.

«اليوم. سنقوم بتمرين آخر في الدراما النفسية». [ملاحظة الناشر: تقنية علاجية تنطوي على أن يمثّل الشخص تجاربه الخاصة].

لم يكن من داعٍ لذلك. عرفنا جميعاً كيف تتصرف الشخصيات في المواقف التي يصفها الكاتب المسرحي.

«أيمكنني اقتراح موضوع؟».

أحال الجميع نظرهم عليّ. بدا المدير متعجباً.

«ما هذا؟ ثورة؟».

«لا، أنصت. نخلق موقفاً يتمكّن فيه رجل، بصعوبة بالغة، من تجميع عدد من الناس للاحتفال بطقس مهم في الرعية، شيء مماثل لحصاد الخريف. في هذه الأثناء، تصل امرأة غريبة. بالنظر إلى جمالها والشائعات التي تدور حول كونها إلهة متنكرة مثلاً، يتفرّق الحشد الذي جمعه الرجل بغية الحفاظ على التقاليد في قريته، ويذهبون فُرادى لرؤية المرأة».

قالت إحدى الممثّلات: «لكن لا دخل لهذا بالمسرحية التي نتمرن على أدائها».

غير أنّ المدير كان قد فهم ما كنت أرمي إليه.

«إنها فكرة ممتازة. فلنبدأ».

استدار ناحيتي، وقال:

«أندريا، يمكنكِ أن تمثّلي دور الواصلة الجديدة. هكذا، يمكنك أن تفهمي وضع القرية بشكل أفضل. وسوف أكون الرجل المحترم الذي يحاول الحفاظ على الطرق القديمة. سوف يتشكّل الحشد من ثنائيات يرتادون الكنيسة، يجتمعون أيام السبت لإنجاز أعمال في الرعية، ويساعد بعضهم بعضاً بشكل عام».

استلقينا على الأرض، قمنا ببعض تمارين الاسترخاء، ثم بدأنا التمرين كما يقتضي، والذي كان بسيطاً جداً بالفعل. قامت الشخصية الرئيسة (أنا في تلك الحالة) بخلق مواقف مختلفة، واستجاب الآخرون لها.

لدى انتهاء الاسترخاء، حوّلتُ نفسي إلى أثينا. في خيالي، جالت العالم مثل إبليس، بحثاً عن أعيانٍ لمملكتها، لكنها تقنّعت بلباس «غايا»، الإلهة العليمة بكل شيء، والتي خلقت كل شيء. على مدى ربع ساعة، توزّع الممثّلون الآخرون ثنائيات تعارفوا وابتكروا تاريخاً مشتركاً ينطوي على أولاد ومزارع، على الفهم والصداقة. عندما شعرتُ بأنّ هذا العالم كان مستعدّاً، جلست في إحدى زوايا خشبة المسرح، وأخذتُ أتكلّم عن الحب.

«نحن هنا، في هذه القرية الصغيرة، وأنتم تظنّون أنني غريبة. وهذا سبب اهتمامكم بما لديّ من كلام. لم تسافروا يوماً، ولا تعلمون ما يجري خلف الجبال. لكن يمكنني أن أقول لكم: لا داعي لأن تبجّلوا الأرض. ستكون الأرض دوماً كريمة مع هذه

الرعية. المهم هو تبجيل البشر. تقولون إنكم تحبّون السفر، لكنكم تسيئون استخدام كلمة «حب». الحب علاقة بين الناس.

رغبتكم الوحيدة هي أن يكون حصادكم جيداً. لذلك قرّرتم أن تحبّوا الأرض. هراء آخر: الحب ليس رغبة أو معرفة أو إعجاب. إنه تحدٍّ؛ إنه نار لا مرئية. فإن ظننتم أنني غريبة على هذه الأرض، فأنتم على خطأ. كل شيء مألوف لي، لأنني آتية محمّلة بالقوة وبالنار. وعندما أرحل، لن يبقى شيءٌ على حاله. أجلب الحب الحقيقي، وليس الحب الذي يُكتب عنه في الكتب أو القصص الخيالية».

راح «رجل» من أحد الثنائيات ينظر إليّ. بدت «زوجته» ذاهلة.

خلال باقي التمرين، بذل المدير، أو بالأحرى الرجل المحترم، كل ما في وسعه لشرح أهمية الحفاظ على التقاليد، مبجّلاً الأرض وسائلاً إياها أن تكون سخية هذه السنة، كسخائها السنة الماضية. وأنا تحدّثت عن الحب فقط.

«يقول إن الأرض تحتاج إلى طقوس. يمكنني أن أضمن أنه إن كان بينكم ما يكفي من الحب، فسوف يكون حصادكم وفيراً، لأن الحب هو الشعور الذي يحوّل كل شيء. لكن ما الذي أراه؟ أرى الصداقة. انقرض الشغف منذ زمن طويل، ذلك أنكم تعوّدتم بعضكم بعضاً. لذلك تعطي الأرض ما أعطته السنة الماضية، لا أكثر ولا أقل. وللسبب نفسه تتذمّرون في ظلمة أرواحكم، بصمتٍ، من أنّ لا شيء يتغيّر في حياتكم. لماذا؟ لأنكم طالما حاولتم التحكّم في القوة التي تحوّل كل شيء، بحيث تمضي حياتكم من دون أن تواجه أي تحدّيات كبرى».

شرح الرجل المحترم:

«تمكّنت رعيّتنا من البقاء، لأننا طالما احترمنا القوانين التي تُرشِد كل شيء، حتى الحب. كلّ من يُغرم من دون أن يأخذ في الاعتبار الخير العام، سيُحكم عليه بالعيش في خوف مستمر من إيذاء شريكه، أو إغاظة حبيبه الجديد، أو فقدان كلّ ما بناه. يمكن لغريبة من دون روابط ومن دون تاريخ أن تقول ما يحلو لها. لكنها تجهل كم كان من الصعب علينا أن نصل إلى ما نحن عليه الآن. هي تجهل التضحيات التي قمنا بها من أجل أولادنا. تجهل أننا نعمل بلا كلل لكي تكون الأرض سخية تجاهنا، لكي نكون في سلام، لكي نتمكّن من تخزين المؤن للمستقبل».

على مدى ساعة، دافعتُ عن الشغف الذي يلتهم كل شيء، في حين تكلّم الرجل المحترم عن الشعور الذي يجلب السلام والسكينة. في النهاية، تُركت أتحدّث إلى نفسي، فيما تجمّعت الرعية كلّها من حوله.

كنتُ قد أدّيت دوري بلذّة كبرى، وباقتناع لم أعرف حتى أنني شعرت به. على الرغم من كل شيء، فإن الرجل المحترم رحل عن القرية من دون أن يتمكّن من إقناع أحد.

وجعلني ذلك سعيدة جداً، جداً.

هيرون راين، صحافي

يقول صديق قديم لي دوماً: «يتعلّم الناس ٢٥٪ من معلّميهم، و٢٥٪ من الإصغاء إلى أنفسهم، و٢٥٪ من أصدقائهم، و٢٥٪ من الوقت». في ذلك اللقاء الأول في شقة أثينا، حيث كانت تحاول اختتام الصف الذي كانت قد بدأته في المسرح، تعلّمنا جميعاً من...، لستُ واثقاً تماماً ممّا تعلّمنا.

كانت في انتظارنا، مع ابنها، في غرفة الجلوس الصغيرة.

لاحظت أن الغرفة مطلية باللون الأبيض بالكامل، وفارغة تماماً إلا من قطعة أثاث واحدة عليها جهاز صوت، وكومة من أقراص الـ CD الموسيقية. استغربتُ أن يكون ابنها هناك، لأن من المؤكد أن الصف كان سيضجره. كنت أفترض أنها سوف تكمل حديثها من حيث توقّفت، وأن تواصل إعطاءنا أوامر من خلال كلمات مفردة. لكن كان لديها مخطّطات أخرى. أوضحت أنها كانت ستضع بعض الموسيقا من سيبيريا، وأن علينا أن نصغي فقط.

لا أكثر.

قالت: «التأمل لا يُجديني نفعاً. أرى أشخاصاً يجلسون بعيون مغمضة، والابتسامة على شفاههم، أو أرى وجهاً رزيناً شامخاً. يركّزون على اللاشيء، مقتنعين أنهم على اتصال مع الله أو الإلهة. لذلك، دعونا نستمع إلى بعض الموسيقا».

مجدداً، طغا الشعور ذاك من عدم الارتياح، كما لو أن أثينا لم تدرِ ما كانت تفعل. لكن، كان غالبية ممثّلي المسرح حاضرين هناك، بمن فيهم المدير، الذي أتى، بحسب أندريا، للتجسّس على مخيّم العدو.

توقّفتْ الموسيقا.

«هذه المرة، أريدكم أن ترقصوا على إيقاع لا صلة له البتّة بالنغم».

وضعت أثينا الموسيقا مجدداً، ورفعت الصوت وبدأت ترقص، من دون أن تحاول التحرّك بأناقة. كان الرجل الذي يكبرنا سنّاً، والذي أدّى دور الملك السكّير في مسرحيتنا الأخيرة، هو الوحيد الذي فعل ما طُلب إليه. لم يحرك أحد آخر ساكناً. بدوا جميعاً

مقيّدين مرتبكين نوعاً ما. نظرتْ إحدى النسوة إلى ساعتها لم يكن قد مرّ سوى ١٠ دقائق.

توقّفتْ أثينا ونظرتْ من حولها.

«لماذا تقفون هكذا فحسب؟».

قالت إحدى الممثّلات بخجل: «حسناً، يبدو من السخيف نوعاً ما فعل ذلك. لقد دُرّبنا على التناغم وليس على عكسه».

«افعلوا ما أقوله فحسب. هل تحتاجون إلى تفسير؟ سأعطيكم تفسيراً. تحصل التغيُّرات فقط عندما نسير عكس ما تعوّدنا القيام به».

مستديرة ناحية «الملك السكّير». قالت:

«لماذا وافقت على الرقص عكس إيقاع الموسيقا؟».

«لم يكن عندي أيّ حس إيقاعي بأي حال».

ضحك الجميع، وبدت السحابة السوداء المعلّقة فوق رؤوسنا تتبدّد.

«حسناً، سوف أبدأ من جديد، ويمكنكم إما أن تتبعوني وإما أن تنصرفوا. هذه المرة، أنا مَن يقرّر موعد انتهاء الصف. إنّ من أكثر الأشياء عدائية التي يمكن لآدمي أن يفعلها هو السير بعكس ما يعتقده حلواً أو جميلاً، وهذا ما سنفعله اليوم. وسوف نرقص جميعاً بشكل سيِّئ».

كانت مجرد تجربة أخرى. وبغية عدم إحراج مُضيفتنا، رقص الجميع بشكل سيئ، من باب الطاعة. صارعتُ نفسي، لأنّ المرء ينزع بطبيعته إلى اتّباع إيقاعات موسيقا النقْر، تلك الإيقاعات المدهشة الغامضة. شعرت كأنني أهين العازفين والمؤلّف الذي ابتكر الموسيقا. وبين الحين والحين، حاول جسدي مقاومة انعدام التناغم ذاك،

وكنت مجبراً على دفع نفسي إلى التصرّف كما قيل لي. كان الصبي يرقص ويضحك طوال الوقت، ثم، في مرحلة من المراحل، توقّف وجلس على الأريكة، كما لو أنّ الإرهاق أصابه لما بذل من جهة. قُطعت الموسيقا في منتصفها.

«انتظروا».

انتظرنا جميعاً.

«سوف أفعل شيئاً لم أفعله قط من قبل».

أغمضت عينيها وأمسكت رأسها بين يديها.

«لم يسبق لي أن رقصت بغير إيقاع...».

إذاً كانت التجربة أسوأ وقعاً عليها.

«لا أشعر أنني بخير...».

نهضتُ والمدير. رمقتني أندريا بنظرة غضب، لكنني اتّجهت نحو أثينا، على الرغم من ذلك. لكن، قبل أن أتمكّن من بلوغها، طلبت إلينا العودة إلى أماكننا.

تكلّمت بصوت ضعيف، مرتجف وجهها لا يزال مغطّى بيدها: «هل من أحد يودّ قول شيء؟».

«أنا أودّ».

كانت أندريا.

«أولاً، خذي ابني وقولي له إنّ أمّه بخير. لكن أحتاج إلى أن أبقى هكذا أطول ما يمكنني».

بدا فايورل مرتعباً. أجلسته أندريا في حضنها وداعبته.

«ماذا تودّين القول؟».

«لا شيء. بدّلتُ رأيي».

«جعلك الصبي تبدّلين رأيك، لكن تابعي بمطلق الأحوال».

أزاحت أثينا يديها عن وجهها بروية، ونظرت إلى أعلى. كان وجهها كوجه غريب.

«لا، لن أتكلّم».

«حسناً، أنتَ»، أشارت أثينا إلى الممثّل الأكبر سناً، «اذهب لزيارة الطبيب في الغد. إن مسألة عجزك عن النوم والنهوض لقضاء حاجتك ليلاً أمر خطير. إنه سرطان غدة البروستات».

علا الشحوب وجه الرجل.

«وأنتِ»، أشارت إلى المدير، «تقبّل هويّتك الجنسية. لا تخف. تقبّل أنك تمقت النساء وتحب الرجال».

«أتقولين...؟».

«لا تقاطعني. لستُ أقول هذا بسبب أثينا، أنا أشير إلى هويّتك الجنسية فحسب. أنت تحب الرجال، وأعتقد، أنه ما من ضير في ذلك».

لم تكن تقول ذلك بسبب أثينا؟ لكنّها كانت أثينا!

«وأنتِ»، أشارت إليّ، «تعال إلى هنا. اركع أمامي».

ومخافة ما قد تفعله أثينا بي، وبالنظر إلى حرجي من تسلّط عيون الكلّ عليّ، فعلتُ ما طلبته.

«احنِ رأسك. دعني ألمس مؤخّرة عنقك».

شعرتُ بضغط أصابعها، لا شيء آخر. بقينا على هذه الحال قرابة دقيقة من الوقت، ثم طلبت إليّ أن أنهض وأرجع إلى مقعدي.

«لن تحتاج لتناول أقراص الحبوب المنوّمة بعد الآن. سوف يعاودك النوم».

رمقتْ أندريا بطرف عيني. خلتُ أن لديها ما تقوله. لكنها بدت على القدر نفسه من الذهول.

قامت إحدى الممثّلات، وهي أصغرهن على الأرجح، برفع يدها.

«أودّ قول شيء، لكنني أحتاج إلى معرفة من التي أتحدّث إليها».

«آيا صوفيا».

«أودّ معرفة إن...».

نظرتْ من حولها نظرة سريعة، مُحرجة. لكنّ المدير أومأ لها أن تتابع:

«... إن كانت أمي بخير».

«إنها إلى جانبك. أمس، عندما تركتِ المنزل، جعلتك تنسين حقيبتك. عُدتِ لأخذها واكتشفتِ أنك أغلقت الباب مُحتجِزة نفسك في الخارج، ولم تتمكّني من الدخول. هدرتِ ساعة كاملة تبحثين عن صانع أقفال في الوقت الذي كان بإمكانك ألّا تتخلّفي على موعدك. والتقيت الرجل الذي كان في انتظارك، وحصلت على الوظيفة التي أردتها. لكن، لو حصل كل شيء كما كنتِ خطّطت ذاك الصباح، لكُنتِ فارقت الحياة في غضون ستة أشهر على أثر حادث سير. إن نسيانك حقيبتك البارحة، غيّر حياتك».

أخذت الفتاة تبكي.

«هل من أحد آخر يودّ سؤال أي شيء؟».

ارتفعت يدٌ أخرى. كان المدير.

«أيحبّني».

إذاً كان الأمر صحيحاً. كانت قصة والدة الفتاة قد حرّكت زوبعة من العواطف في الغرفة.

«أنت تطرح السؤال الخطأ. ما يلزمك معرفته هو إن كنت في موقع لتمنحه الحب الذي يحتاج إليه. إن حدث الأمر أم لم يحدث، فسوف يكون مُرضياً في كلتا الحالتين. حَسْبُك أنْ تعرف أنك قادر على الحب. إن لم يكن هو، فسوف يكون ثمة آخر. لقد اكتشفتَ ينبوعاً لا ينضب، ببساطة دعه يتدفّق، وسوف يملأ دُنياك. لا تحاول أن تبقى على مسافة آمنة لكي تتمكّن من رؤية ما يحدث. لا تنتظر لتكون أكيداً قبل إقدامك على الخطوة. ما تعطيه يرجع إليك، مع أنه قد يأتيك أحياناً من المكان الذي لا تتوقّعه أبداً».

انطبقت تلك الكلمات عليّ أيضاً. ثم استدارت أثينا، أو أيّ تكن، نحو أندريا.

«أنتِ!».

تجمّد الدم في عروقي.

«عليك التهيّؤ لخسارة الكون الذي خلقته».

«ماذا تعنين بـ «الكون»؟».

«ما تظنين أنك حظيتِ به. لقد احتبستِ عالمك، لكنك تُدركين أنّ عليك تحريره. أعرفُ أنكِ تعلمين مقصدي، مع أنكِ لا تريدين سماعه».

«أفهم».

كنت واثقاً أنهما تتحدّثان عني. هل دبّرت أثينا الأمر كلّه؟

قالت: «انتهينا. آتني بالولد».

لم يُرد فايورل الذهاب إليها؛ كان مرتعباً من تحوّل والدته. غير أنّ أندريا أخذته بيده بلطف وقادته إليها.

فعلت أثينا، أو آيا صوفيا أو شيرين، أو أيّاً تكن، ما فعلته بي تماماً. وضغطتْ مؤخرة عنق الصبي بأصابعها.

«لا تخف من الأشياء التي تراها يا ولدي. لا تحاول إبعادها لأنها ستبتعد بأي حال. استمتع برفقة الملائكة متى استطعت. أنت خائف الآن، لكنك لست خائفاً بقدر ما يمكنك أن تكون، لأنك تعلم أنّ في الغرفة الكثير من الناس. توقّفت عن الضحك والرقص عندما رأيتني أتوحَّدُ في والدتك، وأطلب أن أكون لسان حالها. لكنك تعلم أنني لم أكن لأفعل ذلك ما لم تمنحني الإذن. لطالما ظهرت من قبل بهيئة نور، ولا أزال ذاك النور. لكنني اليوم قرّرت أن أتكلّم».

لَفّ الصبي ذراعيه حولها.

«يمكنكم الذهاب الآن. دعوني وحدي معه».

الواحد تلو الآخر، غادرنا الشقة، تاركين الأم وولدها. عدت إلى المنزل بسيارة أجرة. حاولتُ التحدّث إلى أندريا، لكنها قالت إن بإمكاننا التحدّث عن أي شيء، باستثناء ما قد حصل للتو.

لم أقل شيئاً. نفسي حزينة حتى الامتلاء. كانت خسارة أندريا صعبة جداً. من الناحية الأخرى، غمرني طوف من السلام.

كانت مجريات المساء قد أحدثت تغيّرات بنا جميعاً. وعَنَى ذلك أنني لم أكن في حاجة إلى معاناة ألم الجلوس مع المرأة التي أحببتها حباً جماً، وإخبارها أنني مغرم بامرأة أخرى.

في هذه الحالة، اخترتُ الصمت. وصلتُ إلى المنزل، أدرتُ التلفاز، وذهبتُ أندريا لتستحم. أغمضتُ عينيَ. وعندما فتحتهما، رأيت النور يملأ الغرفة. إنه الصباح، وكنت قد نمت عشر ساعات. كان إلى جانبي ملاحظة مكتوبة، ذكرت فيها أندريا أنها لم تُرد إيقاظي، وأنها ذهبت تواً إلى المسرح. لكنها أعدّت لي بعض القهوة. كانت الملاحظة رومانسية، مزيّنة بقبلة من أحمر الشفاه، وبقلبٍ صغير مُلصق.

لم يكن لديها نيّة في «التخلّي عن كونها». كانت ستناضل. وكانت حياتي ستغدو كابوساً.

ذاك المساء، هاتفتني، ولم يفصح صوتها عن عاطفة معينة. قالت لي إنّ الممثّل العجوز ذهب لرؤية طبيبه الذي عاينه واكتشف أنه يعاني تضخُّماً في البروستات. كان إجراء فحص دم هو الخطوة التالية، إذ كشفوا ارتفاعاً ملحوظاً في معدَّلٍ واحدٍ من أنواع البروتين هو المولّد المضاد الخاص الذي تنتجه خلايا غدة البروستات. اتّخذوا منه عيّنة للزرع. غير أن الصورة السريرية العامة أشارت إلى احتمال كبير لوجود ورم خبيث.

«قال الطبيب إنه محظوظ، فإن ثبت الاحتمال الأسوأ يمكن إخضاعه لعملية، وتكون فرصة نجاح العلاج مضمونة بنسبة ٩٩٪».

ديدر أونيل، تُعرف بـــ «إدّا»

ما هذه الترّهة «آيا صوفيا»! كانت هي، أثينا. لكنها بملامستها أعمق أعماق النهر الذي يتدفق عبر روحها، غدت على اتصال بـــ «الأم».

كلّ ما فعلته هو رؤية ما كان يحدث في واقعٍ آخر. ولمّا كانت والدة الممثّلة الشابة ميتة، فهي تعيش في مكان خارج نطاق الزمن. وبذلك كانت قادرة على تغيير مجرى الأحداث، في حين أننا نحن البشر لا يمكننا معرفة سوى الحاضر.

لكن ليس هذا بالأمر البسيط: اكتشاف مرضٍ باطني قبل أن يستفحل ولمس الجهاز العصبي وفتح مسارات الطاقة هو في متناول كلّ منا.

بالطبع هناك كثيرون ماتوا حرقاً، وآخرون تمّ نفيهم، وانتهى الأمر بكثيرين في إخفاء شرارة «الأم الكبرى» أو قمعها داخل أنفسهم. لم أجعل أثينا يوماً على اتصال مع «القدرة». هي التي قرّرت فعل ذلك، لأنّ «الأم» كانت قد أعطتها إشارات مختلفة: كانت نوراً حين رقصتْ وتبدّلت لتصبح حروفاً حين تعلّمت فن الخط، تراءت لها في النار وفي المرآة. ما لم تعرفه تلميذتي كان كيفية التعايش معها. وجاء وقت فعلت فيه شيئاً حفّز سلسلة الأحداث تلك برمّتها.

أثينا، التي كانت تقول للجميع وعلى الدوام، كونوا مختلفين، كانت مبدئياً مثل باقي الفانين. امتلكت إيقاعها الخاص، نوعاً من الثبات على وتيرة واحدة. أكانت أكثر فضولاً من الغالبية؟ ربّما. هل تمكّنت من تجاوز إحساسها بأنها ضحية؟ بالتأكيد. هل شعرت بالحاجة إلى أن تشاطر غيرها ما كانت تتعلّمه مع الآخرين أكانوا موظفي المصرف أم الممثّلين؟ في بعض الحالات كان الجواب «نعم». لكن في بعضها الآخر، كان عليّ تشجيعها، لأننا لم نُخلق لنعيش في وحدة، لأننا نتعرّف أنفسنا عندما نراها في عيون الآخرين.

لكن هذا كان أبعد حدّ وصل تدخّلي إليه.

ربما أرادت «الأم» الظهور تلك الليلة. وربما همست شيئاً في أذنها: «سيري عكس كلّ ما تعلّمته حتى الآن. أنتِ، يا سيدة الإيقاع، اسمحي للإيقاع بأن يعبر جسدك، لكن لا تُذعني له». ولهذا السبب اقترحت أثينا التمرين. كان عقلها الباطن مهيّئاً لتلقّي «الأم». لكن أثينا بذاتها كانت لا تزال ترقص مع وقع الموسيقا. وبذلك، كانت العناصر الخارجية عاجزة عن التجلّي.

الأمر عينه كان يحدث لي. كانت حياكة الصوف طريقتي الفضلى للتأمل والاتصال مع النور وهو شيء علّمتني إياه والدتي عندما كنت صغيرة. عرفت كيف أعدّ القُطب، أتلاعب بالصنّارة وأبتكر أموراً جميلة بفعل التكرار والتناغم. ذات يوم، طلب إليّ حاميّ أن أحيك بطريقة غير منطقية! وجدتُ ذلك مؤلماً فعلاً، لأنني كنت قد تعلّمت أن أحيك بعاطفة وصبر وتفانٍ. مع ذلك، أصرّ عليّ أن أحيك بشكل سيّئ جداً.

قمت بالحياكة على ذاك الشكل لساعتين، وأنا أفكر طوال الوقت أنه تافه وسخيف تماماً. آلمني رأسي، لكن كان عليّ أن أقاوم، أن أدع الصنانير ترشد يديّ. يمكن لأيّ يكن أن يؤدّي الأمور بشكل سيّئ، إذاً لماذا كان يطلب إليّ أنا هذا الأمر؟ لأنه عرف عن هوسي بالترتيب والكمال.

وفجأة، حدث الأمر: توقّفتُ عن تحريك الصنانير، وشعرت بخواء عظيم ملأه حضور دافئ، مُحِبّ، أنيس. كان كل شيء من حولي مختلفاً، وشعرت بقول أشياء لا أجرؤ أبداً على قولها في العادة. لم أغب عن الوعي؛ عرفت أنني كنت أنا، لكن بشكل متناقض، لم أكن الشخص الذي تعوّدتُ كونه.

إذاً يمكنني أن «أرى» ما حدث، على الرغم من أنني لم أكن موجودة هناك؛ تبعت روح أثينا صوت الموسيقا في حين أن جسدها

اتّخذ اتجاهاً معاكساً تماماً. بعد وقت، انقطعت روحها عن جسدها. انفتح حيّزٌ، وتمكّنت «الأم» من الدخول أخيراً.

أو، بالأحرى، ظهرت شرارة من «الأم». هي قديمة، لكن مظهرها مظهر شابة حكيمة، من دون أن تكون كلّية القدرة. مميّزة، لكنها غير متكبّرة البتّة. تغيّرت مداركها الحسية، وأخذت ترى الأمور نفسها التي تعوّدت رؤيتها صغيرة، وهي العوالم المتوازية التي تسكن هذه الدنيا. في لحظات مماثلة، لا نرى جسد الشخص المادي فحسب، بل وجدانياته أيضاً. يُقال إنّ الهررة تمتلك مقدرة مماثلة، وأنا أؤمن بذلك.

يفصل نوع من الكِساء بين العالمين المادي والروحاني، كساء يتبدّل لوناً وشدّة وضوءاً، هو ما يسمّيه الصوفيّون «الهالة». من هذا المنطلق، يصبح كل شيء أسهل. تُملي عليك «الهالة» ما يحدث. لو كنتُ حاضرة معكم، لرأت حول جسدي لوناً بنفسجياً مع بضع بقع صفراء. هذا يعني أنّ دربي لا تزال طويلة، وأنّ مَهمّتي على هذه الأرض لم تُنجز بعد.

تمتزج بالهالات الإنسانية أشكالٌ شفّافة، يدعوها الناس في العادة «أشباح». تلك كانت حال والدة المرأة الشابة. وفي مثل هذه الحالات فقط، يمكن لقَدَرِ امرىءٍ أن يُغيّر. أنا على يقين من أنّ الممثلة الشابة، حتى قبل طرحها للسؤال، عرفتْ أن والدتها كانت إلى جانبها، والمفاجأة الفعلية الوحيدة التي أدهشتها كانت قصة حقيبة اليد.

شعر الجميع بالهول لدى مواجهتهم فعل الرقص غير الإيقاعي. ما السبب؟ لأننا متعوّدون فعل الأشياء «كما يجب فعلها». لا أحد يرغب في القيام بالخطوات الخاطئة، خصوصاً عندما ندرك أننا

نفعل ذلك. حتى أثينا ما كان من السهل عليها اقتراح فعل شيء يعاكس كل ما أحبّته.

أسعدني أنّ «الأم» ربحت المعركة عند تلك المرحلة. خُلّص رجل من مرض السرطان، وآخرُ تقبّل هويته الجنسية، وثالث توقّف عن تناول الحبوب المنوّمة. كلّ ذلك لأنّ أثينا كسرت الإيقاع. وداست مكابح السيارة عندما كانت تسير في سرعتها القصوى قاذفة بكل شيء في الفوضى.

بالعودة إلى الحياكة: ألِفتُ أسلوب الحياكة السيئة لفترة من الزمن، حتى تمكّنتُ من استدعاء الحضور بطرق طبيعية بعد أن أدركته وتعوّدته. حصل الأمر ذاته مع أثينا. ما إن نعرف أين تقوم «أبواب الإدراك الحسّي»، حتى يسهل علينا فتحها وغلقها فعلاً، متى تعوّدنا سلوكنا «الغريب».

لا بُدّ من القول إنني أخذت أحيك الصوف أسرع وأفضل بعد ما حدث، تماماً كما رقصتْ أثينا بروح وإيقاع أكبر حينما تجرّأت على هدم تلك الحواجز.

أندريا ماك كاين، ممثّلة

انتشرت القصة انتشار النار في الهشيم. يوم الاثنين الذي تلى، عندما كان المسرح مقفلاً، ازدحمت شقة أثينا. كنّا جميعاً قد جلبنا أصدقاء. فعلتْ ما قامت به في الأمسية السابقة، جعلتنا نرقص على غير إيقاع، كما لو أنها احتاجت إلى تلك الطاقة الجَماعية لكي تكون على اتصال بـــ «آيا صوفيا». كان الصبي هناك مرة ثانية، وقرّرتُ أن أراقبه عندما جلس على الأريكة. توقّفت الموسيقا وبدأ الانخطاف.

بدأتْ الأسئلة. تناولت الأسئلة الثلاثة الأولى، كما يمكن للمرء أن يتصوّر، موضوع الحب: هل سيبقى معي؟ هل يحبّني؟ هل يخونني؟ لم تقل أثينا شيئاً. أما الفتاة التي طرحت السؤال الرابع والتي لم تلقَ جواباً، فطرحته ثانية، بصوت أعلى:

«إذاً، هل يخونني أم لا؟».

«أنا آيا صوفيا، الحكمة الكونية. جئتُ إلى العالم والحب رفيقي الأوحد. أنا بَدْءُ كل شيء، وقبل كياني اللاتكوّن. لذلك، إن كان أيٌّ منكم يريد التحكّم في القوى التي سادت اللّاتكوّن، فلا تسألوا آيا صوفيا. أنا أرى الحب يملأ كل شيء. رغبته مستحيلة لأنها النهاية بحد ذاتها. لا يمكنه أن يخون لأنه لا يمتّ إلى التملّك بصلة. لا يمكن أسْرَهُ لأنه نهر وسيفيض على ضفتيه. كلّ من يحاول سَجْنَ الحب، يسدّ الينبوع الذي يغذّيه، وسرعان ما تغدو المياه المحجوزة راكدة نتنة.

جالت آيا بنظرها على المجموعة، التي حضر معظمها للمرة الأولى، وأخذت تشير إلى ما رأت: خطر المرض، مشكلات في العمل، خلافات بين أهل وأولادهم، الجنس، إمكانيات طاقات كامنة، لكن غير مُستغلّة. أذكر أنها استدارت ناحية امرأة في الثلاثينيات من العمر قائلة:

«قال لك والدك كيف تجري الأمور وكيف تتصرّف المرأة. لطالما صارعتِ أحلامك، وكلمة «أريد» لم تبدُ على محيّاك قط. لطالما طَمَسَتْها كلمات مثل «عليّ» و«آمل» و«أحتاج»، لكنك مغنّية مذهلة. سنة خبرة واحدة ستُحدث فارقاً هائلاً في عملك».

«لكن لي زوجاً وابناً».

«لأثينا ابن أيضاً. سوف يستاء زوجك بداية. لكنه في النهاية يتقبّل الأمر. ولا يلزمك أن تكوني آيا صوفيا لتعرفي ذلك».

«أوَلستُ كبيرة السن؟».

«أنت لا تتقبّلين ما أنت عليه، لكنّ ذلك ليس من شأني. لقد قلتُ ما وَجَب قوله».

تدريجاً، كان كل من في تلك الغرفة الصغيرة عاجزين عن الجلوس لضيق المكان، يتصبّبون عرقاً مع أن الشتاء كان على وشك الانتهاء؛ يشعرون بالشغف لحضور مثل هذا الحدث. لقد تمّ استدعاؤهم لتلقّي نصيحة آيا صوفيا.

كنتُ الأخيرة.

«ابقي في الخلف إن كنت تريدين ألّا تبقي اثنتين وتكوني واحدة بدلاً من ذلك».

هذه المرة، لم يكن ابنها في حضني. شاهد كل ما حدث، وبدا الحديث الذي أجرياه بعد الجلسة الأولى، كافياً لجعله يطرد خوفه.

أومأتْ إيجاباً على قولها خلافاً للجلسة الأولى، همّ الناس بالانصراف ببساطة عندما طلبتْ التحدّث إلى ابنها على انفراد، لكن، هذه المرة، تلت آيا صوفيا وعظة قبل إنهاء الطقس.

«لستم هنا لتلقّي إجابات قاطعة. مهمّتي أن أحثّكم. في الماضي، كان من عادة الحكّام أن يقصدوا الوسطاء الروحيين ليتعرّفوا ما في الغيب. لكن لا يمكن التعويل على الغيب لأنه رهن بالقرارات التي نتّخذها اليوم، وهنا. أبقوا على الدرّاجة في حركة، لأنكم إن توقّفتم عن الدَوس، ستقعون أرضاً.

إذا أتيتم للقاء آيا صوفيا طالبين إليها أن تؤكّد فحسب ما أمِلْتم

أن يكون صحيحاً، فأرجوكم ألّا تأتوا ثانية، أو اشرعوا في الرقص واجعلوا مَنْ حولكم يرقصوا أيضاً. سيكون القدَرُ جحوداً مع أولئك الذين يريدون العيش في عالم مات وولّى. ينتمي العالم الجديد إلى «الأم»، التي أتت مع الحب لفصل السموات عن المحيطات. وكلّ مَن يعتقد أنه أخفق، سيخفق على الدوام. كلّ مَن قرّر أنه لا يستطيع التصرّف بشكل مغاير للمعتاد، ستُجهز الرتابة عليه. كلّ مَن قرّر أن يعرقل التغيّرات، سيتحوّل تراباً. اللعنة على أولئك الذين لا يرقصون ويمنعون الآخرين من الرقص!.

برقت عيناها ناراً.

«يمكنكم الانصراف».

انصرف الجميع، وأمكنني أن أرى نظرات الارتباك في غالبية العيون. كانوا قد جاءوا بحثاً عن المواساة، فلم يلقوا سوى الاستفزاز. وصلوا وهدفهم أن يُلقّنوا كيف يمكن التحكّم في الحب، وسمعوا أنّ هذا اللهيب المستبدّ سوف يحرق كل شيء. أرادوا أن يتأكّدوا أن قراراتهم كانت صائبة، أن أزواجهم وأربابهم في العمل في رضى عنهم؛ لكن، بدلاً من ذلك، تلقّوا كلمات مُريبة فقط.

ورغم ذلك كان بعضهم يبتسم. فهموا أهمية الرقص. ومنذ تلك الليلة سمحوا لأجسادهم وأرواحهم بلا شك أن تنساق مع ما يترتب على ذلك من ثمن، كما يحصل دائماً.

بقي الصبي، وآيا صوفيا وهيرون وأنا فقط في الغرفة.

«طلبتُ إليكم الانصراف لأبقى هنا وحدي».

من دون أي كلمة، التقط وهيرون معطفه ورحل.

كانت آيا صوفيا تنظر إليّ. شاهدتها تتحوّل، رويداً رويداً، إلى

أثينا من جديد. وما من طريقة لوصف ذاك التحوّل إلا مقارنته بالتحوّل الذي يطرأ على ولد غاضب: نرى الغضب في عينيه، لكن متى انشغل بشيء ما وتلاشى غضبه، يكفّ عن كونه الولد الذي كان يبكي منذ لحظات قليلة. إن «الكيان»، إن جازت تسميته هكذا، بدا وكأنه ذهب مع الريح، عندما فَقَدَتْ أداته التركيز.

وقفت أمام امرأة بدا عليها الإرهاق بوضوح.

«أعدّي لي بعض الشاي».

كانت تأمرني! ولم تعد حينها الحكيمة الكونية، بل مجرد امرأة كان حبيبي مهتماً لأمرها أو مفتوناً بها. إلى أين ستودي بنا هذه العلاقة؟

لكن إعداد كوب من الشاي لن يدمّر تقديري لذاتي. توجّهت إلى المطبخ. غليتُ بعض الماء، أضفتُ إليها بضع أوراق من البابونج، ثم عدت إلى غرفة الجلوس. كان الولد نائماً في حضنها.

قالت: «أنا لا أروق لك».

لم أُجِب.

تابعتْ: «وأنتِ لا تروقين لي. جميلة أنتِ وأنيقة، ممثّلة جيدة، على درجة من الثقافة والعلم لا أحظى بها على الرغم من أمنيات والديّ. لكنك تفتقرين إلى الثقة بالنفس، أنتِ مغرورة ومتطيّرة. كما قالت آيا صوفيا، أنتِ اثنتان حين يمكنكِ أن تكوني واحدة».

«لم أكن أعرف أنكِ تذكّرت ما قلته خلال انخطافك، لأنك في هذه الحالة، كنتِ اثنتين أيضاً: أثينا وآيا صوفيا».

«لعل لي اسمَيْن، لكنني واحدة فقط، أو كلّ مَن في العالم. وهذا بالضبط ما أريد التكلّم عنه. لأنني واحدة وكلّ. إنّ الشرارة

التي تنبثق عندما أدخل حالة الانخطاف، تعطيني تعليمات بالغة الدقّة.

أبقى شبه واعية طوال الحالة. لكنني بالطبع أقول أشياءً منبعثة من جزء مجهول بي. كما لو أنني أرضع من ثدي «الأم»، حليباً يتدفّق في كل النفوس، ويحمل المعرفة إلى كلّ الأرض. في الأسبوع الماضي، وكانت المرة الأولى التي أدخل فيها اتصالاً مع هذا الشكل الجديد، تلقّيتُ ما بدا لي رسالة سخيفة: عليّ تعليمك».

سكتت قليلاً.

«بديهياً، صعقني ذلك، لأنكِ لا تروقين لي على الإطلاق».

سكتتْ مجدداً، لفترة أطول هذه المرة.

«اليوم، مع ذلك، كرّر المصدر الرسالة ذاتها، ولهذا أمنحك هذا الخيار».

«لماذا تسمّينه آيا صوفيا؟».

«كانت تلك الفكرة فكرتي. إنه اسم كاتدرائية جميلة بالفعل رأيتها في كتاب. يمكنك، إن أردت، أن تكوني تلميذتي. هذا ما جاء بك إليّ في اليوم الأول. طرأت هذه المرحلة الجديدة كلياً، على حياتي، بما فيه اكتشافي آيا صوفيا داخلي، فقط لأنك ذات يوم عبرت ذاك الباب وقلت: «أعمل في المسرح، ونحن في صدد الإعداد لمسرحية عن وجه الله الأنثوي. سمعت من صحافي صديق أنك قضيت وقتاً في جبال البلقان مع بعض الغجر، وان لديك استعداداً لتخبريني عن تجاربك هناك».

«هل تعلّمينني كلّ ما تعرفينه؟».

«لا، بل كل شيء لا أعرفه. سوف أتعلّم بالاتصال معك، كما

قلتُ في لقائنا الأول. وكما أقول الآن من جديد. حالما أكون قد تعلّمت ما يلزمني تعلّمه، سيذهب كلٌّ منا في سبيله».

«أويمكنك تعليم شخص لا يروق لك؟».

«يمكنني أن أحب وأحترم شخصاً لا يروق لي. في المرتين اللتين دخلتُ فيهما حالة انخطاف، رأيتُ هالتك، وكانت الهالة الأكثر اكتمالاً التي رأيتها في حياتي. يمكنك أن تُحدثي فارقاً في هذا العالم، إذا قبلتِ طرحي».

«هل تعلّمينني رؤية الهالات؟».

«كنتُ، حتى حدوث ذلك لي للمرة الأولى، أجهل أنني قادرة عليه. إن كنتِ على الطريق الصحيحة، فسوف تتعلّمين أنتِ أيضاً».

أدركتُ حينها أنني، أيضاً، قادرة على صحبة شخص لا يروق لي.

قلتُ: «نعم».

«إذاً، دعينا نحوّل هذا القبول إلى طقس. يلقي بنا الطقس في عالم مجهول. لكننا نعلم أننا عاجزون عن التعامل مع أشياء ذاك العالم باستخفاف. لا يكفي قول «نعم». عليكِ المجازفة بحياتك، لكن من دون التفكير ملياً في الأمر. إن كنتِ المرأة التي أظنّكِ عليها، لن تقولي: «عليّ التفكير في الأمر»، ستقولين...».

«أنا مستعدة. فلننتقل إلى الطقس. بالمناسبة، أين تعلّمتِ الطقس؟».

«سوف أتعلّمه الآن. لم أعد في حاجة إلى إبعاد نفسي عن إيقاعي الطبيعي لأكون على اتصال مع شرارة من «الأم»؛ متى استقرّت الشرارة في داخلك، يسهل عليك إيجادها مجدداً. أعرف أي باب

أحتاج إلى فتحه، مع أنه مخفي بين الكثير من المداخل والمخارج الأخرى. حَسْبِيَ بعضُ الصمت».

الصمت مجدداً!

جلسنا، عينا كل منا جاحظتان محدّقتان، كما لو أننا على وشك قتال حتى الموت. الطقوس! قبل أن أدقّ جرس باب شقة أثينا للمرة الأولى، اشتركتُ في طقوس مختلفة، لأشعر بعدها أنني مُستغلَّة ومُنحطّة الشأن، واقفة خارج باب أمكنني رؤيته، من دون فتحه!

الطقوس!

كل ما فعلته أثينا تناول القليل من الشاي الذي أعددته لها.

«انتهى الطقس. طلبتُ إليك فعل شيء لأجلي. فعلتِ، وقبلتُه. الآن، جاء دورك لتطلبي إلي شيئاً».

فكّرتُ فوراً في هيرون، لكنها لم تكن اللحظة المناسبة للتحدّث عنه.

«اخلعي ثيابك».

لم تسألني عن السبب. نظرتُ إلى الولد، تأكّدت من أنه نائم، وشرعت في خلع بلوزتها فوراً.

قلتُ: «لا، لستِ مضطرة إلى فعل ذلك. لا أدري لماذا طلبتُ ذلك».

لكنها تابعت خلع ملابسها، بلوزتها ثم الجينز، فالصدرية. لاحظتُ نهديها، اللذين كانا أجمل نهدين رأيتهما على الإطلاق. أخيراً، خلعتْ سروالها الداخلي. وها هي، تُقدّم لي عُريها.

«باركيني»، قالت أثينا.

أُبارك «معلّمتي»؟ لكن سبق أن اتّخذتُ الخطوة الأولى ولم يكن في وسعي التوقّف الآن. لذا، غمست أصابعي في الكوب ونثرتُ على جسدها قليلاً من الشاي.

«كما هذه النبتة تحوّلتْ إلى شاي، كما اختلط الماء بالنبتة، أباركك وأسأل «الأم الكبرى» أن يظل الينبوع الذي أتت منه هذه المياه في دفق دائم، وأن تظل الأرض التي أتت منها هذه النبتة في خصوبة وسخاء».

فوجئتُ بكلامي. لم يخرج من داخلي أو خارجي. كان الأمر كما لو أنني أعرفه من قبل، كما لو أنني فعلت ذلك مرات لا تُحصى.

«بوركتِ. يمكنك ارتداء ملابسك الآن».

لم تتحرّك. ابتسمت فقط. ما الذي أرادته؟ إن كانت آيا صوفيا قادرة على رؤية الهالات، لَعَرَفَتْ أنني لم أشعر برغبة ولو بسيطة في ممارسة الجنس مع امرأة أخرى.

«لحظة».

حملتْ الصبي، أخذته إلى غرفته ثم عادت على الفور.

«اخلعي ثيابك أنتِ أيضاً».

مَن كان يطلب ذلك؟ آيا صوفيا، التي تحدّثت عن قدراتي والتي كنت في نظرها التلميذة المثالية؟ أم أنها أثينا، التي لا أكاد أعرفها، والتي بدت قادرة على كل شيء، امرأة علّمتها حياتها أن تذهب إلى أبعد من حدودها وأن تُشبع أي فضول؟

كنّا قد بدأنا نوعاً من المواجهة التي لا رجوع عنها. خلعتُ ملابسي بالبرودة ذاتها، بالابتسامة ذاتها والنظرة ذاتها في عينيّ.

أخذتْ يدي وجلسنا على الأريكة.

على مدى نصف الساعة التي تلت، كانت كلٌّ من أثينا وآيا صوفيا حاضرتين؛ أرادتا أن تعرفا ما ستكون خطواتي التالية حين طلبتا إليَّ أن أُقْدِم على مثل هذا. رأيتُ أن كلّ شيء كان بالفعل مكتوباً أمامي، وأن الأبواب كانت مغلقة من قبل لمجرد أنني لم أكن قد أدركت أنني الشخص الوحيد في العالم المخوّل فتحها.

هيرون راين، صحافي

يقدّم نائب رئيس التحرير إليّ شريطاً مصوّراً، وندخل غرفة العرض لمشاهدته.

أُعدّ الشريط في صباح ٢٦ نيسان/أبريل ١٩٨٦ وهو يُظهر حياةً عادية في بلدة عادية. رجلٌ يجلس وهو يتناول فنجان قهوة. أمٌ تصطحب ابنها في نزهة مشياً. أشخاصٌ مسرعون للوصول إلى عملهم. ناسٌ ينتظرون عند موقف الباص. رجلٌ على مقعد في ساحة يقرأ صحيفة.

لكن ثمة خطباً في الشريط المصوّر. تبدو على الشاشة خطوط أفقية مختلفة، كما لو أنه يجب ضبط زرّ التسلسل. أنهض لفعل ذلك، لكنّ نائب الرئيس يوقفني.

«هي هكذا عليه. تابع المشاهدة».

تتوالى صور البلدة القروية، لا تُظهر أي أمر مشوّق باستثناء هذه المشاهد العادية من الحياة اليومية.

قال رئيسي: «يستحيل أن يعلم الناس بوقوع حادث على بُعد

كيلومترين من هناك. يحتمل أن يعلموا بموت ثلاثين شخصاً، وهو عدد هائل، لكنه لا يكفي لتغيير رتابة سكّان البلدة».

يُظهر الشريط الآن حافلات مدرسية تتوقّف. ستبقى هناك لأيام كثيرة. تسوء حالة الصور أكثر فأكثر.

«ليس السبب في زرّ التسلسل بل في الإشعاع.

هذا الشريط من إعداد استخبارات الـ KGB السرّية في الاتحاد السوفيتي الأسبق. فجر ٢٦ نيسان/أبريل، عند الساعة ١:٢٣، وقعت أسوأ كارثة من صنع الإنسان في تشرنوبيل بأوكرانيا. عندما انفجر مفاعل نووي، تعرّض الناس في المنطقة لإشعاع يفوق إشعاع القنبلة التي أُلقيت على هيروشيما ٩٩ مرة. كان من الواجب إخلاء المنطقة كلها. لكنّ أحداً لم يتفوّه بكلمة. ففي النهاية، الحكومة لا ترتكب الأخطاء. حسبهم بعد أسبوع، أنْ ظهرت في الصفحة رقم ٣٢ من الصحيفة المحلية، مقالة من خمسة أسطر، يُذكر فيها موت عمّال، من دون أي شرح إضافي. في هذه الأثناء، تمّ الاحتفال بعيد العمّال على امتداد دول الاتحاد السوفيتي. وفي كييف، العاصمة الأوكرانية، نزل الناس إلى الشوارع غير مدركين وجود الموت الخفي في الجو».

وختم قائلاً:

«أريدكَ أن تذهب وترى ما حال تشرنوبيل الآن. لقد تمّت ترقيتك للتو إلى مراسل خاص. سوف تحصل على ٢٠٪ زيادة على مرتّبك، وسوف تتمكّن من اقتراح نوع المقال الذي تراه مناسباً لتنشره».

عليّ أن أقفز فرحاً. لكنني منكمش على نفسي، لشعوري

بتعاسة شديدة، عليّ إخفاؤها. تستحيل مجادلته، يستحيل القول إن في حياتي امرأتين حالياً، وإنني لا أرغب في مغادرة لندن، وإن حياتي وتوازني النفسي على المحكّ. أسأل متى عليّ الرحيل. يقول في أسرع وقت ممكن، لأن ثمة شائعات حول بلدان أخرى تزيد، بشكل ملحوظ، إنتاجها من الطاقة النووية.

أتمكّن من التفاوض معه على مخرج مُشرّف، قائلاً: عليّ أوّلاً التحدّث إلى خبراء في المجال، وأن أطّلع بشمولية على الموضوع، لأنطلق متى جمعتُ كل المواد اللازمة.

يوافق، يشبك يده بيدي ويهنّئني. لا أملك الوقت للتحدّث إلى أندريا، لأنها، حين أصل إلى المنزل، تكون لا تزال في المسرح. أنام على الفور. أنهض لأجد ملاحظة تقول فيها إنها ذهبت إلى العمل، وإن القهوة جاهزة على الطاولة.

أمضي إلى المكتب، أحاول أن أحظى برضى رئيسي في العمل الذي «حسّنَ حياتي»، فأهاتف خبراء مختلفين في مجال الإشعاع والطاقة. أكتشف أن تسعة ملايين شخص في مختلف أنحاء العالم تأثروا مباشرة بالكارثة، بمن فيهم ٣ ملايين طفل إلى ٤ ملايين. وكما أفاد الخبير جون غوفمانس، كانت البداية مع ٣٠ حالة وفاة، ليصبح هناك ٤٧٥ ألف حالة سرطانية خبيثة مميتة والعدد نفسه من حالات السرطان غير المميت.

هذا يعني، ببساطة، إزالة ما مجموعه ٢٠٠٠ بلدة وقرية عن الخريطة. وبالاستناد إلى وزارة الصحة في روسيا البيضاء، سوف يرتفع معدل الإصابة بسرطان الغدّة الدرقية بشكل ملحوظ بين عامَي ٢٠٠٥ و٢٠١٠، نتيجةً لارتفاع معدلات الإشعاعات باستمرار. يشرح أخصائي آخر أنه يوجد، إلى جانب الملايين التسعة الذين تعرّضوا

مباشرة للإشعاع، أكثر من ٦٥ مليوناً في بلدان كثيرة من العالم تأثّروا بشكل غير مباشر حين استهلكوا مواد غذائية ملوّثة.

إنها مسألة جدّية، تستحق أن تعالج باحترام. في نهاية اليوم، أرجع إلى رؤية نائب رئيس التحرير، وأقترح أن أسافر إلى تشرنوبيل بمناسبة الذكرى السنوية الفعلية للحادثة، وأقوم في تلك الأثناء بمزيد من الأبحاث، أتحدّث إلى مزيد من الخبراء، وأكتشف كيف تجاوبت الحكومة البريطانية مع المأساة. يوافق.

أهاتف أثينا. في النهاية، هي تدّعي أنها تواعد شخصاً يعمل في سكوتلند يارد، وحان الوقت لأطلب منها خدمة، بالنظر إلى أن تشرنوبيل لم تعد من ضمن الملفات السرية، وإلى أن الاتحاد السوفيتي لم يعد قائماً. تعدني أنها ستتحدّث إلى «حبيبها». لكنها تقول إنها لا تضمن الحصول على الإجابات التي أريدها.

تقول أيضاً إنها ذاهبة في اليوم التالي إلى اسكوتلندا. وسوف ترجع عندما يحين موعد اللقاء التالي بالمجموعة.

«أي مجموعة؟».

تقول: المجموعة. إذاً أصبح الأمر منتظماً؟ كل ما أريده هو معرفة متى يمكننا أن نلتقي، وتصفية بعض الجوانب المعلّقة المختلفة.

لكنها كانت قد أقفلت الخط. أذهب إلى المنزل، أشاهد الأخبار، أتناول العشاء وحدي. ولاحقاً، أخرج مجدداً لإحضار أثينا من المسرح. أصلُ في ختام المسرحية. ولعجبي، تبدو المرأة المعتلية الخشبة مغايرة تماماً للمرأة التي أساكنها منذ سنتين. ثمة شيء ساحر في كل حركة تأتي بها؛ تُقال الحوارات الأحادية والثنائية بشدّة غير مألوفة.

أنا أرى غريبة، امرأة أرغب في أن تكون إلى جانبي، ثم أدرك أنها بالفعل إلى جانبي، وليست بشكل من الأشكال غريبة عني.

في طريق العودة إلى المنزل، أسأل: «كيف سار حديثك مع أثينا؟».

«جيد. كيف حال عملك؟».

كانت هي مَن غيّر الموضوع. أخبرها عن ترقيتي وعن تشرنوبيل، لكنها لا تبدو مهتمّة. أبدأ، أقول في سرّي إنني أفقد الحب الذي أملك، من دون امتلاكي بعد الحب الذي آمل في ربحه. مع ذلك، ما إن وصلنا إلى شقّتنا، حتى تقترح أن نستحم معاً. وقبل أن أدرك الأمر، أجدنا في الفراش. أولاً، تضع موسيقا النقر تلك بأعلى صوت (توضح أنها تدبّرت أمر الحصول على نسخة)، وتقول لي ألّا أقلق بشأن الجيران. فالناس يقلقون بشأن جيرانهم ولا يعيشون البتّة حياتهم الخاصة.

ما بدأ يحدث من تلك اللحظة أمر يفوق فهمي. هذه المرأة التي تمارس الحب الوحشي معي، هل اكتشفت أخيراً غريزتها الجنسية؟ هل لُقّنت ذلك أم أنّ تلك المرأة الأخرى قد استثارت فيها ذلك؟ وفيما كانت متشبّثة بي بعنفٍ لم أخبره فيها من قبل، ظلّت تقول:

«اليوم أنا رجلك، وأنت امرأتي».

بقينا ساعة على هذه الحال. اختبرتُ أموراً لم أجرؤ على اختبارها من قبل. في لحظات معيّنة، شعرت بالخجل، أردت أن أطلب إليها التوقّف، لكنها كانت تتحكم في الوضع بشكل مطلق؛ فاستسلمتُ، لأنني لم أملك خياراً ولأنني، في الواقع، شعرت بالفضول فعلاً.

أصابني الإرهاق على الأثر، لكن أندريا بدت وكأنها مشحونة بالطاقة مجدداً.

قالت: «قبل أن تخلد إلى النوم، أرغب في أن تعرف أمراً. إن مضيتَ قُدماً، سوف يقدّم لك الجنس فرصة ممارسة الحب مع الآلهة والإلهات. هذا ما خَبِرْتَه اليوم. أريدك أن تخلد إلى النوم وأنت تعرف أنني أيقظت «الأم» في داخلك».

أردتُ سؤالها إن كانت قد تعلّمت هذا من أثينا، لكنّ شجاعتي خانتني.

«قُلْ لي إنك حبّذت كونك امرأة لليلةٍ».

«فعلتُ. لا أدري إن كنتُ سأحب ذلك دوماً، لكنه كان أمراً أرعبني ومنحني فرحاً عظيماً في الوقت نفسه».

«قل لي إنك طالما أردت اختبار ما خبرته للتو».

إن السماح للنفس بأن تنجرف في الحالة هو شيء، وأن يعلّق المرء على المسألة ببرود شيء آخر. لم أقل شيئاً، مع أنني كنت مؤكّداً من أنها عرفت جوابي.

تابعت أندريا: «حسناً، كان هذا كله في داخلي، ولم أملك فكرة عنه. هذا تماماً كالمرأة المقنّعة التي سقط قناعها عندما كنت على خشبة المسرح. هل لاحظتَ أي اختلاف؟».

«بالطبع. كنتُ تشعّين نوراً مميزاً».

«إنها قوّة الحضور، القوة الإلهية التي تتجلّى في الرجال والنساء. القدرة الخارقة التي لا نحتاج إلى إظهارها لأي يكن، لأن الكلّ قادرون على رؤيتها، حتى الأشخاص الفاقدو الإحساس في العادة. لكن يحصل هذا فقط عندما نكون عراةً، عندما نموت في نظر

العالم ونولد من جديد في أنفسنا. الليلة الماضية، مُتُّ. الليلة، عندما سِرْتُ على خشبة المسرح ورأيتُ أنني كنت أفعل تماماً ما اخترتُ فعله، انبعثتُ من رمادي. كنتُ أحاول دوماً أن أكون أنا، لكنني لم أفلح في ذلك قط. كنت أحاول دوماً أن أؤثّر في آخرين، أن أنخرط في أحاديث عاقلة، أن أُرضي والديّ. وفي الوقت نفسه، استخدمتُ كل وسيلة متاحة للقيام بالأشياء التي أودّ القيام بها فعلاً. لطالما شيّدتُ دربي بالدم والدموع وقوّة الإرادة. لكن الليلة الماضية، أدركتُ أنني كنت أمضي على الدرب الخطأ. لا يستوجب مني حلمي ذلك، ليس عليّ سوى الاستسلام له. وإذا أحسست أنني أعاني، أكزّ على أسناني، لأن العذاب سيمرّ.

«لماذا تخبرينني بهذا؟».

«دعني أُنهِ كلامي. في تلك الرحلة، حيث بدا العذاب القاعدة الوحيدة، كافحتُ في سبيل أشياء لا جدوى من الكفاح لأجلها، كالحب مثلاً. إما أن يشعر به الناس وإما ألا يشعروا. وما من قوة في العالم يمكنها أن تجعلهم يشعرون به. يمكننا الادّعاء أننا نحب بعضنا بعضاً. بالإمكان أن يألف أحدنا الآخر. بمقدورنا أن نعيش حياة طويلة من الصداقة والشراكة، أن نربّي الأولاد، أن نمارس الجنس كل ليلة، أن نبلغ النشوة ونظل نشعر مع ذلك بأن ثمة فراغاً رهيباً في كل هذا، أن شيئاً مهماً ما مفقود. باسم كلّ ما تعلّمته عن العلاقات بين الرجال والنساء، كنت أحاول النضال من أجل أشياء لم تكن أهلاً للنضال. وهذا الأمر ينسحب عليكَ. الليلة، ونحن نمارس الحب، وأعطيكِ كل ما عندي، وأرى أنك أنتَ أيضاً كنت تعطي أفضل ما عندك، أدركت أنّ أفضل ما عندك لم يعد يهمّني. سوف أنام إلى جانبك الليلة، لكنني سأرحل في الغد. المسرح

هو طقسي. وهناك، يمكنني التعبير عن كل ما أريد التعبير عنه، وتنمية كل ما أريد تطويره».

رحت أندم على كل شيء: الذهاب إلى ترانسلفانيا ولقاء المرأة التي ربما كانت تدمّر حياتي، تدبير لقاء «المجموعة» الأول، الاعتراف بحبّي في المطعم. في تلك اللحظة، كرهتُ أثينا.

قالت أندريا: «أعلم ما تفكّر فيه. تظن أن صديقتك أثينا قد غسلت دماغي، لكن هذا غير صحيح».

«أنا رجل، على الرغم من أنني تصرّفت كامرأة في الفراش الليلة. أنا جنسٌ مهدّد بالانقراض لأنني لا أرى الكثير من الرجال حولي. ذلك أن قلّة تجازف بما جازفت به».

«أنا واثقة أنكَ على حق، لذلك تثير إعجابي. لكن أَلَنْ تسألني مَن أنا، ماذا أريد؟ وفيمَ أرغب؟».

سألت.

«أريد كل شيء. أريد الوحشية والحنان. أريد أن أثير استياء الجيران وأن أسترضيهم أيضاً. لا أريد امرأة في فراشي، أريد رجالاً، رجالاً عن حق، مثلك. لا يهمّ إن كانوا يحبّونني أم كانوا يستغلونني فحسب. حبّي أعظم من هذا. أريد أن أُحبّ بحرّية، وأريد أن أسمح للناس من حولي أن يقوموا بالمِثل.

وما تحدّثتُ فيه إلى أثينا كان الطُرق البسيطة في إيقاظ الطاقة المكبوتة، مثل ممارسة الحب أو نزول الشارع والقول: «أنا موجود». لم يكن من أمر مميّز، ما من طقس سرّي. الشيء الوحيد الذي جعل لقاءنا مختلفاً قليلاً هو أننا كلتينا كنا عاريتين. من الآن فصاعداً، سوف ألتقيها كل اثنين، وإن كان عندي أي تعليقات، أدلي بها بعد كل جلسة. لا رغبة لي في أن أكون صديقتها. لا

أريد أن أكون مثلها. فهي عندما تشعر بالحاجة إلى مشاطرة أحدهم شيئاً، تذهب إلى اسكوتلندا للتحدّث إلى تلك المرأة «إدّا»، التي، يبدو أنك تعرفها أيضاً، مع أنكَ لم تأتِ على ذكرها قط».

«لا أذكر حتى لقاءها!».

أحسستُ أنّ أندريا كانت تهدأ تدريجاً. أعددت كوبَي قهوة وشربناهما معاً. استعادت ضحكتها وسألت عن ترقيتي. قالت إنها قلقة بشأن لقاءات يوم الاثنين، لأنها لم تعلم قبل ذاك الصباح أنّ أصدقاء أصدقائها كانوا يدعون أشخاصاً آخرين، وشقة أثينا كانت صغيرة جداً. بذلتُ جهداً هائلاً للادّعاء بأنّ كل ما حدث ذاك المساء كان مجرد نوبة أعصاب أو توتّر ما قبل الحيض أو الغيرة من جانبها.

لففتها بذراعيّ، استكانت على كتفي. وعلى الرغم من إرهاقي، فإنني انتظرتُ حتى غفت. تلك الليلة، كان نومي بلا أحلام. لم أشعر بأي نذير.

وفي الصباح التالي، عندما استيقظتُ، رأيتُ أن ملابسها قد اختفت، المفتاح على الطاولة، وما من رسالة وداع.

ديدر أونيل، تُعرف بـــ «إدّا»

يقرأ الناس الكثير من القصص عن الساحرات، الجنّيات، الخارقين والأولاد الممسوسين. يذهبون لمشاهدة أفلام سينمائية تُظهر طقوساً فيها نجوم خماسية سحرية، سيوف، استحضار أرواح. لا بأس في ذلك، لأن الناس يحتاجون إلى إطلاق العنان لمخيلاتهم والمرور بمراحل معيّنة. كلّ من يعبرون تلك المراحل من دون الوقوع في الضلال، ينتهي بهم المطاف إلى الاتصال بالتقليد الموروث.

التقليد الحقيقي هو التالي: لا يخبر المعلّم التلميذ مطلقاً ما عليه فعله. هما مجرد رَفيقين مرتحلين، يتشاركان في شعور «الغربة» المزعج نفسه عندما تواجههما مدارك متغيّرة أبداً، وأُفق توسّع المدى، وأبواب تنغلق، وأنهار تبدو أحياناً أنها تعرقل دربهما التي في الواقع، لا ينبغي عبورها، بل اتّباعها.

ثمة فارق واحد بين معلّم وتلميذ، هو أن الأول أقل خوفاً بقليل من الثاني. ثم، عندما يجلسان إلى مائدة أو حول نار للتحدّث، قد يقول الشخص الأطول باعاً: «لمَ لا تفعل كذا؟»، لكنه لا يقول أبداً: «اذهب إلى هناك وسوف تصل إلى حيث وصلت»، ذلك أنّ لكل فرد طريقاً، ووجهة فريدة.

المعلّم الصادق يمنح تلميذه الشجاعة لكي يقذف بعالمه من على كفّة الميزان، رغم خوف التلميذ من أشياء سبق أن صادفها، ورغم خوفه الأكبر مما ينتظره، وهو قاب قوسين أو أدنى منه.

كنت طبيبة شابة متحمّسة، تحدوها الرغبة في مساعدة أخوتها في الإنسانية. سافرتُ إلى الداخل الروماني ضمن برنامج تبادلٍ أجرته الحكومة البريطانية. انطلقتُ، حقيبتي محمّلة بالأدوية، ورأسي بالتصوّرات السابقة. كانت أفكاري واضحة عن آداب السلوك، عمّا يلزمنا لنكون سعداء، عن الأحلام التي ينبغي لنا الإبقاء على نبضها في داخلنا، عن كيفية تطوير العلاقات البشرية. وصلتُ إلى بوخارست خلال عهد الديكتاتورية المسعورة الدموية، وذهبتُ إلى ترانسلفانيا لأساعد في حملة تلقيح شاملة للسكّان المحلّيين.

لم أدرك أنني كنت مجرد حجر إضافي على رقعة شطرنج معقّدة، حيث كان ثمة أيدٍ خفية تتلاعب بمثالياتي، وأن تلك الدوافع المستترة تقبع خلف كل ما آمنت في أنه لأغراض إنسانية:

إحلال الاستقرار في الحكومة التي يديرها ابن الديكتاتور، السماح لبريطانيا ببيع أسلحة في سوق يسيطر عليها السوفييت.

انهارت كل نياتي الحسنة عندما وجدتُ أن اللقاح لم يكن كافياً للجميع؛ وأن ثمة أمراضاً أخرى تكتسح المنطقة؛ وأنني مهما بعثتُ في طلب المزيد من الموارد، فلن أحظى بتوصيلها إلي. قيل لي ألّا أقلق بشأن أمور ليست مطلوبة مني.

شعرتُ بالضعف والغضب. رأيتُ الفقر عن كثب، وكان بمقدوري أن أتصرّف حياله لو أنّ أحداً قدّم لي بعض المال فحسب، لكن لم يكن أحد مهتماً بالنتائج. أرادت حكومتنا بضعة مقالات في الصحيفة، لكي تتمكّن من القول لأحزابها السياسية أو لناخبيها أنها أرسلت بمجموعات إلى أماكن مختلفة من العالم في مَهَمّة إنسانية. كانت نياتها حسنة، فيما عدا بيع الأسلحة بالطبع.

انتابني اليأس. أي نوع من العالم هذا؟ ذات ليلة، اندفعتُ إلى الغابة التي يفترشها الصقيع، لاعنةً الظلم الذي لحق بكل شيء وكل شخص. كنت جالسة عند جذع سنديانة حينما قاربني حاميّ. قال إنني قد أموت من البرد، وأجبته إنني طبيبة وأُدرك مقدرة الجسم. وإنني ما إن أشعر بأنني على حدود تلك القدرة حتى أعود إلى المخيّم. سألته ما الذي كان يفعله هناك.

«أتحدّث إلى امرأة يمكنها سماعي، في عالم بات فيه كلّ الرجال صُمّاً».

خلتُ أنه كان يعنيني، لكنّ المرأة التي كان يشير إليها، كانت الغابة بحد ذاتها. عندما رأيت ذاك الرجل يهيم وسط الأشجار، يقوم بحركات ويقول أشياء لم أتمكّن من فهمها، استقرّ نوع من السلام في قلبي. لم أكن، في النهاية، الشخص الوحيد في

العالم الذي تُرك ليتحدّث إلى نفسه. قفلت عائدة إلى المخيّم، توجّه نحوي ثانية.

قال: «أعرف من أنتِ. يقول الناس في القرية إنك شخص شديد الاحترام، روحك مرحة على الدوام، وإنك على استعداد لمساعدة الآخرين، لكنني أرى أمراً آخر: أرى غضباً وإحباطاً».

ربما كان جاسوساً حكومياً، لكنني قرّرت إخباره بكل ما كنت أشعر به، على الرغم من أنني كنت أجازف بحريتي، فربّما اعتُقلت. مشينا معاً إلى المستشفى الميداني حيث كنت أعمل، اصطحبته إلى المهجع، الذي خلا في ذاك الوقت (كان زملائي جميعاً يستمتعون في المهرجان السنوي الذي يقام في البلدة)، وسألته إن كان يرغب في تناول مشروب. سحب زجاجة من جيبه.

«في حوزتي «بالينكا»، قالها قاصداً بها مشروب رومانيا التقليدي، الذي يحتوي على نسبة مرتفعة جداً من الكحول.

شربنا معاً، حتى أنني لم ألاحظ كيف كنت أثمل باطّراد. تداركتُ الوضع فقط عندما حاولتُ الذهاب إلى المرحاض، تعثّرتُ وسقطتُ طريحة الأرض.

قال الرجل: «لا تأتي بحركة. انظري إلى ما يقع أمام عينيكِ».

خطٌ من النمل.

«يعتقد الكلّ أنّ النمال شديدة الحكمة. تتمتّع بذاكرة، بذكاء، بقدرات تنظيمية، بروح التضحية. تبحث عن الطعام صيفاً، تخزّنه للشتاء. وهي الآن تنطلق مجدداً إلى العمل في فصل الربيع المتجمّد هذا. إنْ هلك العالم في الغد بفعل قنبلة نووية، فإن النمال ستنجو».

«كيف لك معرفة هذا كلّه؟».

«درستُ علم الأحياء».

«لماذا بحق السماء لا تسعى إلى تحسين ظروف شعبك المعيشية؟ ما الذي تفعله في وسط الغابة، متحدّثاً إلى الأشجار؟».

«أولاً. لم أكن وحدي؛ إلى جانب الأشجار، كنتِ تصغين إليّ أيضاً. لكن رداً على سؤالك، تركتُ دراسة علم الأحياء لأعمل حدّاداً».

وقفتُ على رجليّ بصعوبة. وكنت لا أزال أحسّ بدوار. كيف كنتُ أفكر بوضوح كافٍ لفهم وضع الرجل المسكين. على الرغم من تحصيله الجامعي، فإنه كان عاجزاً عن إيجاد عمل. أخبَرته أن الأمر ذاته كان يحدث في بلادي أيضاً.

«لا، ليس هذا ما عنيتُه، تركتُ علم الأحياء لأنني أردت أن أعمل حدّاداً. لطالما افتُتنت منذ نعومة أظفاري بأولئك الرجال يطرقون الحديد، يصنعون نوعاً غريباً من الموسيقا، ينفثون شرارات في كل مكان، يغمسون الحديد الحامي في الماء ويخلقون سحباً من البخار. كنت تعيساً كعالِم أحياء، لأنّ حلمي كان في جعل الحديد القاسي يتّخذ أشكالاً رقيقة. ثم، ذات يوم، ظهر حامٍ».

«حامٍ؟».

«لدى رؤية تلك النمال، تفعل تماماً ما هي مبرمجة لفعله، لا بدّ للمرء أن يصاب بالذهول!».

إن النمال الحارسات مهيأة جينيّاً للتضحية من أجل الملكة، والنمال العاملات تحمل أوراقاً أثقل منها بعشر مرّات، والنمال المهندسات تحفر أنفاقاً يمكنها مقاومة العواصف والفيضانات. إنها

تخوض قتالاً مميتاً مع أعدائها، تعاني من أجل مجتمعها ولا تسأل مطلقاً لماذا تفعل ذلك. يحاول الناس محاكاة مجتمع النمل الفاضل. وبصفتي عالم أحياء، كنت أؤدي دوري، إلى أن جاء أحدهم بهذا السؤال: «هل أنت سعيد بما تفعله؟». قلت: «بالطبع، أنا كذلك. إنني أُفيد شعبي». «وهل هذا كافٍ؟».

لم أدرِ إن كان كافياً أم لا. لكنني قلت إنه بدا لي متعجرفاً وأنانياً في آن. أجاب: «ربما. لكن كل ما سوف تحققه هو تكرار ما يحصل منذ بدء الإنسان، وهو الإبقاء على الأمور منتظمة».

قلت: «لكنّ العالم قد تطوّر». سألني إن كنت على معرفة لأي تاريخ. بالطبع، كنت كذلك. طرح سؤالاً آخر: «ألم نكن منذ آلاف السنين، قادرين على تشييد أبنية ضخمة مثل الأهرامات؟ ألم نكن قادرين على عبادة آلهة، على مزاولة الحياكة، على وَقد النار، على إيجاد عشيقات وزوجات، على إرسال رسائل مكتوبة؟ بالطبع، كنا كذلك. لكن مع أننا نجحنا في استبدال العبيد بعبيد يتقاضون أجراً، ومع كلّ التقدُّم الذي أحرزناه في حقل العلم، فإن البشر لا يزالون يطرحون الأسئلة ذاتها التي طرحها أسلافهم. باختصار، فنحن لم نتطوّر البتة». عند تلك المرحلة، فهمتُ أن الشخص الذي كان يطرح عليّ هذه الأسئلة كان مُرسلاً من السموات، ملاكاً، حامياً.

«لماذا تدعوه حامياً؟».

«لأنه أخبرني أن ثمة تقليدين اثنين: واحداً يجعلنا نكرّر الأمر ذاته لقرون متواصلة، وآخر يفتح لنا باب المجهول. مع ذلك، فإن التقليد الثاني عسير، مزعج وخطير. وإن استقطب الكثير من الأتباع، فسوف يؤول به الأمر إلى تدمير المجتمع، الذي بنحوه منحى النمل، استغرق نشوءه وقتاً طويلاً. وبالتالي، بقي هذا التقليد في

الخفاء، وتمكّن من البقاء على مدى قرون، لمجرّد أن أتباعه خلقوا لغة إشارات سرية».

«هل طرحتَ مزيداً من الأسئلة؟».

«بالطبع فعلت. وعرف أنني لم أكن راضياً عمّا كنت أفعله مع أنني أنكرت الأمر. قال حاميّ: «أخشى اتّخاذ خطوات غير موجودة على الخريطة، لكنني باتخاذ هذه الخطوات على الرغم من مخاوفي، أحيا حياة أكثر تشويقاً. طرحتُ المزيد من الأسئلة عن التقليد، وقال شيئاً من مثل: «ما دام الله مجرّد إنسان، فسوف يكون عندنا على الدوام ما يكفي من المأكل والمسكن. عندما تستعيد «الأم» حرّيتها أخيراً، قد نضطر إلى النوم في العراء، وأن يكون الحب زادنا، أو قد نتمكّن من موازنة العاطفة والعمل». سأل الرجل، الذي تبيّن أنه حاميّ: «لو لم تكن عالم أحياء، ماذا كنت لتكون؟».

قلت: «حدّاداً، لكنّ الحدادين لا يَجْنون الكثير من المال». وأجاب: «عندما تسأم من كونك سواك، اخرج واستمتع واحتفل بالحياة، وأنت تطرق المعدن أشكالاً وأشكالاً. مع الوقت، سوف تكتشف أنه سيمنحك أكثر من المتعة، سيمنحك معنىً». سألتُ: «كيف لي أن أتبع هذا التقليد الذي تحدّثت عنه؟». أجاب: «كما قلتُ، من خلال الرموز. اشرع في فعل ما تريد فعله، وسوف ينكشف لك كل شيء. آمن أنّ الله هو «الأم»، وارعَ أولادها، ولا تدع مكروهاً يصيبهم. فعلتُ هذا وبقيتُ على الحياة. اكتشفتُ أنّ ثمة آخرين قاموا بالمِثل، لكن يُنظر إليهم على أنهم مجانين، غير مسؤولين، متطيّرون. بما أنّ الزمن سحيق، فقد بحثوا عن إلهامهم في الطبيعة. صحيحٌ أننا نبني أهرامات، لكننا نُقيم رموزاً أيضاً».

بقوله هذا، رحل ولم أره ثانية. كل ما أعرفه هو أنّ الرموز أخذت تظهر بالفعل منذ تلك اللحظة فصاعداً، لأن عينيّ انفتحتا على أثر تلك المحادثة. ذات مساء، وعلى الرغم من صعوبة الأمر، أخبرتُ عائلتي كم كنت تعيساً مع أنني مَلَكتُ كل شيء يحلم المرء بامتلاكه. وأخبرتهم أنني في الواقع وُلدتُ لأكون حدّاداً. احتجّت زوجتي قائلة: «لقد وُلدتَ غجرياً وكان عليك مواجهة كل الذلّ للوصول إلى حيث أنت. ومع ذلك، تريد التراجع؟». غير أنّ ابني، شعر بالاندهاش لأنه، هو أيضاً، راقت له مشاهدة الحدّادين في قريتنا وكَرِه المختبرات في المدن الكبرى.

أخذتُ أقسّم وقتي ما بين الأبحاث الأحيائية والعمل كمبتدىء في الحِدادة. كنتُ تعباً على الدوام، لكن أكثر سعادة بكثير. ذات يوم، تركتُ عملي وأنشأتُ ورشة حِدادة خاصة بي، وكانت عاثرة منذ انطلاقتها. في الوقت الذي أخذتُ أؤمن فيه بالحياة، ازدادتْ الأمور سوءاً بشكل ملحوظ. ذات يوم، وبينما كنت مُكبّاً على العمل، رأيتُ رمزاً أمامي.

في العادة، يصل المعدن غير المصقول إلى ورشتي، وعليّ أن أحوّله إلى قطع للسيارات، والآليات الزراعية، وأواني المطبخ. أَوَتعلمين كيف يتمّ ذلك؟ أولاً، أُحمّي المعدن حتى يصبح وهّاجاً، ثم أطرقه بقساوة بأكثر مطارقي ثقلاً إلى أن يتّخذ المعدن الشكل الذي أريده. ثم أغطّسه في دَلْو من الماء البارد وتمتلىء الورشة بأكملها بعبق البخار المدوّي، بينما يفرقع المعدن استجابةً للتغيُّر المفاجىء في الحرارة. عليّ أن أواظب على تكرير تلك العملية حتى يصبح الشيء الذي أصنعه في أفضل شكل: مرة واحدة لا تكفي».

سكت الحدّاد مطوّلاً. أشعلَ سيجارةً ثم تابع:

«أحياناً، ما أحصل عليه من معدنٍ لا يحتمل مثل تلك المعالجة.

تؤدي الحرارة وضربات المطرقة والماء البارد إلى تصدّعه. وأعرف أنني لن أتمكن أبداً من جعله شفرة محراث أو مقبض محرّك جيدين، فأقذف به إلى كومة خردةٍ للمعدن عند مدخل دُكاني.

سكت الحدّاد طويلاً، ثم اختتم قائلاً:

«أعرف أنّ الله يُخضعني لنار العذابات. لقد تقبّلتُ الضربات التي سدّدتها الحياة لي، وأشعر أحياناً أنني في حالة فتور ولا مبالاة كالماء الذي ينزل بالمعدن مثل ذاك الألم. لكن صلاتي الوحيدة هي: «أرجوك يا ربي، يا أيتها «الأم»، لا تتخلّي عني حتى أكون قد اتّخذتُ الشكل الذي شئته لي. ولتكن يا ربّ مشيئتك بأي وسيلة تجدها مناسبة، ولتدع ذلك يطول ما يحلو لك، لكن لا ترمني يوماً فوق كومة خردة الأرواح»».

لعلني كنتُ ثملة لدى انتهائي من حديثي إلى ذلك الرجل. لكنني عرفتُ أنّ حياتي تغيّرت. ثمة تقليدٌ خلف كلّ ما نتعلّمه. ولَزِمَني أن أنطلق بحثاً عن أشخاص، كانوا، عن وعي أو غير وعي، قادرين على إظهار وجه الله الأنثوي. وبدلاً من لعن حكومتي ولعن كلّ السياسة بحِيَلِها، قرّرت أن أفعل ما أردتُ فعله حقاً: شفاء الناس. لم أكن مهتمة بشيء آخر.

بما أنني لم أملك الموارد اللازمة، فقد قاربتُ المحلّيين رجالاً ونساء، وأرشدوني إلى عالم طب الأعشاب. اكتشفتُ أنه تقليد شعبي يرجع إلى مئات السنين، توارثه جيل من جيل بالخبرة لا بالمعرفة التقنية. بمساعدتهم، تمكّنتُ من فعل أكثر مما كنت سأفعله بأي طريقة أخرى. مردُّ ذلك أنني لم أكن هناك لمجرد أن أُنجز مَهمةً جامعية، أو أساعد الحكومة في بيع الأسلحة، أو أروّج، عن غير قصد، لحزب سياسي. كنت هناك لأن شفاء الناس جعلني سعيدة.

قرّبني ذلك من الطبيعة، من التقليد المُتوارث مُشافهةً ومن النباتات. بعودتي إلى بريطانيا، قرّرت التحدّث إلى أطباء آخرين، وسألتهم: «أتعرفون دوماً أي أدوية بالضبط تصفون لمرضاكم، أم أنكم تسترشدون بالحدس أحياناً؟».

اعترفَ معظمهم تقريباً، بعد أن طرحوا الحذر جانباً، أنّ صوتاً ما يرشدهم في الغالب، وأنهم، عندما يتجاهلون نصيحة الصوت، ينتهي بهم الأمر إلى إعطاء العلاج الخطأ. من البديهي أنهم يستخدمون كلّ التكنولوجيا المتوافرة، لكنهم يعلمون أن ثمة زاوية، زاوية قاتمة، حيث يكمن المعنى الحقيقي للعلاج، ومعه القرار الأفضل لاتخاذه.

أخلّ حاميّ بتوازن عالمي، مع أنه كان مجرد حدّاد غجري. تعوّدتُ الذهاب مرة في السنة على الأقل إلى قريته. وكنا نتحدّث كيف أن الحياة تنفتح أمام أعيننا عندما نتجرّأ على رؤية الأمور بمنظارٍ مختلف. في إحدى تلك الزيارات، التقيتُ تلامذة آخرين من تلامذته، وتناقشنا في مخاوفنا ونزواتنا. قال حامي:

«أنا، أيضاً، خِفتُ. لكنني في مثل هذه اللحظات فقط أكتشف حكمة أبعد مني وأمضي».

في الوقت الراهن، أجني مالاً كثيراً من مهنة الطب العام في إدنبورغ. وسوف أجني المزيد إذا ذهبت للعمل في لندن. لكنني أفضّل أن أستفيد من الحياة إلى أقصاها، وأن يكون لي وقت للاستراحة. أفعل ما أحبّه: أجمع ما بين علاجات الأسلاف والتقليد الباطني مع أحدث تقنيات طب اليوم وتقليد أبقراط. إنني في صدد كتابة تحقيق حول الموضوع. وعندما يرى كثير من الناس في المجتمع «العلمي» نصّي منشوراً في مجلة اختصاصية، فسوف يتجرّأون على اتخاذ الخطوات التي طالما أرادوا من أعماق قلوبهم اتخاذها.

لا أؤمن بأن العقل هو مصدر كلّ الأمراض. ثمة أمراض حقيقية أيضاً. أعتقد أن المضادات الحيوية ومضادات الفيروسات كانتا تطوّراً عظيماً لصالح الإنسانية. لا أعتقد أن مريضاً من مرضاي مصاباً بالتهاب الزائدة يمكن علاجه بالتأمل وحده، ما يلزمه جراحة طارئة ماهرة. لذلك، أتّخذ كل خطوة بشجاعة وخوف، جامعة التقنية والإلهام. وأنا أتوخى الحذر في انتقاء من أقول له تلك الأمور، لأنني قد أوصَمُ بلقب طبيبة مشعوذة. وبالتالي قد تُزهق أرواح كثيرة يمكن لي أن أخلّصها.

عندما لا أكون واثقة الخطوة، أسأل عون «الأم الكبرى». لم تخذلني يوماً في الاستجابة لي. لكنها كثيراً ما أشارت عليّ بالتزام الصمت. لعلها أسدت إلى أثينا النصيحة ذاتها غير مرة، لكنّ أثينا ذُهلت بالعالم الذي كانت شرعت باكتشافه، ولم تُصغِ.

صحيفة لندنية، ٢٤ آب/أغسطس ١٩٩١

ساحرة بورتوبيلو

لندن (جيريمي لوتون) ــ «هذا سبب آخر يدفعني إلى عدم الإيمان، ولتفهموا ما أعني، انظروا إلى سلوك المؤمنين!». كان هذا ردّ فعل روبرت ويلسون، أحد التجار في شارع بورتوبيلو رود.

هذا الشارع الذائع الصيت في العالم أجمع، لاشتهاره بمحال التحف، وسوق السبت الشعبية، تحوّل ليلة أمس إلى ساحة قتال، ما استدعى تدخّل خمسين شرطياً على الأقل من شرطة مقاطعة كينسينغتون وشيلسا الملكية، لضبط الأمن.

ومع انتهاء الشجار كانت الحصيلة إصابة خمسة أشخاص،

إصابات غير خطيرة. سبب هذه المعركة الضارية التي دامت ساعتين، تظاهرة نظّمها المحترم إيان باك احتجاجاً على ما أسماه «العبادة الشيطانية في قلب إنجلترا».

بالاستناد إلى المحترم باك، كانت عصبة من الأفراد المريبين تقض مضجع كل سكان الجوار ليلة كل اثنين، وعلى مدى الأشهر الستة الماضية. ذلك أن ليلة الاثنين كانت ليلتهم المختارة لاستحضار الشيطان. تترأس المراسم امرأة لبنانية تدعى شيرين هـ. خليل، تطلق على نفسها اسم أثينا تيمّناً بإلهة الحكمة.

كان حوالى مئتي شخص يجتمعون في مخزن حبوب عائد إلى شركة إيست إنديا سابقاً. لكنّ العدد ازداد مع الوقت. وفي الأسابيع الأخيرة، كان حشد مماثل يتجمّع في الخارج أيضاً، آملاً الدخول والمشاركة في المراسم. عندما أخفقت شكاوى المحترم باك الشفوية، وعرائضه ورسائله إلى الصحف المحلية، قرّر أن يحشد رعيته ودعاهم إلى التجمّع خارج مخزن الحبوب عند الساعة السابعة مساء أمس لمنع «عبدة الشيطان» من الدخول.

«حالما تلقّينا الشكوى الأولى، أرسلنا أحدهم لتفتيش المكان. لكن لم يسفر عن وجود أي مخدرات أو أدلّة على أي نوع آخر من العمل غير المشروع»، جاء عن مسؤول رسمي آثر عدم الإفصاح عن هويته ذلك أنّ تحقيقاً كان قد أجري للتو للتأكد مما حصل. «هم لا يخالفون قوانين إقلاق الراحة، لأنهم يوقفون الموسيقا عند العاشرة تماماً. لذلك لا يسعنا فعل شيء. في النهاية تُبيح بريطانيا حرية العبادة».

لكن لدى المحترم باك رؤية أخرى للأحداث.

«الواقع أنّ ساحرة بورتوبيللو هذه، ربّة التدجيل، لها روابط

بأشخاص ذوي نفوذ في الحكومة، ما يفسّر رفض الشرطة، التي تتقاضى أجرها من مال دافعي الضرائب للحفاظ على الأمن والاحترام، فعل أي شيء. نحيا في زمن كل شيء فيه مباح. وهذه الحرية غير المحدودة تنهش الديموقراطية وتدمّرها».

يقول كاهن الأبرشية إنه كان يشك في أمر العصبة منذ البداية. كانت قد استأجرت مبنى قديماً متداعياً، وقضت أياماً بطولها محاولة ترميمه. «وهذا دليل واضح على أن أفراد المجموعة ينتمون إلى طائفة ما، وأنهم خضعوا لنوع من غسيل الدماغ، لأن لا أحد يعمل بلا مقابل في يومنا». عندما سألتُ إن سبق لرعاياه أن قاموا بعمل خيري في الرعية، أجاب المحترم: «نعم، لكننا نقوم بذلك باسم يسوع».

مساء أمس، عندما وصلتُ إلى المستودع للقاء أتباعها المنتظرين، مُنع رعايا المحترم باك شيرين وابنها وبعض أصدقائها من الدخول. وكان الرعايا يحملون لافتات ويدْعون باقي مَن في الجوار إلى الانضمام إليهم، عبر مكبّرات صوت.

وعلى الفور، انتقلت هذه العدائية الشفهية إلى شجار، وسرعان ما بات من المستحيل ضبط كلا الطرفين.

«يقولون إنهم يقاتلون باسم يسوع، لكن ما يريدونه بالفعل هو أن يواظب الناس على تجاهل تعاليم المسيح، التي لو استندنا إليها لكنا آلهة». هذا ما جاء عن لسان الممثلة المسرحية المشهورة، أندريا ماك كاين، إحدى أتباع شيرين خليل، أو أثينا. أُصيبت الآنسة ماك كاين بجرح فوق عينها اليمنى تمت مداواته على الفور؛ وغادرت المنطقة قبل أن يتمكّن مراسلنا من معرفة المزيد عن روابطها بالطائفة.

مع استتباب الأمن، كانت السيدة خليل قلقة على ابنها البالغ ثماني سنوات من العمر. لكنها أخبرتنا أنّ كلّ ما يحصل في المستودع هو تأدية رقص جَماعي، يتبعه تضرّع إلى كيان يُعرف بـ «آيا صوفيا»، التي تتيح للناس فرصة طرح الأسئلة عليها. ينتهي الاحتفال بعِظة، وصلاة جَماعية لـ «الأم الكبرى». وقد أكّد ذلك الشرطي عن التحقيق في الشكاوى الأصلية.

بقدر ما يمكننا التيقّن، فإن هذه العصبة ليس لها اسم وليست مسجّلة كجمعية خيرية. يقول المحامي شيلدون ويليامز، إن هذا ليس ضرورياً: «نحن نعيش في بلد حرّ، ويمكن للناس التجمّع في مكان مغلق للقيام بأنشطة لا تبغي الربح، ما داموا لا يخرقون أي قانون كأن يحرّضوا على العنصرية، أو على تعاطي المخدّرات».

رفضتْ السيدة خليل بكل تأكيد كل إلماح إلى وجوب إيقاف اللقاءات بسبب ما تُحدثه من إزعاجات. قالت: «إننا نتجمّع لتوفير التشجيع المتبادل، لأن من الصعب جداً مواجهة الضغوط الاجتماعية على انفراد. نطلب أن تندّد صحيفتكم بالتمييز الديني الذي كنا عرضة له على مدى القرون. كلما فعلنا شيئاً لا يتوافق مع الديانات التي شكّلتها الدولة ووافقت عليها، تظهر محاولة سحقنا، كما حدث اليوم. من قبل، كنا نواجه الاستشهاد أو السّجن أو المحارق أو النفي. لكننا الآن في موقعٍ يخوّلنا الردّ. وسوف يتمّ الرد على القوة بالقوة، تماماً كمكافأة التعاطف بالتعاطف».

لدى اصطدامها باتهامات المحترم باك، اتّهمته بأنه «يتلاعب برعاياه ويستغلّ التحجّر والكذب كذريعة للعنف».

ويفيد عالِم الاجتماع أرتو لينوكس، بأن ظواهر مماثلة ستصبح أكثر شيوعاً في المستقبل، منطوية على الأرجح على صدامات

أكثر خطورة بين الديانات القائمة: «الآن وبعد أن أثبتت الفلسفة الماركسية عجزها عن توجيه مُثل المجتمع، بات المجتمع خصباً لقيام نهضة دينية، تولد من خوف الحضارة الطبيعي من تواريخ بارزة. مع ذلك، فإنني على ثقة، مع حلول العام ٢٠٠٠ وبقاء العالم بلا شائبة، بأن المنطق سوف يطغى، وسوف تعود الديانات ملجأً للضعفاء، الذين هم في سعي دائم إلى «الهِداية». يُخالف هذا الرأي إيفاريستو بياتزا، الأسقف الفاتيكاني المساعد لدى المملكة المتحدة، بقوله: «ما نراه ليس الصحوة الروحانية التي نتوق إليها جميعاً، لكنها موجة مما يدعوه الأميركيون حركة «العصر الجديد»، نوع من بيئة يعيش فيها كل شيء ولا مكان فيها لاحترام العقائد، وفيها تعود أكثر الأفكار عبثية من الماضي لتخرّب جنس البشر. إن عديمي الضمير على شاكلة هذه المرأة الشابة، يحاولون ترسيخ أفكار مزيفة في عقول الضعفاء، العقول السهلة التأثّر، وهدفهم الأوحد كسب المال، وكسب النفوذ الشخصي».

أما المؤرّخ الألماني، فرانز هيربرت، الذي يعمل حالياً لدى معهد غوتيه في لندن، فلديه فكرة مختلفة تتمثّل بالتالي: «لم تعد الديانات القائمة تطرح أسئلة جوهرية حول هويّتنا وسبب عيشنا. هي، بدلاً من ذلك، تتمحور بشكل تام على سلسلة من العقائد والأحكام همّها الأوحد أن تتلاءم مع انتظام اجتماعي وسياسي محدّد. هذا يعني أن الأشخاص الساعين إلى الروحانية الحقيقية ينطلقون في اتجاهات جديدة. ويعني حتماً عودة إلى الماضي وإلى الديانات البدائية، قبل أن تُفسدها بُنى السلطة».

في مركز الشرطة، حيث تم تسجيل الحادثة، صرّح الرقيب ويليام مورتون قائلاً: إذا قرّرت عصبة شيرين خليل عقد لقائها الاثنين المقبل، وشعرت أنها تحت وطأة التهديد، فعليها أن تتقدّم

بطلب مكتوب إلى الشرطة، تتوفّر فيه الحماية. وبذلك تتفادى تكرار أحداث ليلة أمس.

[معلومات إضافية من أندرو فيش. الصور بعدسة مارك غيليم].

هيرون راين، صحافي

قرأتُ التقرير الصحفي على متن الطائرة، عائداً من أوكرانيا، وشعرت بأن الشكوك تملؤني. لم أكن قد تمكّنت من التيقّن إن كانت كارثة تشيرنوبيل بالضخامة التي تداولها الإعلام، أم أنها استُغلّت من كبار منتجي النفط لردع استخدام موارد طاقة أخرى.

على أي حال، أصابني الهلع لما قرأته في المقال. أظهرتْ الصور نوافذ محطّمٌ زجاجها، كما أظهرت المحترم باك غاضباً ــ وهنا يكمن الخطر ــ وامرأة بعينين حاذّتين تحمل ابنها بين ذراعيها.

رأيتُ على الفور ما قد يحصل من خير ومن شرّ. توجّهت تواً من المطار إلى بورتوبيللو، مقتنعاً بأنّ كل توقّعاتي ستتحوّل حقيقة.

من الناحية الإيجابية، كان لقاء الاثنين المقبل أحد أنجح الأحداث في تاريخ المنطقة: جاء محلّيون كُثر، بعضهم بداعي الفضول لرؤية «الكيان» المذكور في المقالة، وبعضهم يحمل لافتات دفاعاً عن حرية المعتقد والتعبير. كانت الجادة تتّسع لمئتي شخص فقط. وهكذا كان على باقي الحشد أن ينحشروا على الرصيف في الخارج، آملين ولو بإلقاء نظرة على المرأة التي ظهرت بأنها كاهنة المقموعين.

عندما وصلتُ، استُقبلت بالتهليل وملاحظات مكتوبة باليد وطلبات للمساعدة، رمى بعض الناس بالزهور، وطلبت إليها امرأة لم تتضح سنُّها أن تواصل نضالها من أجل حرية المرأة وحق عبادة «الأم». لا بدّ أن رعايا الأسبوع الذي سبق قد هالهم الحشد؛ وبالتالي لم يظهروا، على الرغم من التهديدات التي كانوا قد توعّدوا بها خلال الأيام السابقة. لم يكن من تعليقات استفزازية، ومرّت المراسم بشكل عادي، يتخلّلها الرقص، وظهور «آيا صوفيا» (عندها، عرفتُ أنها مجرد وجه آخر من أوجه أثينا بذاتها)، وطقس ختامي (كان هذا قد أُضيف مؤخّراً، مع انتقال المجموعة إلى المستودع الذي أجّره أحد أفراد العُصبة الأساسيين). كان هذا كل ما في الأمر. خلال عِظتها، تكلّمتْ أثينا وكأنها مسكونة بشخص آخر: الحب واجب علينا جميعاً وينبغي لنا عدم السماح للحب بأن يتجلّى بالطريقة التي يظن أنها الأفضل. لا يمكننا أن نخاف، لا يجب أن نخاف عندما تظهر قوى الظلمات وتبتغي أن يتمّ سماعها. تلك القوى ذاتها التي أتت بكلمة «خطيئة» لمجرد أن تتحكّم في قلوبنا وعقولنا. يسوع المسيح، الذي نعرفه جميعاً، توجّه إلى المرأة الزانية قائلاً: «من كان منكم بلا خطيئة، فليرجمها بحجر». شفى الناس يوم السبت، سمح لومس أن تغسل قدميه، وعد سارقاً أنه سيرى ملكوت السموات، تناول طعاماً محرّماً، وقال إن علينا أن ننشغل بيومنا، يوماً بيوم فقط، «تأمّلوا زنابق الحقل كيف تنمو: إنها لا تتعب ولا تغزل».

ما الخطيئة؟ الخطيئة أن نمنع «الحب» من التجلّي. و«الأم» حب. إننا ندخل عالماً جديداً عندما نمشي خُطانا الخاصة، وليس الخطى التي يرغمنا المجتمع على مشيها. وإن دعت الحاجة، فإننا سنواجه قوى الظلام مجدداً، كما فعلنا الأسبوع الماضي. لكن لن يُسكت أحد صوتنا أو قلبنا».

كنت أشهد على تحوّل امرأة إلى معبودة. تكلّمتْ باقتناع شديد، بوقار، وبإيمان في ما كانت تقوله. أَمِلتُ أن تكون الأمور على هذه الحال حقاً، أن نكون نلج حقاً عالماً جديداً، وأنني سأحيا لأراه.

غادرتِ المستودع متلقّية التهليل نفسه الذي استُقبلت به. وعندما رأتني بين الحشد، نادتني، وقالت إنها اشتاقت إليّ. كانت سعيدة وواثقة بنفسها، متأكدة من أنها كانت تفعل صواباً.

كان ذلك الجانب الإيجابي من المقالة، وأمكن للأمور أن تنتهي عند ذاك الحدّ. أردتُ أن يكون تحليلي للأحداث خاطئاً. لكن بعد ثلاثة أيام، تأكّدتْ توقّعاتي. برز الجانب السلبي بكل قوّته.

استغلّ المحترم باك خدمات أحد أعلى رجال القانون اعتباراً ومحافظةً في بريطانيا، الذي كان لشركائه المرموقين بخلاف أثينا علاقات فعلية بكل أقطاب الحكومة. وقام بدعم قضيّته بالتصريحات المنشورة التي أفادت بها أثينا، ليدعوَ إلى عقد مؤتمر صحفي يقول فيه إنه كان في صدد مقاضاتها على القيام بأفعال القدح والافتراء والأضرار المعنوية.

استدعاني نائب رئيس التحرير. عرف أنّ حبل ودٍّ يربطني بالشخصية المحورية في تلك الفضيحة. واقترح أن ننشر مقابلة حصرية. كان ردُّ فعلي الأوّل مليئاً بالاشمئزاز: كيف لي أن أستغل صداقتي لبيع الصحف؟

مع ذلك، وبعد أن تكلّمنا أكثر، قلت في نفسي ربما كانت فكرة سديدة. سوف تتاح لها الفرصة لتروي جانبها من القصة، فعلاً. وتتمكن من استغلال المقابلة لترويج كل تلك الأمور التي كانت تناضل من أجلها علانية. غادرتُ مكتب نائب رئيس

التحرير بالخطة التي رسمناها معاً: نشر سلسلة من المقالات عن التيارات الجديدة في المجتمع، وعن التغيّرات الجذرية التي كانت تحصل بحثاً عن الإيمان الديني. وسوف أنشر وجهة نظر أثينا في إحدى تلك المقالات.

ذاك العصر، ذهبتُ إلى منزلها، مستغلاً واقع أنها هي التي دعتني عندما التقينا خارج المستودع. أخبرني الجيران أنه في اليوم السابق أتى مسؤولون من المحكمة لاستدعائها بأمر رسمي، كي تَمْثُل أمام القضاء، لكنهم لم يفلحوا.

هاتفتها في وقت لاحق، لكن بلا جدوى. حاولت مجدداً مع هبوط الليل، لكن لم يجبني أحد. مذاك، صرت أهاتفها كل نصف ساعة، وراح قلقي يزداد مع كل اتصال. منذ أن شَفَتْني آيا صوفيا من أرقي، كان التعب يدفعني إلى النوم عند الحادية عشرة ليلاً. غير أنه هذه المرة، أبقاني القلق صاحياً.

وجدتُ رقم والدتها في دليل الهاتف، لكن كان الوقت متأخراً، وإذا لم تكن أثينا هناك، فسوف أجلب القلق على العائلة كلّها. ما عساي أفعل؟ أدرتُ التلفاز لأرى إن كان أي شيء قد حدث. لا شيء مميّز، كانت لندن على حالها، بأعاجيبها ومهالكها.

قررتُ المحاولة مرة أخيرة. رن الهاتف ثلاث مرات، وأجاب أحدهم. تعرّفتُ صوت أندريا على الفور.

سألتُ: «ما الذي تريده؟».

«طلبتْ إليّ أثينا أن أبقى على اتصال. هل كل شيء على ما يرام؟».

«كل شيء بخير، بحسب نظرتكَ إلى الأمور».

«أين هي؟».

أقفلتُ الخط من دون قول المزيد.

ديدر أونيل، تُعرف بـ «إدّا»

نزلت أثينا في فندق مجاور لمنزلي. إن أخبار لندن المحلية، ولاسيّما النزاعات الصغرى في الضواحي، لا تصل إلى اسكوتلندا مطلقاً. لنا عَلَمنا الخاص، فريق كرة قدم خاص، وقريباً سوف يكون لنا مجلس نواب خاص.

تركتُ أثينا تستريح ليوم كامل. في الصباح التالي، بدلاً من الذهاب إلى المعبد الصغير وتأدية الطقوس التي أعرفها، قررتُ اصطحابها وابنها إلى غابة قريبة من إيدنبرغ. هناك، وبينما كان الصبي يلعب ويركض بين الأشجار، قالت لي تفصيلاً ما كان يحدث.

عندما فرغتُ من الكلام، قلتُ:

«إنه وضح النهار، والسماء ملبّدة بالغيوم، والبشر يؤمنون أنّ خلف الغيوم يعيش ربّ كلّي القدرة، يوجّه مصير الإنسان. في هذه الأثناء، انظري إلى ابنك، انظري إلى قدميك. أصغي إلى الأصوات من حولك: هنا توجد «الأم»، على مقربة منا، تجلب الفرح للأولاد، والطاقة لمن يمشون فوق جسدها. لمَ يفضّل الناس الإيمان بشيء بعيد وينسون ما يمثل أمام أعينهم من تجلٍّ حقيقي للمعجزة؟».

«أعرف الجواب. لأن في العُلا، ثمة من يرشدنا ويعطينا الأوامر، هو مختفٍ خلف الغيوم، وحكمته مُحققة. على الأرض، نحن على اتصال مادي بالواقع الساحر، وحرّية اختيار الدرب».

«بالضبط. لكن هل تعتقدين أن هذا مُراد الناس؟ وهل يبتغون أن يكونوا أحراراً في اختيار دروبهم؟».

«نعم، أعتقد أنهم يبتغون ذلك. الأرض التي أقف عليها الآن طرحت أمامي الكثير من الدروب الغريبة: من قرية في ترانسلفانيا إلى مدينة في الشرق الأوسط، ومنها إلى مدينة أخرى على جزيرة، ثم إلى الصحراء، وبعدها رجوعاً إلى ترانسلفانيا. من مصرف في ضواحي مدينة إلى شركة بيع عقارات في الخليج العربي. من مجموعة راقصين إلى بدوي. وكلما قادتني خُطاي إلى الأمام، قلتُ: «نعم» عوضاً عن «لا»».

«وما الذي كسبتِه من كل هذا؟».

«اليوم. يمكنني رؤية هالات الناس. يمكنني إيقاظ «الأم» في روحي. لحياتي الآن معنى، وأنا على دراية بما أناضل من أجله. لكن لمَ تسألين؟ أنت كذلك كسبت أكثر القوى أهمية، وهي هبة الشفاء. يمكن لأندريا الآن أن تتكهّن وتُحادث الأرواح. لقد تبعتُ نموها الروحاني خطوة بخطوة على الدرب».

«وما الذي كسبتِه سوى ذلك؟».

«فرح الحياة. أعرف أنني موجودة هنا، وأن كل شيء معجزة، تجلٍّ».

وقع الصبي وكشط ركبته. بدافع الغريزة، هرعت أثينا إليه، مسحت جرحه. قالت له ألّا يقلق، وواصل الصبي الجري في الغابة. اعتبرتُ هذا إشارة.

«ما حدث للتو لابنك، حدث لي. وهو يحدث لك، أليس كذلك؟».

«بلى، لكن لا أظنني تعثّرت ووقعت. أعتقد أنني أُدخل في التجربة مجدداً، وأن خطوتي التالية ستنكشف لي».

في لحظات مماثلة، على المعلّم عدم قول شيء، بل مباركة تلميذه فحسب. مهما يكن توق المعلم إلى إنقاذ تلميذه من المعاناة، فإن الطريق مرسومة وقدما التلميذ توّاقتان إلى اتّباعها. اقترحتُ أن نرجع إلى الغابة تلك الليلة، أنا وهي فقط. سألتْ أين يمكنها ترك ابنها، فقلت إنني سأهتمّ بالأمر. كان لي جار يدين لي بخدمة، وكان سيفرح للاعتناء بفايورل.

مع انسدال الليل، رجعنا إلى المكان نفسه. وفي طريقنا، تحدّثنا عن أمور لا صلة لها بالطقس الذي كنا على وشك تأديته.

كانت أثينا قد رأتني أستخدم نوعاً جديداً من الشمع المزيل لشعر الجسم، فاستبدّ بها الفضول لمعرفة ما يميّزه من الطرق القديمة. تحدّثنا بحماسة عن التجميل، الموضة، متاجر الألبسة الرخيصة، سلوك النساء، المساواة بين الجنسين، تسريحات الشعر. في مرحلة من المراحل قالت: «لكن إن كانت الروح دائمة الشباب، لا أدري لمَ ينتابنا القلق حيال كل هذا». ثم أدركتْ أن لا بأس من الاسترخاء والتحدث في موضوعات سطحية. كانت مثل تلك الأحاديث مسلّية فعلاً، وكان المظهر لا يزال أمراً شديد الأهمية في حياة النساء (وهو كذلك في حياة الرجال، لكن بطريقة مختلفة، وهم ليسوا منفتحين على الأمر مثلنا).

وخلال اقترابنا من المكان الذي كنتُ قد اخترته أو بالأحرى الذي كانت الغابة تختاره لي، بدأتُ أشعر بحضور «الأم». في حالتي، يتجلّى هذا الحضور بفرح داخلي ما، غامض، يلامسني دوماً

ويحرّكني إلى حدّ ذرف الدموع. كان اللحظة قد حانت للتوقّف وتغيير الموضوع.

قلتُ: «اجمعي بعض الحطب لوقد نار».

«لكن الظلام حالك».

«نور البدر كافٍ وإنْ حجبته الغيوم. درّبي عينيكِ: لقد خُلقتا لكي تريا أكثر مما تعتقدين».

شرعتْ تفعل ما طلبت، تطلق الشتائم أحياناً، جرّاء خدش نفسها بشوكة. مرّ نصف ساعة، وخلال ذلك الوقت، لم نتكلّم. شعرتُ بالحماسة لمعرفتي بأن «الأم» كانت على مقربة. شعرت بالجذل لوجودي مع تلك المرأة التي بدت وكأنها أكبر قليلاً من ولد، والتي وثقت بي وكانت لي رفيقة في ذاك البحث الذي بدا أحياناً في غاية الجنون بالنسبة إلى الجنس البشري.

كانت أثينا لا تزال في مرحلة الإجابة عن الأسئلة، تماماً كما كانت قد فعلت بالإجابة عن أسئلتي ذاك العصر. كنت على هذه الحال يوماً، حتى أتحتُ لنفسي أن أُنقل بتمامي إلى مملكة الغموض، حيث كان الأمر ببساطة مسألة تأمّل، احتفال، عبادة، تبجيل، سماح للهبة بأن تتجلّى.

كنت أراقب أثينا، وهي تجمع الحطب، ورأيتُ فيها الفتاة التي كنتها يوماً، في بحثٍ عن الأسرار الخفية والقوى الغامضة. علّمتني الحياة شيئاً مختلفاً كلياً، هو أن القوى ليست سرّية، وأن الأسرار قد انكشفت منذ زمن بعيد. عندما وجدتُ أنها جمعت ما يكفي من الحطب، أشرتُ عليها بوجوب التوقُّف.

بحثتُ شخصياً عن أغصان أكبر ووضعتها أعلى النار وهذه حال الحياة. فلكي تلتقط الأحطاب الكبيرة النار، لا بُدّ للأحطاب الهشّة

من الاشتعال أولاً. ونحن إذا أردنا تحرير طاقة قوّتنا، فلا بُدّ أن نكشف عمّا فينا من ضعف أولاً.

لكي نفهم القوى التي نحملها في حنايانا والأسرار التي سبق أن انكشفت، كان من الضروري أولاً أن نسمح للسطح، من توقعات ومخاوف ومظاهر، أن يحترق. كنا ندخل السلام الذي كان حينها يخيّم على الغابة، حيث الريح اللطيفة ونور القمر خلف الغيوم وضجيج الحيوانات التي تخرج ليلاً لتصطاد، محقّقةً بالتالي دورة ولادة «الأم» وموتها، من دون أن تتعرّض أبداً للانتقاد، لأنها تتبع غرائزها وطبيعتها.

أوقدتُ النار.

لم أشعر أنا أو هي بقول أي شيء. ولوقتٍ بدا وكأنه أبدٌ، تأمّلنا رقص النار فحسب، عارفتين أنّ مئات الآلاف من الناس، في العالم، سيكونون جالسين أمام موقدتهم، بغض النظر عمّا إذا كانت لديهم أجهزة تدفئة حديثة أم لا؛ فعلوا ذلك لأنهم كانوا يجلسون أمام رمز.

بذلنا جهداً هائلاً للخروج من ذاك الانخطاف، الذي، على الرغم من أنه لم يعنِ أي أمر لي، ولم يجعلني أرى آلهة أو هالات أو أشباحاً، فإنه قد خلّفني في حالة من النعمة التي احتجت إليها. ركّزت ثانية على الحاضر، على المرأة الشابة إلى جانبي، على الطقس الذي احتجت إلى تأديته.

سألتُ: «كيف حال تلميذتك؟».

«صعبة، لكن لو لم تكن كذلك، لما تعلّمتُ ما أحتاج إلى تعلّمه».

«وأي قدرات هي في صدد تطويرها؟».

«هي تتحدّث مع كائنات في العالم الموازي».

«كما تحادثين آيا صوفيا؟».

«لا. تعلمين جيداً أن آيا صوفيا هي «الأم» متجلّية فيّ. تلميذتي تتحدّث إلى كائنات لا مرئية».

عرفتُ ذلك، لكنني أردتُ التأكّد. كانت أثينا أقل كلاماً من المعتاد. لا أدري إن كانت قد ناقشت أندريا في الأحداث التي حصلت في لندن؛ لكنّ ذلك لم يكن مهماً. نهضتُ. فتحتُ كيساً كان بحوزتي، وتناولت منه حفنة من أعشاب انتقيتها خصيصاً، ورميتها في النار.

«بدأ الحطب ينطق»، قالتها أثينا، كما لو أنّ ذلك كان أمراً طبيعياً تماماً، وكان ذلك جيداً، عنى أنّ المعجزات قد بدأت تصبح جزءاً من حياتها.

«ما الذي تقوله؟».

«لا شيء حتى اللحظة، مجرد ضجيج».

بعد دقائق، سمعتُ أغنية تتعالى من النار.

«لَكَم هي رائعة!».

وإذا بالفتاة الصغيرة تتكلّم، لا الزوجة ولا الأم.

«ابقي كما أنتِ. لا تحاولي التركيز على خطاي أو اتّباعها أو فهم ما أقول. استرخي واشعري بأنك في حال جيدة. هذا أحياناً كل ما نأمله من الحياة».

ركعتُ، التقطتُ قطعة حطب ملتهبة ورسمتُ حلقة حولها، تاركة فتحة صغيرة يمكنني الدخول عبرها. أمكنني سماع الموسيقا نفسها التي سمعتها أثينا. ورقصتُ من حولها، مستحضرةً اتحاد النار الذكورية بالأرض، التي تلقّتها بذراعين مفتوحتين وساقين منفرجتين، النار التي طهّرت كل شيء، محوّلة قوة الحطب إلى طاقة، تلك القوة في تلك الأغصان، في تلك الكائنات، بشرية ولا مرئية؛ وكنت مستمرّة في الرقص ما دام النغم يتعالى من النار، وقمتُ بحركات تنمّ عن تأمين الحماية للفتاة الجالسة، الباسمة، داخل الحلقة.

بعد أن تمّ الاحتراق وانطفأت النار، تناولتُ بعض الرماد ونثرته فوق رأس أثينا. محوتُ بقدميّ الحلقة التي رسمتها من حولها.

قالت: «أشكركِ. شعرت أنني محبوبة ومرغوبة ومحمية جداً».

«تذكّري هذا الشعور في أوقات الشدّة».

«الآن وبعد أن وجدتُ دربي، لن يكون من لحظات صعبة بعدُ. في النهاية، ثمة مَهمة عليّ إنجازها، أليس كذلك؟».

أخذتْ تشعر بعدم اليقين.

سألتْ: «وماذا عن اللحظات الصعبة؟».

«ليس ما طرحته سؤالاً ذكياً. تذكّري ما قلته لتوّك: أنت محبوبة، مرغوبة، محميّة».

«سأبذل ما في وسعي».

فاضت عيناها بالدموع. كانت أثينا قد فهمت جوابي.

سميرة ر. خليل، ربّة منزل

حفيدي! ما لحفيدي ولهذا كلّه؟ أي نوع من العالم نحيا فيه؟ أَوَلانزال في القرون الوسطى، في خضمّ مطاردة الساحرات؟

هرعتُ إليه. كان أنفه يرعف، لكنه بدا غير آبه لقلقي، ودفعني عنه.

«أعرف كيف أدافع عن نفسي، وقد فعلت».

صحيح أنني لم ألد طفلاً من أحشائي، لكنني على دراية بما يختلج في قلوب الأولاد. كان قلقي على أثينا يفوق كثيراً قلقي على فايورل. كان هذا مجرد واحد من الشجارات العديدة التي سيكون عليه مواجهتها في حياته. وكان ثمة وميض من العزّة في عينيه الغائرتين.

«قال بعض الأولاد في المدرسة إنّ أمي من عبدة الشيطان!».

وصلت شيرين بعيد ذلك، سريعاً بما يكفي لترى وجه الصبي المدمّى وتثور قلقاً. أرادت أن تذهب مباشرة إلى المدرسة وتتحدّث إلى المسؤول، لكنني ضممتها إليّ أولاً. تركتها تذرف كل دموعها وإحباطاتها. فضّلتُ في تلك اللحظة التزام الصمت، لأنقل حبّي لها على جسر من السكوت. عندما هدأتْ قليلاً، شرحتُ لها بحذر أنّ بإمكانها العودة إلى دارتنا، والعيش معنا، وأننا سنهتم بكل شيء. عندما قرأ والدها عن القضية التي رُفعت ضدّها، تحدّث من فوره إلى بعض المحامين. كنا سنفعل أي شيء لإخراجها من ذلك المأزق، بغض النظر عن تعليقات الجيران، ونظرات المعارف الساخرة وتكافل الأصدقاء المزيَّف.

لم يكن أي شيء من العالم أجمع أهمّ من سعادة ابنتي، مع أنني لم أفهم قط لماذا كانت تختار على الدوام الدروب الأصعب والأكثر إيلاماً. لكن لا ينبغي للأم أن تفهم كل ما يجري. عليها ببساطة أن تُحب وتؤمّن الحماية، وأن تشعر بالفخر. ولأنها تعلم أننا كنا قادرين على منحها كل شيء تقريباً، انطلقت مُبكرة في البحث عن استقلاليتها. كانت لها عثراتها وإخفاقاتها، لكنها أصرّت

على التفرّد في مواجهة أي عاصفة. ذهبت تبحث عن والدتها، مدركة الأخطار التي أحدقت بها. وفي النهاية، قرّبها ذاك اللقاء منّا. أعرف أنها لم تعمل مرّة بنصيحتي في أن تحوز شهادة، تتزوّج، تحتمل العيش مع أحدهم بلا تذمُّر، وألّا تتخطى الحدود الذي رسمها المجتمع. وماذا كانت الحصيلة؟

بمتابعة قصة ابنتي، غدوتُ إنسانة أفضل. من البديهي أنني لم أفهم مسألة «الأم الإلهة»، أو حاجة أثينا إلى إحاطة نفسها على الدوام بالغرباء، أو عجزها عن الاكتفاء بكل ما أنجزته بعد جُهد جاهد. لكن في أعماقي، ومع أن الوقت لمثل هذه الأفكار ربما فات، فإنني أتمنّى لو كنت مثلها.

كنتُ على وشك النهوض وإعداد ما نأكله، لكنها أوقفتني.

«أريد البقاء هنا قليلاً بين ذراعيك. هذا كل ما أحتاج إليه. فايورل، اذهب لمشاهدة التلفاز. أريد التحدّث إلى جدّتك».

أطاع الصبي.

«لا بُدّ أنني سبّبتُ لكِ الكثير من المعاناة».

«لا على الإطلاق، على العكس، أنتِ وابنك مصدر كل فرحتنا وسبب عيشنا».

«لكنني لم .....».

«أنا سعيدة أن الأمور جرت على هذه الحال. يمكنني أن أقول الآن أن ثمة لحظات كرهتك فيها، أشعر بمرارة الندم على أنني لم أعمل بنصيحة الممرّضة في تبنّي طفل آخر. ثم كنت أتساءل: «كيف لأمٍ أن تكره ابنتها؟». تناولتُ مهدّئات، لعبتُ الورق مع صديقاتي، أفرطتُ في التسوّق، وكلّ ذلك لأعوّض عن الحب الذي

منحتك إياه، والذي شعرتُ أنني لا أتلقاه في المقابل. منذ أشهر قليلة، عندما قرّرتِ رفض وظيفة أخرى تُدرّ عليك مالاً وأبهة، استولى عليّ اليأس. ذهبتُ إلى الكنيسة المحلّية. أردتُ أن أقطع وعداً للعذراء وأتوسلها أن تُعيدك إلى الواقع، أن ترغمك على تغيير حياتك واستغلال الفرص التي كنت تضربين بها عرض الحائط. كنتُ على استعداد لفعل أي شيء مقابل ذلك.

تسمّرتُ أنظر إلى العذراء وابنها. وقلتُ: «أنتِ أمٌ وتعلمين ما يحصل. اطلبي مني أي شيء، لكن خلّصي ابنتي، إذ أعتقد أنها مصمّمة على تدمير ذاتها».

أحسستُ بذراعي شيرين تُطبقان عليّ. كانت تبكي مجدداً. لكن دموعها كانت مختلفة هذه المرة. كنت أبذل ما في وسعي لضَبط مشاعري.

«أوَ تعلمين بما شعرتُ في تلك اللحظة؟ شعرتُ أنها كانت تتحدث إلي وتقول: «أصغي إليّ يا سميرة، هذا ما خِلته أيضاً. عانيتُ لسنوات، لأن ابني لم يُصغ إلى أي من أقوالي. كنتُ أقلق على سلامته، لم يرق لي اختياره لأصدقائه، ولم يُظهر احتراماً للقوانين، والأعراف والدين أو الكِبار». هل أُكمل؟».

«نعم، أودّ سماع بقية القصة».

«ختمتِ العذراء قائلة: «لكن ابني لم يصغِ إليّ. وأنا الآن مسرورة جداً لأنه فعل ذلك».

سحبتُ نفسي بلطف من عناقها ونهضتُ.

«عليكما أن تأكلا».

توجّهتُ إلى المطبخ، أعددتُ حساء البصل وطبق تبّولة، سخّنت

بعض الخبز الخالي من الخميرة. وضعت كل ذلك على المائدة وتناولنا الغذاء معاً. تحدّثنا في أمور تافهة، تلك الأمور التي كانت في لحظات مماثلة، تساهم دوماً في تقريبنا، وتبرير متعتنا في الإقامة هنا، بهدوء، حتى وإن كانت العاصفة في الخارج تقتلع الأشجار من جذورها وتنشر الدمار. وبالطبع، آخر الغروب، قرّرت ابنتي وحفيدي المغادرة بغية التصدّي للرياح والرعد والبرق مجدداً، لكن ذلك كان خيارهما.

«أمي، قلتِ إنك ستفعلين أي شيء لأجلي، أَوَستفعلين؟».

صحيح. فأنا أودع حياتي بين يديها إن دعت الحاجة.

«ألا تظنين أن عليّ الاستعداد للقيام بأي شيء من أجل فايورل أيضاً؟».

«أعتقد أنها غريزة الأم. لكن، بوضع الغريزة جانباً، يُعدّ هذا أعظم الدليل على الحب».

واصلتُ تناول طعامها.

«تعلمين أن والدك يُسعده تقديم المساعدة إليك بالقضية التي رُفعت ضدّك، إن أردته أن يفعل ذلك».

«بالطبع أريد. إنها عائلتي التي نتكلم عنها».

فكّرتُ ملياً، لكنني عجزتُ عن كبح كلماتي:

«هل لي بأن أسدي إليك نصيحة؟ أعرف أن لكِ أصدقاء من ذوي النفوذ، ذلكِ الصحافي مثلاً. لمَ لا تطلبين إليه أن يكتب عن قصّتك وعن جانبك من الأحداث؟ إن الصحافة تولي ذلك الكاهن تغطية كبرى، وسوف يؤول الأمر بالناس إلى الظن بأنه على حقّ».

«إذاً، إضافة إلى تقبّلكِ ما أفعله، أنتِ تودّين مساعدتي».

«نعم يا شيرين. مع أنني لا أفهمك، ومع أنني أعاني أحياناً ما عانته العذراء طوال حياتها، حتى وإن لم تكوني يسوع المسيح ولم تكن لكِ رسالة كلّية الأهمية تنشرينها في العالم، فإنني في صفك وأريد أن أراكِ تفوزين».

هيرون راين، صحافي

وصلتُ أثينا وأنا أدوّن كالمجنون ملاحظات لما تصوّرته المقابلة المثالية حول أحداث بورتوبيللو وانبعاث «الإلهة». كان عملاً حسّاساً للغاية.

ما رأيته في المستودع كان امرأة تقول: «بمقدوركم القيام بذلك، دعوا «الأم الكبرى» تعلّمكم، ثِقوا بالحب تحصل المعجزات». وافقها الحشد، لكنّ ذلك لم يدم، كنا نعيش في زمن تشكّل العبودية فيه الدرب الوحيدة للسعادة. تستوجب الإرادة الحرّة مسؤولية هائلة، إنها عمل شاق، وهي تجلب معها الألم والمعاناة.

قالت: «أحتاج إليك لتكتب عني شيئاً».

قلتُ لها إنّ علينا الانتظار قليلاً. في النهاية، قد تُطوى المسألة كلها في الأسبوع التالي. وإنني مع ذلك كنت قد أعددتُ بعض الأسئلة عن «الطاقة الأنثوية».

حالياً، ليست هذه الجلبة والقتال محور اهتمام أحد، باستثناء صحف الفضائح والناس القاطنين في المنطقة المعنية. لم تُشِرْ أي صحيفة مرموقة ولو بسطر واحد عن الأمر. لندن طافحة بمثل هذه القلاقل المحلية، ووصولها إلى الصحف ليس مستحسناً فعلاً. سيكون من الأفضل ألّا تجتمع العصبة لأسبوعين أو ثلاثة. مع ذلك،

فإنني أعتقد أن مسألة «الإلهة»، إذا ما عولج بالجدّية التي يستحقّها، قد تدفع الكثير من الناس إلى طرح أسئلة مهمة فعلاً».

«خلال العشاء المرة الفائتة، قلتَ إنك تحبّني. والآن أنت تقول إنك لا تريد مساعدتي، كما أنك تطلب إليّ أن أتخلّى عن الأمور التي أؤمن بها».

كيف يمكن تفسير تلك الكلمات؟ هل كانت تتقبّل أخيراً الحب الذي كنتُ قد قدّمته تلك الليلة، والذي رافقني كل دقيقة من حياتي؟ يرى الأديب اللبناني جبران **خليل** جبران، إن العطاء أهم من الأخذ. صحيح أن في هذا الكلام حكمة، لكنني كنت جزءاً مما يُعرف بـ «الإنسانية»، بهشاشتي، ولحظات ارتباكي، ورغبتي في أن أعيش بسلام وحب، في أن أكون عبداً لمشاعري، وأن أستسلم من دون طرح أسئلة، من دون معرفة حتى إن كان حبّي متبادلاً. كلّ ما كان عليها فعله هو أن تدعني أحبّها؛ كنتُ واثقاً أن آيا صوفيا ستوافقني الرأي. كانت أثينا آنذاك مؤقتة في حياتي، وقد دام وجودها سنتين. وخشيتُ أن تواصل مسيرتها وحيدة، وأن تختفي في الأفق، من دون أن أتمكن حتى من مرافقتها في جزء من رحلتها.

«أتتحدّثين عن الحب؟».

«أنا أطلب منك المساعدة».

ما العمل؟ هل ألجأ إلى ضبط النفس، إلى عدم استعجال الأمور، وأنتهي بتدميرها؟ أم أتّخذ الخطوة التي ينبغي اتّخاذها، أن أعانقها وأحميها من كلّ الأخطار؟

ظلّ عقلي يُملي عليّ ما يجب أن أقوله لها: «لا تقلقي حيال أي شيء. أنا أحبّك». لكنني عوضاً عن ذلك، قلتُ: «أريد مساعدتك.

أرجوك ثقي بي. سأفعل أي شيء في العالم من أجلك، بما فيه قول «لا» إن ظننتُ أنه الصواب، مع أنكِ قد لا تفهمي حُججي».

أخبرتها أنّ نائب رئيس التحرير في الصحيفة، حيث أعمل، قد اقترح نشر سلسلة من المقالات عن انبعاث «الإلهة»، تشتمل على إجراء مقابلة. بدا لي ذلك أول الأمر فكرة سديدة، ثم وجدتُ أن من الأفضل التريُّث قليلاً. قلت:

«إما أن تمضي بمَهمّتك، وإما أن تدافعي عن نفسك. أعرف أنك تدركين أن ما تفعلينه أهم بكثير من الطريقة التي ينظر بها الناس إليك. أتوافقينني؟».

«أفكّر في ابني. إنه، في هذه الآونة، ينخرط كل يوم في شجار أو جدال في المدرسة».

«سينقضي ذلك. خلال أسبوع، يُنسى الأمر. حينها ستحلّ لحظة الفعل، ليس بغية الدفاع عن نفسك ضد هجمات مخبولة، بل لطرح المدى الحقيقي لعملك، بثقة وحكمة. وإن ساورتك أي شكوك حيال مشاعري وعزمتِ على المتابعة، فسوف أرافقك إلى اللقاء التالي. ونرى ما يحدث».

الاثنين التالي، رافقتُها إلى اللقاء. لم أكن حينها مجرد شخص من الحشد. فقد أمكنني أن أرى الأمور من منظارها.

احتشد الناس في المستودع؛ استُقبلت بالزهور والهتاف. نساء شابات يلقّبنها «كاهنة الإلهة». وثمة سيدات متأنّقات يتوسّلن مقابلة خاصة معها، دافعهن إلى ذلك، مرض أحد أفراد عوائلهن. أخذ الحشد يدفعنا ويعوق الدخول. لم نكن قد تصوّرنا قط أننا سنحتاج إلى شكل ما من أشكال الأمن، وانتابني الذعر. أخذتها بذراعها، حملتُ فايورل ودخلنا.

في الغرفة المكتظة، كانت أندريا الغاضبة في انتظارنا. صرخت بأثينا: «أعتقدُ أنّ عليكِ إخبارهم بأنك لن تصنعي أي معجزات اليوم! أنتِ تسمحين لنفسك أن تقعي أسيرة الغرور! لمَ لا تقول آيا صوفيا لكل هؤلاء أن يرحلوا؟».

أجابت أثينا بجرأة: «لأن بإمكانها تشخيص الأمراض. وكلما زاد عدد من يستفيدون من ذلك، كان أفضل».

كانت على وشك قول المزيد، لكنّ الحشد كان يصفّق، اعتلت المنصة المُعدّة كيفما اتفق. أدارت الجهاز السمعي الصغير الذي جلبته من منزلها. أومأت إلى الناس بأن يرقصوا خلاف إيقاع الموسيقا، وبدأ الطقس. في مرحلة من المراحل، ذهب فايورل وجلس في إحدى الزوايا. كانت تلك لحظة تجلّي آيا صوفيا. فعلت أثينا ما رأيتها تفعله مرات عدة من قبل: أطفأت الموسيقا بحدّة، أمسكت برأسها، وانتظر الناس في صمتٍ كما لو كانوا يُطيعون أمراً لا مرئياً.

تَبع الطقس دربه الثابت: طُرحت أسئلة عن الحب، وهي أسئلة رفضتها، مع أنها وافقت على التعليق حول حالات القلق والمرض وسواها من المشكلات الشخصية. من حيثُ كنت، أمكنني رؤية بعض الناس دامعين، وأقدم آخرون على التصرُّف وكأنهم أمام قديسة. ثم حانت لحظة العِظة الختام، قبل احتفال المجموعة بـــ «الأم».

بما أنني عرفتُ ما التالي، أخذتُ أفكّر في الطريقة الفضلى للخروج من هناك بأقل جلبة ممكنة. أمِلتُ أن نأخذ بنصيحة أندريا ونقول لهم ألّا يأتوا بحثاً عن المعجزات. توجّهتُ إلى حيث فايورل، لكي نتمكّن من مغادرة المكان حالما تنتهي أمه من الكلام.

آنذاك سمعتُ صوت آيا صوفيا.

«اليوم، قبل أن نختتم، سوف نتحدّث عن النظام الغذائي. انسوا أمر حميات التنحيف».

النظام الغذائي؟ حميات التنحيف؟

«لقد تمكّنا من البقاء لآلاف السنين، لأننا كنا قادرين أن نأكل. والآن، يبدو أنّ ذلك قد تحوّل لعنة. لِمَ؟ ما الذي يجعلنا، ونحن في الأربعين، نرغب أن تبقى لنا أجسامنا يوم كنا شباباً؟ هل يمكن إيقاف الزمن؟ بالطبع لا. ولمَ النحافة إذاً؟».

سمعتُ تمتماتٍ بين الحشد. كانوا على الأرجح يتوقّعون رسالة أكثر روحانية.

«لسنا في حاجة إلى النحافة: نبتاع الكتب، نرتاد نوادي اللياقة البدنية، نستهلك الكثير من القدرة الذهنية في محاولةٍ لإيقاف الزمن، بينما ينبغي لنا الاحتفال بمعجزة وجودنا في هذا العالم. عوضاً عن التفكير في طرق تحسين عيشنا، نقع أسرى هوسنا بالوزن. انسوا أمر كل ذلك. يمكنكم قراءة كل الكتب التي تريدون، قوموا بكل التمارين الرياضية التي تريدون، عاقبوا أنفسكم كما تريدون. لكن سيظل أمامكم خياران: إما التوقّف عن العيش وإما البدانة.

كُلوا باعتدال، تذوقوا ما تأكلون: ليس الدنس ما يدخل من فم الإنسان، بل ما يخرج منه. تذكّروا أننا ناضلنا لآلاف السنين لكي نبقى في منأىً عن الجوع. فكرة مَن كانت تلك التي تقول أن علينا أن نحافظ على النحافة طوال حياتنا؟ سأقول لكم: مصاصو دماء الروح، أولئك الذين يخشون المستقبل لدرجة أنهم يخالون أن من المحال إيقاف عجلة الزمن. يمكن لآيا صوفيا أن

تضمن لكم عدم احتمال ذلك. استخدموا الطاقة والجهد اللذين تضعانهما في الحمية لتغذية أنفسكم بخبز الروح. اعلموا أنّ «الأم الكبرى» تُعطي بسخاء وحكمة. احترموا ذلك، ولن تصابوا بالسمنة أكثر مما يستوجبه الوقت العابر. بدل من حرق تلك السعرات الحرارية اصطناعياً، حوِّلوها طاقة نضالٍ من أجل أحلامكم. لا أحد ظلّ نحيفاً لمدة طويلة بمجرد اتّباع حمية».

خيّم صمتٌ تام. بدأت أثينا الاحتفال الختامي، واحتلفنا كلّنا بحضور «الأم». أحكمتُ عناقي لفايورل، قاطعاً على نفسي وعداً بأن أجلب في المرة المقبلة بضعة أصدقاء ليؤمّنوا بعض الأمن البسيط. غادرنا بالهتافات والتصفيق أنفسهما اللذين استُقبلنا بهما.

أمسك صاحب متجرٍ بذراعي:

«هذا سخيف! إن تحطّمت إحدى نوافذي، سوف أقاضيك!».
كانت أثينا تضحك وتوقّع أوتوغرافات. بدا فايورل سعيداً. أمِلتُ فقط ألا يكون من صحافي هناك تلك الليلة. عندما تمكّنا أخيراً من تخليص نفوسنا من الحشد، نادينا سيارة أجرة.

سألتُ إن كانا يودّان الذهاب إلى مكان ما لتناول الطعام.
«بالطبع»، قالت أثينا، «هذا ما كنت أتحدّث عنه للتو».

أنطوان لوكادور، مؤرّخ

في هذه السلسلة الطويلة من الأخطاء التي أخذت تُعرف بـ «فضيحة ساحرة بورتوبيللو»، أكثر ما يُدهشني هو سذاجة هيرون راين، الصحافي العالمي الذي له سنوات عديدة من الخبرة. عندما تحدّثنا، هاله العنوان الرئيس الذي تصدّر صحف الفضائح:

صرخت إحدى الصحف: «حمية الإلهة!».

وزمجرت أخرى من على صفحتها الأولى: «ساحرة بورتوبيللو: انحفْ وأنت تأكل!».

إلى جانب تناول موضوع الدين الحساس، كانت أثينا قد ذهبت إلى أبعد من ذلك: تحدّثت عن النظام الغذائي، وهو موضوع يلقى اهتماماً على الصعيد القومي، حتى أنه أهم من الحروب أو الإضرابات أو الكوارث الطبيعية. فقد لا نؤمن جميعاً بالله، لكننا نرغب جميعاً في أن ننحف.

قابل المراسلون الصحفيون أصحاب متاجر محليين، أقسموا عن غيب أنهم، في الأيام التي سبقت اللقاءات الجَماعية، كانوا قد رأوا شموعاً حمراء وسوداء تُشعل خلال تأدية طقوس انطوت على حفنة من الناس. لم يكن ذلك على الأرجح سوى نوع من أنواع الإثارة الرخيصة. لكن كان على راين التنبّؤ بأنه، مع وجود دعوى قضائية سارية المفعول، كان المدّعي سينتهز أي فرصة لكي يلفت انتباه القضاة إلى ما اعتبره افتراءً وتهجّماً على كل القِيم التي كانت تؤمّن سير المجتمع. في ذاك الأسبوع، قامت إحدى أكثر الصحف البريطانية اعتباراً بنشر مقالة في عمود الافتتاحية كتبها المحترم إيان باك، وهو كاهن في الكنيسة الإنجيلية في كينسينغتون. جاء في المقال، من بين أمور أخرى:

«بصفتي مسيحياً صالحاً، يتوجّب علي أن أدير خدّي الآخر عندما أتعرّض للهجوم ظلماً، أو عندما يُطعن شرفي. مع ذلك، يجب ألا ننسى أن يسوع المسيح حين أدار خدّه الآخر، كان يحمل سوطاً لطرد أولئك الذين أرادوا أن يدنّسوا بيت الرب. هذا ما نراه يحصل في بورتوبيللو رود الآن: أشخاص بلا أخلاق يدّعون أنهم مخلّصو النفوس، يُعطون آمالاً كاذبة، ويَعدون بشفاء كلّ الأمراض، حتى

أنهم يصرّحون بإمكانية الحفاظ على نحافتكم وأناقتكم إنْ اتّبعتم تعاليمهم.

لهذا السبب، لا بديل لي إلّا اللجوء إلى المحاكم لمنع استمرار هذا الوضع. يُقسِم أتباع الحركة أنهم لا يزالون قادرين على إيقاظ قدرات مجهولة، وهم ينكرون وجود الله الكلّي القدرة، ليُحلّوا محلَّه آلهة وثنية، مثل فينوس أو أفروديت. هم يرون أن كل شيء مُباح، ما دام يتم فعله بـــ «حب». لكن ما الحب؟ هل هو قوة خالدة تُبرّر غايتها، أم التزام تجاه قيم المجتمع الحقيقية، كالعائلة والتقاليد؟».

في اللقاء التالي، واستباقاً لتكرار المعركة الضارية التي حصلت في أغسطس، جنّدت الشرطة ستة ضباط لتفادي أي مواجهات. وصلت أثينا مع مرافق شخصي تدبّر راين أمر مجيئه من دون ترتيب مسبق. وهذه المرة، لم يكن التصفيق هو الذي علا فحسب، بل أصوات الازدراء والشتيمة. وعندما رأت امرأة أن أثينا يرافقها ولد في الثامنة، تقدّمت بادّعاء ضدها بموجب اتفاقية حقوق الطفل الصادرة عام ١٩٨٩، زاعمة أنّ الوالدة كانت تُنزل بولدها ضرراً لا يمكن إصلاحه، وأنه يجب نقل الوصاية عليه منها إلى والده.

تمكّنت إحدى صحف الفضائح من تقفّي أثر لوكاس دجّسِن ــ بترسِن، الذي رفض إجراء أي مقابلة. هدّد الصحفي قائلاً إنه إذا أسرف في ذكر فايورل في مقالاته، فلن يكون مسؤولاً عن أفعاله.

في اليوم التالي، حملت الصحيفة العنوان الرئيس الآتي: «زوج ساحرة بورتوبيللو السابق مستعد للقتل من أجل ابنه».

في اليوم عينه، تمّ التقدّم بادّعاءين آخرين إلى المحاكم بموجب اتفاقية حقوق الطفل الصادرة عام ١٩٨٩، يشيران إلى وضع الابن في دور الرعاية.

لم يحصل لقاء بعد ذاك. احتشدت مجموعات من الناس، مناصرين ومندّدين، خارج الباب. وكان ضباط الشرطة بلباسهم الرسمي على مقربة للحفاظ على الأمن. لكنّ أثينا لم تظهر. تكرّر الأمر في الأسبوع التالي. لكنّ الفرق تلك المرة كَمَنَ في قلّة عدد الحشد والشرطة.

في الأسبوع الثالث، لم يُرَ سوى طاقات متفرّقة من الزهر وشخص يقدّم صور أثينا إلى المارّة.

بدأ الموضوع يغيب عن الصفحات الأولى من الصحف اليومية اللندنية. وعندما أعلن المحترم إيان باك عن قراره بسحب كل تهم القدح والافتراء، باسم «روح المسيحية، علينا إظهارها للذين يتوبون عن أفعالهم». لم تكن أي صحيفة كبرى مهتمة بنشر تصريحه، الذي ظهر عوضاً عن ذلك في صفحات القرّاء من إحدى صحف القيل والقال المحلية.

على حدّ علمي، لم يتحوّل الخبر إلى خبر متناوَل على الصعيد القومي، بل كان محصوراً بالصفحات التي كانت تعالج أخبار لندن. سافرتُ إلى برايتون بعد شهر من انتهاء اللقاءات. وعندما حاولتُ أن أفاتح أصدقائي بالموضوع، لم يكن لدى أي منهم أدنى فكرة عمّا كنت أتحدث به.

أمكن لراين أن يستجلي هذا الشأن بأكمله، وأمكن لما تقوله صحيفته أن ينتشر إلى وسائل الإعلام الباقية. لدهشتي، لم يَنشر سطراً عن شيرين خليل.

من وجهة نظري، ليس لجريمة القتل بالنظر إلى طبيعتها أي صلة بما حصل في بورتوبيللو. كانت مجرد مصادفة مروّعة.

هيرون راين، صحافي

طلبتْ إليّ أثينا أن أدير جهاز المسجّلة. كانت قد أحضرت جهازاً آخر معها، من نوع لم يسبق لي أن رأيته، وهو متطوّر جداً وصغير جداً.

«أولاً، أرغب في التصريح بأنني كنت أتلقّى تهديدات بالقتل. ثانياً، أريدك أن تعدني بأنّك، حتى إن مُتُّ، سوف تنتظر خمس سنوات قبل أن تسمح لأي يكن بسماع هذا الشريط المسجَّل. في المستقبل، سوف يتمكّن الناس من معرفة ما هو حقيقي وما هو خاطىء. قُلْ إنك توافق؛ بهذه الطريقة تبرم اتفاقاً يُلزمكَ قانونياً».

«أوافق، لكنني أعتقد...».

«لا تعتقد شيئاً. إنْ وُجِدتُ ميتة، فسوف تكون هذه وصيّتي، شرط ألّا تُنشر الآن».

أطفأتُ المسجّلة.

«لا داعي لأن تخشي شيئاً. لي أصدقاء في الحكومة، أشخاص يدينون لي بخدمات، أشخاص في حاجة إلي الآن، أو مستقبلاً».

«هل ذكرتُ من قبل أنّ حبيبي يعمل لدى سكوتلند يارد؟».

أَوَعُدنا إلى هذا مجدداً؟ لو أنه وُجد فعلاً، لمَ لم يظهر عندما احتجنا إليه، عندما كان محتملاً أن تتعرّض أثينا وفايورل لاعتداء الحشد؟

اكتظّت الأسئلة في ذهني: أكانت تحاول امتحاني؟ ما الذي كان يدور في بال تلك المرأة؟ أكانت مضطربة عقلياً، متقلّبة المزاج، ساعةً تريد أن تكون إلى جانبي، وفي الساعة التالية تبدأ بالكلام عن رجل لا وجود له؟

قالت: «أدر المسجّلة».

انتابني شعور رهيب. أخذتُ أفكّر في أنها كانت تستغلّني طوال الوقت. حبّذتُ لو أمكنني القول: ارحلي. اخرجي من حياتي. مُذ التقيتُك، تحوّل كل شيء إلى جحيم. كل ما أريده منك هو أن تقتربي مني، تلفّي ذراعيك حولي وتقبّليني، وتقولي إنك تريدين البقاء معي إلى الأبد، لكن هذا لن يحدث.

«هل من خطب؟».

عرفتُ أن ثمة خطباً. أو بالأحرى لم تتمكّن من تجاهل شعوري، لأنني لم أُخفِ حبّي لها يوماً، مع أنني تحدّثت به علناً مرة واحدة فقط. لكنني كنت لألغي أي موعد فداءً لرؤيتها؛ لطالما كنتُ إلى جانبها حين احتاجت إليّ. كنت أحاول بناء نوع من العلاقة مع ابنها، إيماناً مني بأنه سيدعوني «بابا» يوماً ما. لم أطلب إليها قط أن تتوقّف عما كانت تفعله؛ تقبّلتُ أسلوب حياتها، قراراتها؛ عانيتُ في صمتٍ عندما هي عانت؛ كنت مسروراً عندما انتصرتْ، كنت فخوراً بعزمها.

«لمَ أطفأتَ المسجّلة؟».

ترجّحتُ لثانية بين السموات والجحيم، بين الثورة والخنوع؛ بين المنطق البارد والوجدان المدمّر. في النهاية، استجمعتُ كل قواي وتمكّنتُ من ضبط نفسي. ضغطتُ زرّ التسجيل.

«فلنتابع».

«كما كنت أقول، كنت أتلقى تهديدات بالقتل. كنت أتلقّى اتصالات هاتفية من مجهول. يشتمونني ويقولون إنني أشكّل خطراً، إنني أحاول استرجاع حكم إبليس، وإنهم لن يسمحوا لي بحصول ذلك».

طلبتْ إليّ أثينا أن أدير جهاز المسجّلة. كانت قد أحضرت جهازاً آخر معها، من نوع لم يسبق لي أن رأيته، وهو متطوّر جداً وصغير جداً.

«أولاً، أرغب في التصريح بأنني كنت أتلقّى تهديدات بالقتل. ثانياً، أريدك أن تعدني بأنَّك، حتى إن مُتُّ، سوف تنتظر خمس سنوات قبل أن تسمح لأي يكن بسماع هذا الشريط المسجَّل. في المستقبل، سوف يتمكّن الناس من معرفة ما هو حقيقي وما هو خاطىء. قُلْ إنك توافق؛ بهذه الطريقة تبرم اتفاقاً يُلزمكَ قانونياً».

«أوافق، لكنني أعتقد...».

«لا تعتقد شيئاً. إنْ وُجدتُ ميتة، فسوف تكون هذه وصيّتي، شرط ألّا تُنشر الآن».

أطفأتُ المسجّلة.

«لا داعي لأن تخشى شيئاً. لي أصدقاء في الحكومة، أشخاص يدينون لي بخدمات، أشخاص في حاجة إلي الآن، أو مستقبلاً».

«هل ذكرتُ من قبل أنّ حبيبي يعمل لدى سكوتلند يارد؟».

أَوَعُدنا إلى هذا مجدداً؟ لو أنه وُجد فعلاً، لمَ لم يظهر عندما احتجنا إليه، عندما كان محتملاً أن تتعرّض أثينا وفايورل لاعتداء الحشد؟

اكتظّت الأسئلة في ذهني: أكانت تحاول امتحاني؟ ما الذي كان يدور في بال تلك المرأة؟ أكانت مضطربة عقلياً، متقلّبة المزاج، ساعةً تريد أن تكون إلى جانبي، وفي الساعة التالية تبدأ بالكلام عن رجل لا وجود له؟

قالتْ: «أدر المسجّلة».

انتابني شعور رهيب. أخذتُ أفكّر في أنها كانت تستغلّني طوال الوقت. حبّذتُ لو أمكنني القول: ارحلي. اخرجي من حياتي. مذ التقيتُك، تحوّل كل شيء إلى جحيم. كل ما أريده منك هو أن تقتربي مني، تلفّي ذراعيك حولي وتقبّليني، وتقولي إنك تريدين البقاء معي إلى الأبد، لكن هذا لن يحدث.

«هل من خطب؟».

عرفتُ أن ثمة خطباً. أو بالأحرى لم تتمكّن من تجاهل شعوري، لأنني لم أُخفِ حبّي لها يوماً، مع أنني تحدّثت به علناً مرة واحدة فقط. لكنني كنت لألغي أي موعد فداءً لرؤيتها؛ لطالما كنتُ إلى جانبها حين احتاجت إليّ. كنت أحاول بناء نوع من العلاقة مع ابنها، إيماناً مني بأنه سيدعوني «بابا» يوماً ما. لم أطلب إليها قط أن تتوقّف عما كانت تفعله؛ تقبّلتُ أسلوب حياتها، قراراتها؛ عانيتُ في صمتٍ عندما هي عانت؛ كنت مسروراً عندما انتصرتْ؛ كنت فخورا بعزمها.

«لمَ أطفأتَ المسجّلة؟».

ترجّحتُ لثانية بين السموات والجحيم، بين الثورة والخنوع؛ بين المنطق البارد والوجدان المدمّر. في النهاية، استجمعتُ كل قواي وتمكّنتُ من ضبط نفسي. ضغطتُ زرّ التسجيل.

«فلنتابع».

«كما كنت أقول، كنت أتلقى تهديدات بالقتل. كنت أتلقّى اتصالات هاتفية من مجهول. يشتمونني ويقولون إنني أشكّل خطراً، إنني أحاول استرجاع حكم إبليس، وإنهم لن يسمحوا لي بحصول ذلك».

«أتحدّثتِ إلى الشرطة؟».

تغاضيتُ عمداً عن الإشارة إلى حبيبها، مُظهراً أنني لم أصدّق يوماً تلك القصة على أي حال.

«نعم، فعلتُ. لقد سجّلوا الاتصالات. كانت صادرة من هواتف عمومية. لكنّ الشرطة طلبت إليّ ألّا أقلق، وأنها تراقب منزلي. اعتقلوا شخصاً واحداً: كان رجلاً مُختلاً عقلياً، يعتقد أنّ أحد الرُسل متجسّد فيه، وأن «هذه المرة، عليه القتال لئلا يُطرد المسيح مجدداً». هو في مستشفى للأمراض العقلية الآن. أوضحتِ الشرطة أنه دخل المستشفى من قبل لتوعّده أشخاصاً آخرين بتهديدات مماثلة».

«إن كانوا في صلب القضية، فلا داعي للقلق. إنّ شرطتنا من أمهر الشرطة في العالم».

«لا أخشى الموت. إن كنتُ لأموت اليوم، فسوف أحمل معي لحظاتِ قلّة من الناس في مثل عمري حظوا بعيشها. ما أخشاه، ولهذا السبب طلبتُ إليك تسجيل المحادثة، هو أنني قد أقتُلُ أحدهم».

«تقتلين أحدهم؟».

«أنتَ على علمٍ بأنّ دعاوىً قضائية مرفوعة حالياً لسلب فايورل مني. تكلّمتُ إلى أصدقاء، لكن ليس في وسع أحد مساعدتي. علينا انتظار صدور الحكم فحسب. يقولون إنّ أولئك المتعصّبين سيحصلون على مرادهم، وذلك وقف على القاضي طبعاً. لهذا السبب ابتعتُ مسدساً. أعرف معنى أن يُسلب ولد من والدته، لأنني عشتُ ذلك شخصياً. وهكذا، عندما يصل أول مساعد مأمور تنفيذ من المحكمة، سوف أُطلق النار، وسوف أفرغ في صدره كل رصاصات مسدسي. إن أطلقوا عليّ النار أولاً، فسوف أستخدم السكاكين في

مطبخي. إن أخذوا السكاكين، فسوف أستخدم أسناني وأظافري، لكن لن يسلب أحد فايورل مني. وإن فعلوا، فعلى جثتي. أتسجّل ذلك؟».

«أنا أفعل. لكن ثمة طرقاً...».

«ما من طرق. يتابع والدي القضية. يقول إنه متى تعلّقت الأمور بقانون الأحوال الشخصية، لا يمكن فعل الكثير. والآن، أطفئ المسجّلة».

«أكانت تلك وصيّتك؟».

لم تُجب. عندما ظللتُ بلا حراك، اتّخذتِ المبادرة. توجّهتْ إلى الجهاز السمعي ووضعت موسيقا السهوب، التي غدوتُ أحفظها عن ظهر قلب. رقصتْ كما كانت تفعل أثناء الطقوس، خارج الإيقاع تماماً، وعرفتُ ما كانت تحاول فعله. كانت مسجلتها لا تزال تدور، شاهداً صامتاً على كل ما كان يجري هناك.

كانتْ شمس العصر تنسلّ من النوافذ. لكنّ أثينا كانت منطلقة، تبحث عن نورٍ آخر، نور كان منذ بدء الخليقة.

عندما شعرتْ بشرارةٍ من «الأم»، توقّفت عن الرقص، أوقفتْ الموسيقا، أمسكت رأسها بين يديها وظلّت بلا حراك لبعض الوقت. ثم رفعتْ رأسها ونظرت إليّ.

«أنتَ تعلم مَن هنا، أليس كذلك؟».

«نعم. أثينا، ووجهها الألوهي، آيا صوفيا».

«تعوّدتُ الأمر. لا أعتقدُ أنه عليّ فعل ذلك. لكنها الطريقة التي اكتشفتها للاتصال معها، وقد أصبح ذلك تقليداً في حياتي الآن. أنتَ تعلم إلى مَن تتحدّث، أليس كذلك؟ إلى أثينا. أنا آيا صوفيا».

«نعم، أعلم. في المرة الثانية حينما رقصتُ في منزلك، اكتشفتُ أنّ لي مرشداً روحياً أيضاً: فيلمون. لكنني لا أتحدّث إليه كثيراً، لا أُصغي إلى أقواله. أعلم فقط أنه عندما يحضر، يبدو الأمر وكأن روحينا تلاقتا أخيراً».

«هذا صحيح. واليوم سوف يتحدّث فيلمون وآيا صوفيا عن الحب».

«هل عليّ الرقص أولاً؟».

«لا داعي لذلك. فيلمون سيفهمني، لأنني أرى أنّ رقصي قد أثّر بك. الرجل الماثل أمامي يعاني بسبب شيء، يعتقد أنه ما تلقّاه يوماً، إنه حبّي. لكنّ الرجل الأبعد من ذاتك، يفهم أنّ مشاعر الألم والقلق والهجر غير ضرورية، أنها صبيانية. أُحبّكَ. ليس بالطريقة التي يرغب فيها الجزء الإنساني منك، بل بالطريقة التي تريدها الشرارة الإلهية. إننا نسكن الخيمة ذاتها، التي وضعتها «هي» على دربنا. هناك نفهم أننا لسنا عَبَدة لمشاعرنا، بل إننا سادتها. إننا نخدم ونُخدم، نفتح أبواب غرفنا ونتعانق. ويُرجَّح أننا نقبّل أيضاً، ذلك أنّ كل ما يكون له وقع مجلجل على الأرض، سيكون له نظيره في العالم اللامرئي. وأنت تعلم أنني لا أحاول تحريضك، ولا أتلاعب بمشاعرك عندما أقول هذا».

«ما الحبّ إذاً؟».

«هو روح «الأم الكبرى» ودمها ولحمها. أُحبّكَ كما الأرواح المنفية تحب إحداها الأخرى لدى التقائها في وسط الصحراء. لن يكون أي رابط جسدي بيننا. لكن ما من شغف يذهب سدىً، ما من حب يُفرَط به يوماً. إن كانت «الأم» قد أيقظت ذاك الحب في قلبك، فقد أيقظته في قلبي أيضاً، على الرغم من أن قلبك يتقبّله بسهولة

أكبر. لا يمكن لطاقة الحب أن تضيع أبداً. إنها أقوى من أي شيء آخر، وهي تتجلّى بطرق عدّة».

«لستُ قوياً بما يكفي لذلك. إنّ استنتاجات مماثلة تُشعرني بأنني أكثر اكتئاباً ووحدة من أي وقت مضى».

«لستُ قوية بما يكفي أنا أيضاً. أحتاج إلى من يساندني. لكن ذات يوم، سوف تتفتّح أعيننا، تتجلّى أشكال الحب المختلفة. وآنذاك تختفي المعاناة عن وجه الأرض. لن يطول الأمر على ما أعتقد. كثيرون منا يعودون من رحلة طويلة، أُرغمنا خلالها على البحث عن أشياء لم تكن تهمنا. والآن ندرك أنها كانت خاطئة. لكنّ العودة مستحيلة من دون ألم، لأننا كنا في غربة طويلة ونشعر أننا غرباء في أرضنا. سوف يمضي وقت قبل أن نجد الأصدقاء الذين هم أيضاً رحلوا، وحيث تقبع جذورنا وكنوزنا. لكن ذلك آتٍ لا محالة».

لسبب ما، أثّر بي ما قالته وجعلني أمضي.

قلت: «أريد الاستمرار في الحديث عن الحب».

«إننا نفعل. لطالما كان هذا هدف كل شيء بحثتُ عنه في حياتي، وهو السماح للحب بأن يتجلّى فيَّ من دون حواجز، جعله يملأ الفراغات، جعلي أرقص، أبتسم، أجد مبرّراً لحياتي، أحمي ابني، أكون على اتصال مع السموات، مع رجال ونساء، مع كلّ مَنْ وُضعوا على دربي. حاولتُ من قبل أن أضبط مشاعري قائلة: «هو يستحق حبّي» أو «هو لا يستحقّه»، إلى أن فهمتُ قدري عندما رأيتُ أنني قد أخسر أهمّ ما في حياتي».

«ابنك».

«بالضبط. إنه التجلّي الأكثر كمالاً للحب. عندما نشأ احتمال

أن يُسلب مني، وجدتُ، لا بل أدركتُ أنني لا أستطيع كسب أي شيء أو خسارته، فهمتُ ذلك بعد البكاء لساعات طويلة. وكان بعد المعاناة الشديدة فقط، أنّ جزئي الذي أدعوه آيا صوفيا قال لي: «يا له من هراء! الحب باقٍ على الدوام، مع أن ابنك عاجلاً أم آجلاً، سوف يرحل».

كنتُ قد بدأت أفهم.

«ليس الحب عادة أو التزاماً أو ديناً. هو ليس ما تخبرنا به أغنيات الحب. الحب يحدث ببساطة. هذه وصية أثينا أو شيرين أو آيا صوفيا ــ الحب يحدث ببساطة. لا تعريفات له. أَحِبّ، ولا تطرح الكثير من الأسئلة. أحبّ فقط».

«هذا صعب».

«هل تسجّل؟».

«طلبتِ إليّ أن أُطفىء الجهاز».

«إذاً، أدره مجدداً».

فعلتُ كما طلبتْ. تابعتْ أثينا:

«إنه صعب عليّ أيضاً. لذلك لن أعود إلى المنزل. سوف أختبىء. قد تحميني الشرطة من المجانين، لكنها لن تردع العدالة الإنسانية. كان لي مَهمّة أنجزها، وقد أخذتني بعيداً جداً إلى درجة أنني جازفت بالوصاية على ابني. لست نادمة على ذلك. لقد حقّقتُ قدري».

«ما كانت مهمتك؟».

«أنت تعلم ما كانت. كنتَ موجوداً منذ البداية. مهمّتي تمهيد الدرب لـ «الأم». تأمين استمرارية تقليدٍ تمّ قمعه لقرون، لكنه آخذٌ الآن في الانبعاث».

«ربما....».

توقفتْ، لكنها لم تأتِ بكلمة حتى أتممتُ جملتي.

«... ربما جئتِ في وقت مبكر جداً، والناس ليسوا مستعدّين بعد».

تعالت ضحكة أثينا.

«بالطبع ليسوا مستعدّين. لهذا كانت كلّ تلك المواجهات، كل تلك العدائية والظلامية. والسبب أنّ قوى الظلمات تفني، وهم يرتمون على أمور مماثلة كملجأ أخير: هم يبدون أقوياء للغاية، كما تفعل الحيوانات قبل مماتها. لكن من بعد، يكونون مرهقين كليّاً. لقد زرعتُ البذرة في الكثير من القلوب، وكلّ منها سوف يتكشف بطريقته الخاصة. لكنّ واحداً من تلك القلوب فقط سوف يتبع التقليد الكامل، إنه قلب أندريا».

أندريا.

أندريا التي كرهت أثينا، التي أنحت باللائمة عليها لانهيار علاقتنا، التي قالت لكل من يصغي إليها إن أثينا قد أعماها الغرور والتبجح، وقد دمّرت شيئاً كان من الصعب بناؤه.

انحنت أثينا والتقطت حقيبتها. كانت آيا صوفيا لا تزال معها.

«يمكنني رؤية هالتك. إنها تُشفى من معاناة لا ضرورة لها».

«أنت تعلمين، طبعاً، أنك لا تروقين لأندريا».

«بطبيعة الحال. لكن مضى على حديثنا عن الحب نصف ساعة. لا دخل للإعجاب بذلك. أندريا قادرة تماماً على إنجاز مَهمّتها. إنها تملك خبرة أكيدة وحضوراً أقوى مني. تعلّمتُ من أخطائي؛ تعرف أنّ عليها أن تكون حذِرة. ففي زمنٍ حيث وحش الظلامية المفترس

يُحتضر، لا بُدّ للنزاع أن يكون. قد تكون أندريا تكره شخصي، وقد يكون سعيها إلى تطوير قدراتها بهذه السرعة طريقة لإثبات أنها أكثر قدرة مني. عندما يجعل الحقد المرء ينمو، يتحوّل إلى سبيل من سبل الحب الكثيرة».

التقطتُ مسجّلتها، وضعتها في حقيبتها ورحلت.

في نهاية ذاك الأسبوع، أصدرت المحكمة حكمها. تمّ الاستماع إلى شهود مختلفين. ومُنحت شيرين خليل، التي تُعرف بأثينا، الاحتفاظ بحق الوصاية على ولدها. وفضلاً عن ذلك، وُجّه إلى المسؤول في المدرسة التي يرتادها الصبي، إنذار رسميّ مفاده أنّ أي شكل من أشكال التمييز ضدّ الصبي سيكون تحت طائلة القانون.

عرفتُ أن لا جدوى من الاتصال بها عبر هاتف الشقّة حيث كانت تقطن. كانت قد تركت المفتاح مع أندريا. أخذتْ جهازها السمعي وبعض الملابس، وقالت إنها ستغيب لبعض الوقت.

انتظرتُ اتصالها لدعوتي إلى الاحتفال بذاك النصر معاً. مع مرور كل يوم، كفّ حبّي لأثينا عن كونه مصدراً للمعاناة وأصبح واحة من الفرح والصفاء.

لم أعد أشعر بالوحدة القاتلة. عند نقطة ما في الفضاء، تلتقي أرواحنا، وأرواح أولئك العائدين من المنفى، لنحتفل ابتهاجاً باتّحادها من جديد.

مرّ الأسبوع الأوّل، وافترضتُ أنها كانت تحاول أن تتعافى من التوتُّرات المؤخّرة. بعد شهر، افترضتُ أنها رجعت إلى دبي واستعادت عملها القديم؛ هاتفتها إلى مكان عملها فقالوا لي إنهم لم يسمعوا أخبارها. ورجوني أن أوصل إليها هذه الرسالة إن عرفتُ بمكانها:

الباب مفتوح لها دوماً، والشوق إليها كبير.

قرّرتُ كتابة سلسلة من المقالات عن انبعاث «الأم». فكأن بي أستفزّ البعض للرد عليّ برسائل مُهينة تتّهمني بـــ «الترويج للوثنية»، التي لاقت نجاحاً كبيراً لدى قرّائنا.

بعد شهرين، عندما كنتُ على وشك تناول الغداء، هاتفني زميل لي في العمل، وأبلغني الخبر التالي: وُجدت جثّة شيرين خليل، ساحرة بورتوبيللو، في هامستد. لقد تعرّضت للقتل بوحشية.

الآن، بعد أن فرغتُ من نسخ كلّ المقابلات المسجّلة صوتيًا، سوف أقدّم لها النسخة. ربما ارتادت متنزّه سناودونيا ناشونال بارك، مشياً، كعادتها عصر كلّ يوم. إنه يوم ميلادها – أو بالأحرى التاريخ الذي اختاره والداها ليكون يوم ميلادها، لدى تبنّيها. وهذه هديّتي إليها.

أَعَدّ فايورل، الذي سيأتي مع جدّيه للاحتفال بيوم ميلادها، مفاجأة لها أيضًا. سجّل أوّل تأليف موسيقي له في استوديو لأحد الأصدقاء، وسوف يعزف قطعته هذهِ خلال العشاء.

سوف تسألني لاحقًا: «لمَ فعلتَ هذا؟».

سأجيب: «لأنني احتجتُ إلى فهمك». خلال كلّ السنوات التي قضيناها معًا، خلتُ كلّ ما سمعته أساطير حيكت عنها، لكنني أدرك الآن أنّ الأساطير حقيقة.

كلما اقترحتُ الذهاب برفقتها، أكان إلى مراسم ليل الاثنين في شقّتها، أو إلى رومانيا، أو لقاء أصدقاء، كانت تطلب إليّ دومًا ألّا أفعل.

أرادت أن تكون حرّة. والناس، كما قالت، يجدون رجال الشرطة مخيفين. وبمواجهة شخص مثلي، حتى البريء يشعر بالذنب.

مع ذلك، قصدتُ المستودع في بورتوبيللو مرّتين من دون عِلْمها. ورتّبتُ مرة أخرى، من دون علمها، وجود بعض الزملاء لحمايتها لدى وصولها ومغادرتها. تمّ لاحقًا توقيف شخص على الأقل لحيازته سكينًا، وجرى تعرُّف هويته، كان مجاهداً من طائفة ما. قال إنّ أرواحًا قد طلبت إليه الحصول على بعض الدم من ساحرة بورتوبيللو، التي كانت تجلّيًا لـ «الأم الكبرى». قال إنّ الدم لزمه

لتكريس بعض التقدِمات الدينية. لم ينوِ قتلها، أراد فقط أن ينقل بعض الدم على منديل. أظهر التحقيق أنه لم يكن لديه فعلاً من نية للقتل، لكن مع ذلك، تمّ اتّهامه، وحُكم عليه بالسَجن لستة أشهر.

كانت فكرتها أن تجعل الأمر يبدو وكأنه جريمة قتل. أرادت أثينا أن تختفي، وطلبتْ إليّ تحقيق ذلك. فأوضحتُ لها أنني إذا قرّرت المحاكم أنّ تنتقل الوصاية على الولد إلى الدولة، لن أخالف القانون. لكن عندما أصدر القاضي حكمه لصالحها، قرّرنا المضي في خطّتها.

كانت أثينا تدرك تمامًا أن اللقاءات في المستودع متى أصبحت حديث الناس محلّيًا، فسوف يُقضى على مَهمّتها للأبد. لم يكن هناك جدوى من مواجهة الحشد، وإنكار أنّها كانت ملكة، ساحرة، تجلّياً ألوهيًا، لأنّ الناس يختارون اتّباع مَن يملك النفوذ ويمنحون النفوذ لمن يريدون. وذلك سيعاكس كلّ ما بشّرت به وهو: حرّية الاختيار، أن تكرّس خبزك الخاص، أن توقظ مواهبك المميّزة، من دون مساعدة مرشدين أو رعاة.

ولم يكن هناك جدوى أيضاً من الاختفاء. سيفسّر الناس خطوتها بأنها انسحاب إلى القَفر، صعودٌ إلى السموات، حجّ سرّي للقاء معلّمين في جبال الهمالايا. وسينتظرون عودتها على الدوام. قد تُنسَج أساطير بشأنها، وقد يتشكّل مذهب عبادة من حولها.

أخذنا نلاحظ أنّها كفّت عن الذهاب إلى بورتوبيللو. قال المخبرون الذين استخدمتهم إن مذهبها، خلافاً لتوقُّعات الجميع، يتّسع بسرعة مخيفة: كان يتمّ خلق مجموعات مماثلة، أشخاص أخذوا يزعمون أنهم «ورثة آيا صوفيا». كانت صورتها وهي تحمل فايورل، الصورة نفسها التي ظهرت في الصحف، تُباع في السوق

السوداء، واصفة إياها بالضحية أو شهيدة التعصّب. أخذ المؤمنون بالقوى الخفية يتحدّثون عن «أخوية أثينا»، التي تخوّل من يقصدها التواصل مع أثينا، لقاء بدل من المال.

كان «الموت» الخيار الأخير. لكن كان ينبغي له أن يحصل في ظروف طبيعية تمامًا، كموت أي شخص آخر يُقتل في مدينة كبيرة. اضطرنا ذلك إلى اتخاذ تدابير احترازية معيّنة:

أ) عدم ربط الجريمة، في أي شكل من الأشكال، بالاستشهاد لدواعٍ دينية. إن حصل ذلك، فسوف يؤزّم الوضع الذي كنّا نحاول تفاديه؛

ب) وجوب تهشيم الضحية إلى أبعد حدّ، لئلا يتمّ تحديد هويتها؛

ت) عدم توقيف القاتل؛

ث) إيجاد جثة.

كل يوم في مدينة كمدينة لندن، تظهر جثث مشوّهة، محروقة. لكن في العادة يتمّ إيجاد الجاني. لذلك، كان علينا الانتظار لمدة شهرين تقريبًا إلى أن تحصل جريمة هامستد. وجدنا قاتلاً أيضًا، حدث أنّ الطريقة التي مات بها كانت مناسبة أيضاً. كان قد هرب إلى البرتغال وانتحر بتفجير رأسه. تمّ إحقاق الحقّ، وكلّ ما لزمني كان تعاون أصدقائي المقرّبين. فيدٌ تدعم الأخرى. كانوا أحياناً يطلبون إليّ أن أقوم بأمور غير معهودة. وما دام القانون الأساسي لم يُخرق، فقد كان هناك، إن صحّ القول، درجة من المرونة في تفسير الوقائع.

هذا ما حصل. ما إن وُجدت الجثة، حتى أوكلتِ القضية إليّ وإلى زميل لي، تجمعني به سنواتٌ طوال، وبالتزامن تقريبًا، وصلتنا أخبار أنّ الشرطة البرتغالية قد وجدت جثة انتحاري في غيمارس،

ترك ملاحظة يعترف فيها بجريمة ناسبت تمامًا القضية التي كنا نعمل عليها، كما تشير إلى تعليمات بمنح كلّ أمواله إلى مؤسسات خيرية. كان الشغف دافع الجريمة. غالبًا ما ينتهي الحب هكذا.

في الملاحظة التي تركها، قال الفقيد إنّه كان قد أحضر المرأة من إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي الأسبق، وفعل ما في وسعه لمساعدتها. كان مستعدًا للزواج منها لكي تحصل على حقوق المواطنة البريطانية، غير أنه اكتشف أمر رسالة كانت على وشك إرسالها إلى رجل ألماني، كان قد دعاها لقضاء بضعة أيام في قصره.

في الرسالة، قالت إنها تتحرّق شوقًا للمغادرة. وطلبت إلى الألماني أن يرسل إليها تذكرة سفر على الفور لكي يتمكّنا من اللقاء مجددًا في أقرب ما يمكن. كانا قد التقيا في مقهى بلندن وتبادلا رسالتين اثنتين فقط.

كان عندنا السيناريو الأمثل.

تردّد زميلي في معالجة القضية إذ ما من شرطي يرغب في أن يحتوي ملفه على قضية غير منتهية. لكن عندما قلت إنني أتحمّل مسؤولية ذلك، وافق.

قصدتُ أثينا في مخبئها وهو منزل جميل في أكسفورد. استخدمتُ حقنة لأخذ عيّنة من دمها. قصصتُ خصلة من شعرها وحرقتها قليلاً. وفي مسرح الجريمة، بعثرتُ «الدليل». عرفتُ أن من المستحيل إجراء فحص الـ DNA لأن ما من أحد يعرف هوية والديها الحقيقيين وهكذا كان كلّ ما احتجت إليه هو الصلاة ألا تلقى جريمة القتل تغطية إعلامية كبيرة.

جاء بعض الصحفيين إليّ. أخبرتهم قصة انتحار القاتل، ذاكرًا

اسم البلد من دون البلدة. أخبرتهم أنه لم يتمّ العثور على دافعٍ للجريمة، لكننا أسقطنا من حسباننا أي فكرة تشير إلى القتل بدافع الانتقام، أو أنه كان ثمة دوافع دينية. فكما وَرَدَني تمّ اغتصاب الضحية (ففي النهاية حتى الشرطة ترتكب أخطاء أيضاً). يُفترض أنّ الضحية تعرّفت الذي اعتدى عليها، فقام على الأثر بقتلها، وبتر أعضائها.

ولو كتب الألماني لها ثانية، لأُعيدت له رسائله مختومة بـ «يُعاد إلى المُرسِل». ظهرت صورة أثينا في الصحف مرة واحدة فقط، خلال التظاهرة الأولى في بورتوبيللو. وبذلك كانت فرص تعرُّفها ضئيلة. إلى جانبي، ثلاثة أشخاص فقط على علم بالقصة الحقيقية. والداها وابنها. حضروا جميعهم دفن رفاتها، ورأوا بلاطة الضريح تحمل اسمها.

يذهب ابنها لرؤيتها كل عطلة نهاية أسبوع، وهو متفوّق في مدرسته.

بالطبع، قد تسأم أثينا ذات يوم من حياتها المنعزلة وتقرّر العودة إلى لندن. مع ذلك، فإن ذاكرة الناس ضعيفة. وبغض النظر عن أصدقائها المقربين، فلن يتذكّرها أحد حينها، ستكون أندريا الحافز. وهي، من باب الإنصاف، أكثر مقدرة من أثينا على مواصلة إنجاز المَهمّة. وهي، إضافة إلى امتلاكها كلّ المواهب الضرورية، ممثّلة، وتعرف كيفية التعامل مع العامّة.

أُدرك أن رقعة عمل أندريا تتّسع، من دون لفت الانتباه غير المرغوب. أسمع أنّ أشخاصًا في مراكز اجتماعية أساسية على اتصال بها؛ وإنهم، متى دعت الحاجة، سوف يضعون حدًّا لخبث المحترم إيان باك مع بلوغ الأمور مرحلة حرجة.

وهذا ما تريده أثينا، هي لا تريد الشهرة كما ظنّ الكثيرون (بمن فيهم أندريا)، بل ضرورة إنجاز المهمة.

في بداية تحقيقاتي، التي نتجت عنها هذه النسخة، خلتُ أنني أعيد بناء حياتها لكي ترى كم كانت جريئة ومهمة. لكن مع مضي المحادثات، اكتشفتُ تدريجًا وجهي المستور، مع أنني لا أؤمن كثيرًا بهذه الأمور. ووصلتُ إلى خلاصة مفادها أنّ السبب الحقيقي وراء هذا العمل كلّه، كانت الرغبة في الإجابة عن سؤالٍ لم أجد جوابه يومًا: لماذا أحبتني أثينا، فيما كنّا مختلفين جدًا، أحدنا عن الآخر، فيما كان لكل منا نظرته إلى العالم؟

أذكر عندما قبّلتها للمرة الأولى، في حانة قرب فيكتوريا ستايشون، كانت تعمل في مصرف، وكنتُ تحرّيًا في سكوتلند يارد. بعد أن خرجنا معاً بضع مرّات، دعتني للرقص في شقة مالك شقّتها، لكنني لم أفعل يومًا لأن ذلك يخالف نمط حياتي. لست من هذا النوع.

وبدل أن تنزعج، قالت إنها تحترم قراري. عندما أُعيد قراءة الإفادات التي صرّح بها أصدقاؤها، أشعر بالفخر فعلاً، إذ يبدو أنّ أثينا لم تحترم قرار أي شخص آخر.

بعد أشهر على لقائنا، وقبل ذهابها إلى دبي، قلتُ لها إني أحبّها. قالت إن الشعور متبادل، لكن أضافت أنّ علينا التهيّؤ لقضاء فترات طوال متباعدين.

سيعمل كلّ منا في بلدٍ، لكن يمكن للحب الحقيقي أن يتصدّى لفراق مماثل.

كانت تلك المرة الوحيدة التي تجرّأت فيها على سؤالها: «لماذا تحبينني؟».

أجابت: «لا أدري، ولا آبه».

الآن، فيما أضع اللمسات الأخيرة على هذه الصفحات، أثق أنني قد وجدتُ الجواب في حديثها الأخير مع الصحافي.

الحب يحدث ببساطة.

٢٥ شباط/فبراير ٢٠٠٦

الساعة ٧:٤٧

تمّ إنجاز النسخة المنقّحة

يوم عيد القديس إكسبيديتوس.